مسالك الأبصار
في ممالك الأمصار
لابن فضل الله العمري
شهاب الدين أبي العباس أحمد بن يحيى
(ت ٧٤٩هـ/ ١٣٤٩م)
الجزء الرابع
الممالك الإسلامية في اليمن والمغرب والأندلس وأفريقيا
تحقيق
أ.د. محمد عبدالقادر خريسات
د. عصام مصطفى هزايمة
د. يوسف أحمد بني ياسين
إصدارات
مركز زايد للتراث والتاريخ



مسالك الأبصار
في ممالك الأمصار

لابن فضل الله العمري

شهاب الدين أبي العباس أحمد بن يحيى

(ت ٧٤٩هـ/ ١٣٤٩م)

الجزء الرابع

المالك الإسلامية في اليمن والمغرب والأندلس وأفريقيا

تحقيق

أ.د. محمد عبدالقادر خريسات

د. عصام مصطفى هزايمة　　　د. يوسف أحمد بني ياسين



مركز زايد للتراث والتاريخ



مسالك الأبصار
في ممالك الأمصار
الجزء الرابع

تم قيد الكتاب في سجل الإيداع النوعي بقسم الملكية الفكرية وحقوق المؤلف
بوزارة الإعلام والثقافة تحت رقم : أم ف ٤/١٥٦-٢٠٠١م
تاريخ ٢٦/٩/٢٠٠١م

تصنيف ديوي ٩١٣
مسالك الأبصار في ممالك الأمصار
لابن فضل الله العمري
الجزء الرابع
الممالك الإسلامية في اليمن والمغرب والأندلس وأفريقيا
تحقيق
أ.د. محمد عبدالقادر خريسات ، د. عصام مصطفى هزايمة ، د. يوسف أحمد بني ياسين
إصدار مركز زايد للتراث والتاريخ
مقاس ١٧×٢٤ ، ص ٢٤٠
موسوعات بلدان



مركز زايد للتراث والتاريخ
ZAYED CENTER FOR HERITAGE AND HISTORY

ص. ب ٢٣٨٨٨ العين - الإمارات العربية المتحدة - هاتف: ٧٦١٥١٦٦-٣-٩٧١+ ، فاكس: ٧٦١٥١٧٧-٣-٩٧١+
P.O. BOX 23888 AL AIN - U. A. E. - TEL: 971- 3 - 7615166, FAX: 971 - 3 - 7615177
E-mail: zc4hh@zayedcentre.org,ae

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم :

لقد حرص مركز زايد للتراث والتاريخ، منذ إنشائه على خدمة الثقافة العربية الإسلامية، واستطاع بفضل توجيهات **سمو الشيخ سلطان بن زايد آل نهيان**، نائب رئيس مجلس الوزراء، رئيس نادي تراث الإمارات، ودعمه للتوصول أن ينشر عدداً من كتب التراث العربي الأصيل، وفي ظل هذه التوجيهات الكريمة يجيء إصدار «مسالك الأبصار في ممالك الأمصار» إدراكاً منا لأهمية هذا العمل الموسوعي. ومدى حاجة الباحثين إليه، لإنارة بعض جوانب حضارتنا العربية الإسلامية التي لا تزال بحاجة إلى البحث والنشر والتحقيق.

وتعد موسوعة «مسالك الأبصار في ممالك الأمصار» لـ شهاب الدين أحمد بن يحيى المعروف بابن فضل الله العمري (ت ٧٤٩ هـ - ١٣٤٩م) من أجل الموسوعات وأكثرها أهمية، فهي أقدم مصدر وصف فيه مصنفه دولة المماليك والدول الإسلامية المعاصرة لها. والموسوعة نوع من التأليف يدخل في ما هو معروف اليوم بالجغرافيا الوصفية لما اختصت به من ذكر للطرق والمسالك والبلدان والمدن، وما يتعلق بها من المزروعات والطعام والشراب والنقود وغيرها، ولما تفردت به من ذكر للأدباء والفقهاء والمحدثين والأطباء والشعراء والحكام والصوفية وغير ذلك. ومن أوائل من كتب في هذا الجانب من علماء المسلمين ابن خرداذبه المتوفى سنة ٢٨٠ هـ . وابن حوقل المتوفى (ت ... بعد ٣٦٧ هـ) والاصطخري المتوفى (ت... بعد ٣٤٦هـ) ثم سار على هذا النهج عدد من المؤرخين والبلدانيين العرب والمسلمين.

ولكتاب **مسالك الأبصار** شهرة خاصة ومكانة متميزة بين كتب التراث الإسلامي فمؤلفه ابن فضل الله العمري نقل لنا صورة واضحة عن أحداث عصره السياسية والاقتصادية والاجتماعية ؛ فهو يتحدث عن ممالك الإسلام المعتبرة. وأمصاره المترامية. فنراه يبين في مقدمته منهج الموسوعة والغرض من تأليف هذا الكتاب بقول مختصر (إثبات نبذة دالة على المقصود في ذكر الأرض وما فيها ومن فيها ...) كما يحدد الموضع الذي يتحدث عنه تحديداً دقيقاً من حيث موقعه: ومساحته وبيئته الجغرافية، والطبيعية

والاجتماعية والبشرية والاقتصادية، فيقرب إلى القارئ صورة المملكة، أو الموضع، وما كانت عليه معاملات أهلها وأنشطتهم المختلفة؛ ويعطي وصفاً عاماً وشاملاً للمجتمع الذي يتحدث عنه. واعتمد ابن فضل الله العمري على مصادر أصيلة من أعيان الثقات، ومن ذوي التدقيق في النظر والتحقيق للرواية، مستكثراً من الأسئلة عن كل مملكة حتى يتيقن من صحة ما يكتبه، وإن ذكر عجيبة أو غريبة ألقى عهدتها على راويها وهذا هو المؤرخ الثبت الثقة الذي يتحرى الدقة، ويجعلها مسلكاً له، فنسمعه ينقل عن ابن البرهان في وصف اليمن قائلاً:«واليمن جميعه كثير الأمطار، ولا تنشأ به السحب، ويمر المطر من وقت الزوال إلى أخريات النهار - هذا وقت إمطارها في الغالب - وبها الأنهار الجارية والمروج الفيح. والأشجار المتكاثفة ... وغالب أموالها من موجات التجار الواصلين من الهند ومصر والحبشة مع ما لها من دخل البلاد» فهو يذكر . كما نرى . عناصر من البيئة الجغرافية والطبيعية والاجتماعية والبشرية والاقتصادية .. حتى أنه لا ينسى أن يذكر ألوان الثياب وما إليها؛ ويعطينا فكرة واضحة، وصورة ممثلة عن المملكة والعصر خلال فصول السنة فيقول: «ولقد أقمت مدة بعدن، وهي مدينة مجلوب إليها كل شيء ؛ حتى الماء يحتاج بها إلى كلفة في النفقات؛ لارتفاع الأسعار بها في المأكل والمشارب، ويحتاج المقيم بها إلى ماء يتبرد به في اليوم مرات إبّان قوة الحر».

ولنا أن نتأمل ما كتبه ابن فضل الله على هذا المنهج، ونستقرئ من كتابه ما كانت عليه الممالك والمجتمعات، ونقوم بأبحاث مختلفة نفيد منها، ونفيد الإنسانية، إذ الحضارة نهر كبير تتجمّع روافده من ثقافات الشعوب وتراثها.

جاءت موسوعة ابن فضل الله العمري في قسمين كبيرين . وكلا القسمين قسمه العمري إلى (أنواع) حسب اصطلاحه ، والأنواع هي بدورها قسمها العمري إلى أبواب.

القسم الأول منها كما ذكر:

(في ذكر الأرض وما اشتملت عليه براً وبحراً) . ويقع في نوعين:

النوع الأول : في ذكر المسالك ويقع في خمسة أبواب.

النوع الثاني: في ذكر الممالك ويقع في خمسة عشر باباً.

والقسم الثاني : (في سكان الأرض من طوائف الأمم) ويقع في أربعة أنواع:

النوع الأول : في الإنصاف بين المشرق والمغرب.

النوع الثاني: في الكلام على الديانات.

النوع الثالث: في الكلام على طوائف المتدينين.

النوع الرابع: في ذكر التاريخ وفيه بابان:

الأول : في ذكر الدول التي كانت قبل الإسلام.

والثاني: في ذكر الدول الكائنة في الإسلام.

وتبرز قيمة الكتاب أيضاً في أنه ترجم لمجموعة من الشخصيات لم يرد ذكرهم إلا في هذا المصنف، كما ضمنه تراجم للقراء وأهل الحديث الشريف والفقهاء وأهل اللغة وأهل النحو وأرباب المعاني والبيان وفقراء الصوفية والأطباء والحكماء والوزراء والشعراء والأذكياء وعقلاء المجانين والحمقى والمغفلين وغيرهم.

والكتاب لم يأخذ حظه من النشر كما هو حال المصادر الأخرى مثل **صبح الأعشى في صناعة الإنشا** للقلقشندي (المتوفى سنة ٨٢١هـ) و**الخطط المقريزية** لتقي الدين أحمد بن علي المقريزي (المتوفى ٨٤٥ هـ) وكتاب **حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة** للمؤرخ جلال الدين السيوطي المتوفى (سنة ٩١١هـ) رغم نقلهم عن كتاب **مسالك الأبصار**.

أما المؤلف فهو شهاب الدين أحمد بن يحيى بن فضل الله بن المجلى بن دعجان القرشي العدوي الدمشقي العمري نسبة إلى عمر بن الخطاب مولود في دمشق ثالث شوال سنة (٧٠٠ هـ / ١٣٠٠م) ومنها اكتسب نسبة الدمشقي، مع أنه نشأ في مصر وتتلمذ فيها على مجموعة من علماء عصره كالمزي، وابن الفركاح ، وابن تيمية ، وابن الصائغ، وابن الزملكاني، وأبي الثناء محمود ، وغيرهم، وقد تحددت إقامته في عهد الملك الناصر محمد بن قلاوون إلى وفاته بالوباء الأسود كما أطلق عليه (سنة ٧٤٩ هـ).

قال عنه الصفدي : (رزقه الله أربعة أشياء لم أرها اجتمعت في غيره وهي الحافظة طالما طالع شيئاً إلا وكان مستحضراً لأكثره، والذاكرة التي إذا أراد ذكر شيء من زمن متقدم كان ذلك حاضراً كأنه إنما مر به بالأمس ، والذكاء الذي تسلط به على ما أراد، وحسن القريحة في النظم والنثر) . (**الوافي** ،٨، ٢٥٤ - ٢٥٥)

ورغم حياته القصيرة (٧٠٠ - ٧٤٩ هـ) فقد تمكن العمري من وضع عدد من المصنفات إلى جانب موسوعته الضخمة مسالك **الأبصار في ممالك الأمصار** نذكر

منها مؤلف صغير الحجم عنوانه: **التعريف بالمصطلح الشريف** وهو كتاب خاص بالكتابة الديوانية وكل ما يحتاج إليه في هذا المجال.

وكتاب **النزهة الكافية في معرفة الكتابة والقافية** ، وكتاب **دمعة الباكي ويقظة الشاكي** وكتاب **ذهبية العصر** عن شعراء المشرق والمغرب، وكتاب **صبابة المشتاق** في المدائح النبوية، ومجموعة رسائل إخوانية بعنوان **الشتويات** ، وكتاب **الدعوة المستجابة** ، **ونفحة الروض** و **سفرة السفرة** وغيرها.

ويقوم المركز حالياً بنشر موسوعة مسالك الأبصار بدءاً من الجزء الثالث حيث أن الأول والثاني قد تم نشرهما من قبل. وحرصاً منّا على تسهيل مهمة الباحثين فقد تم وضع فهارس للأعلام والأمكنة في نهاية كل جزء.

وختاماً : لا يسعنا إلا أن نتقدم بالشكر الجزيل للزملاء أ.د. عبد القادر خريسات، ود. عصام مصطفى عقله و د.يوسف أحمد بني ياسين على ما بذلوه من جهود مضنية في البحث والاستقصاء في التحقيق جعل من هذه الموسوعة الرائعة ترى النور بعد غياب طويل ظلت خلاله حبيسة دور المخطوطات كما أشكر الدكتور محمد فاتح زغل على عمله الدؤوب ومتابعته للمراحل المختلفة التي مرت بها المخطوطة خلال الطباعة والنشر وكل من أسهم في هذا العمل الهام ، سائلين المولى عز وجل أن يوفقنا لما فيه خدمة تراثنا العربي والإسلامي.

والله من وراء القصد.

الدكتور / حسن محمد النابودة

مدير مركز زايد للتراث والتاريخ

مقدمة المحققين

يأتي تحقيقنا لهذا المجلد وهو الجزء الرابع من كتاب "مسالك الأبصار في ممالك الأمصار" ضمن خططنا لإخراج موسوعة ابن فضل الله العمري كاملة، وقد واجهتنا في هذا المجلد مجموعة من المشاكل لعل أهمها: ندرة المصادر العربية التي تناولت المادة التي تناولها ابن فضل الله وخاصة فيما يتعلق بترتيب الممالك ورسوم السلاطين، وجاءت المعلومات المماثلة لها في كتاب القلقشندي صبح الأعشى نسخاً حرفياً لما في كتاب ابن فضل الله، وكذلك واجهتنا مشكلة عدم توفر مخطوطات لدينا من هذا الجزء سوى مخطوطة سزكين مما جعلنا في كثير من الأحيان نقف حائرين أمام فك رموز بعض الألفاظ أو المصطلحات، غير أننا وجدنا في كتاب القلقشندي معيناً يصلح أن يكون نسخة ثانية للكتاب.

واعتمدنا في هذا المجلد على:

١. المخطوطة التي نشرها العالم فؤاد سزكين استناداً إلى مخطوطة أحمد الثالث تركيا ورمزنا لها بحرف (ت).

٢. مطبوعة أيمن فؤاد السيد لملكة اليمن. ورمزنا لها بحرف (أ).

٣. النشرة التي قدمها صلاح الدين المنجد لملكة مالي في كتابه «مملكة مالي في المصادر الجغرافية العربية»، ورمزنا لها بحرف (م).

وموسوعة المسالك تعد واحدة من أهم الموسوعات المصنفة في العصر المملوكي، وقد صنفها كتاب الإنشاء في عهد السلطان محمد بن قلاوون، وكان الهدف منها تقديم معلومات متكاملة لكتاب الدواوين في عصره، وتدوين ما استطاع الوصول إليه من معارف إسلامية تضمنها عصره والعصور السابقة له.

وبنى خطة كتابه على أساس المفاضلة بين المشرق والمغرب كرد منه على ما اعتبره محاولات من الكتاب المغاربة والأندلسيين لتفضيل المغرب على المشرق أو التسوية في الفضل بينهما، وخص منهم بالذكر ابن سعيد المغربي صاحب العديد من المصنفات

وأبرزها «المغرب في حلى المغرب».

لهذا السبب بدأ موسوعته بالجغرافيا لإثبات أن المشرق أكثر عمرانا وأغنى مواردا من المغرب، وأكثر مدنا مقدسة، وأعدل مناخا.

ثم تناول الممالك الإسلامية في المشرق والمغرب في عصره مبينا فضل المشرق في ذلك، ومعرجا على بعض الممالك النصرانية وخاصة الدولة البيزنطية.

وثم بدأ المقارنة بينهما حسب العلوم المعروفة آنذاك، القراءات. والتفسير، والحديث، والفقه، واللغة والنحو والبيان، والحكماء والأطباء، والمغنون. والوزراء والكتاب، والشعراء، والحيوان. والنبات، والمعادن، والطوائف الدينية والفرق الإسلامية ثم التاريخ منذ آدم وحتى عصره.

هذا،وتميزت الموسوعة بالعديد من الميزات أهمها:

١- اعتماد المصنف في كتابه على مشاهداته الشخصية أو على رواة ثقات ممن شاهدوا الأحداث التي يكتب عنها، وهي عديدة جدا في الموسوعة، ولذلك أصبح كتابه المصدر الأساس لكل من جاء بعده مثل القلقشندي، والسيوطي، والخالدي. وغيرهم.

٢- اعتماد المصنف على وثائق ديوانية في مواضيع موسوعته لم يتح لغيره من المصنفين السابقين أو اللاحقين له الاطلاع عليها.

٣- اعتماد المصنف على روايات عائلية فيما لم يشاهد من أحداث، وتظهر قيمة تلك الروايات من كون أسرته أسرة كتاب خدمت الأيوبيين والمماليك مما جعلها على اتصال بمعظم أمراء الدولة ووزرائها الكبار، وكبار الشخصيات الدينية والعلمية في بلاد الشام ومصر.

٤- اعتماده على مصادر مفقودة احتفظ لنا بفكرة عنها وعن مادتها من خلال موسوعته ولعل من أبرزها كتاب المغرب في حلي المغرب لابن سعيد المغربي - الأقسام الخاصة بأفريقية - وكتاب الكمائم للبيهقي، وغيرها المئات من الكتب الموجودة في ثنايا الموسوعة.

٥- اعتماده على مصادر فقد جزء منها، وجاءت الكثير من نقوله من الأقسام

المفقودة منها من مثل كتاب بغية الطلب لابن العديم.

٦- تركيز المصنف في كل فن من فنون المعرفة الإسلامية على الترجمة لكل من عرف أو اشتهر فيه من معاصريه، مبينا من خلال علاقته الشخصية بهم - جوانب لم يتطرق إليها مصنف قبله. ومن أشهرها ترجمته: لابن تيمية، وللذهبي، وللمزي، ولأبي حيان الأندلسي وغيرهم.

٧- إيراده العديد من القصائد الشعرية لشعراء لاتوجد اليوم في دواوينهم المنشورة، اعتمادا على نسخ فريدة من دواوينهم قرأها على شيخه أبي حيان، وخير مثال عليها أشعار أبي حيان الأندلسي.

٨- يعد العمري أول من تحدث عن الإمارات الإسلامية الكردية، والممالك الإسلامية في الأناضول.

وأخيرا فيما يتعلق بمزايا الكتاب، فإننا نقول إنها متعددة وسيجدها القارىء كثيرة في ثنايا كل جزء من الموسوعة. وليس هدفنا في هذا التقديم إحصاءها بل تقديم فكرة مختصرة عنها.

أما فيما يتعلق بالمخطوطات المعتمدة في تحقيق الموسوعة، فهي متعددة وكثيرة وللأسف الشديد لايوجد مخطوطة متكاملة منه حتى اليوم، ولذلك اعتمدنا على مجموعة من المخطوطات تتغير أحيانا حسب كل مجلد من مجلدات الموسوعة وضحناها في بداية كل مجلد إلا أن أبرز تلك المخطوطات:.

١- نسخة فؤاد سزكين التي صورها ونشرها على شكل مخطوط، وهي نشر معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية، فرانكفورت، ١٩٨٩، وهي مخطوطة مجموعة من عدة مكتبات تركية، والحقيقة أنها على ما ادعى سزكين ليست أجود المخطوطات الموجودة للموسوعة بل هناك نقص واضح في أوراق عديدة من بعض الأجزاء. وقد رمزنا لهذه النسخة بالحرف (ت).

٢- نسخة الكونغرس الأمريكي، وهي تفتقد لثلاثة أجزاء هي الأول والسابع عشر، والواحد والعشرين، وهي أيضا نسخة مجموعة من أكثر من مكتبة في العالم وأبرزها

أبرزها «المغرب في حلى المغرب».

لهذا السبب بدأ موسوعته بالجغرافيا لإثبات أن المشرق أكثر عمرانا وأغنى مواردا ن المغرب، وأكثر مدنا مقدسة، وأعدل مناخا.

ثم تناول الممالك الإسلامية في المشرق والمغرب في عصره مبينا فضل المشرق ي ذلك، ومعرجا على بعض الممالك النصرانية وخاصة الدولة البيزنطية.

وثم بدأ المقارنة بينهما حسب العلوم المعروفة آنذاك، القراءات. والتفسير، الحديث، والفقه، واللغة والنحو والبيان، والحكماء والأطباء، والمغنون. والوزراء الكتاب، والشعراء، والحيوان. والنبات، والمعادن، والطوائف الدينية والفرق الإسلامية م التاريخ منذ آدم وحتى عصره.

هذا،وتميزت الموسوعة بالعديد من الميزات أهمها:

١- اعتماد المصنف في كتابه على مشاهداته الشخصية أو على رواة ثقات ممن ـاهدوا الأحداث التي يكتب عنها، وهي عديدة جدا في الموسوعة، ولذلك أصبح كتابه ـمصدر الأساس لكل من جاء بعده مثل القلقشندي، والسيوطي، والخالدي. وغيرهم.

٢- اعتماد المصنف على وثائق ديوانية في مواضيع موسوعته لم يتح لغيره من ـمصنفين السابقين أو اللاحقين له الاطلاع عليها.

٣- اعتماد المصنف على روايات عائلية فيما لم يشاهد من أحداث، وتظهر قيمة تلك ـروايات من كون أسرته أسرة كتاب خدمت الأيوبيين والمماليك مما جعلها على اتصال ـمعظم أمراء الدولة ووزرائها الكبار، وكبار الشخصيات الدينية والعلمية في بلاد الشام مصر.

٤- اعتماده على مصادر مفقودة احتفظ لنا بفكرة عنها وعن مادتها من خلال وسوعته ولعل من أبرزها كتاب المغرب في حلي المغرب لابن سعيد المغربي - الأقسام خاصة بأفريقية - وكتاب الكمائم للبيهقي، وغيرها المئات من الكتب الموجودة في ـنايا الموسوعة.

٥- اعتماده على مصادر فقد جزء منها، وجاءت الكثير من نقوله من الأقسام

المفقودة منها من مثل كتاب بغية الطلب لابن العديم.

٦- تركيز المصنف في كل فن من فنون المعرفة الإسلامية على الترجمة لكل من عرف أو اشتهر فيه من معاصريه، مبينا من خلال علاقته الشخصية بهم - جوانب لم يتطرق إليها مصنف قبله، ومن أشهرها ترجمته: لابن تيمية، وللذهبي، وللمزي، ولأبي حيان الأندلسي وغيرهم.

٧- إيراده العديد من القصائد الشعرية لشعراء لاتوجد اليوم في دواوينهم المنشورة، اعتمادا على نسخ فريدة من دواوينهم قرأها على شيخه أبي حيان، وخير مثال عليها أشعار أبي حيان الأندلسي.

٨- يعد العمري أول من تحدث عن الإمارات الإسلامية الكردية، والممالك الإسلامية في الأناضول.

وأخيرا فيما يتعلق بمزايا الكتاب، فإننا نقول إنها متعددة وسيجدها القارىء كثيرة في ثنايا كل جزء من الموسوعة. وليس هدفنا في هذا التقديم إحصاءها بل تقديم فكرة مختصرة عنها.

أما فيما يتعلق بالمخطوطات المعتمدة في تحقيق الموسوعة، فهي متعددة وكثيرة وللأسف الشديد لايوجد مخطوطة متكاملة منه حتى اليوم، ولذلك اعتمدنا على مجموعة من المخطوطات تتغير أحيانا حسب كل مجلد من مجلدات الموسوعة وضحناها في بداية كل مجلد إلا أن أبرز تلك المخطوطات:.

١- نسخة فؤاد سزكين التي صورها ونشرها على شكل مخطوط، وهي نشر معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية، فرانكفورت، ١٩٨٩، وهي مخطوطة مجموعة من عدة مكتبات تركية، والحقيقة أنها على ما ادعى سزكين ليست أجود المخطوطات الموجودة للموسوعة بل هناك نقص واضح في أوراق عديدة من بعض الأجزاء. وقد رمزنا لهذه النسخة بالحرف (ت).

٢- نسخة الكونغرس الأمريكي، وهي تفتقد لثلاثة أجزاء هي الأول والسابع عشر، والواحد والعشرين، وهي أيضا نسخة مجموعة من أكثر من مكتبة في العالم وأبرزها

تبات تركيا، غير أنها تمتاز في بعض أجزائها بجودة تتفوق على مخطوطة سزكين
بزنا لها بالحرف (ك).

٣- نسخة باريس، وهي أجزاء محدودة من الكتاب الا أنها من النسخ الممتازة غير
ا محدودة العدد ورمزنا لها بالحرف (ب).

٤- نسخة جامعة ييل. مجموعة لاند بيرج وهي أيضا محدودة الأجزاء ورمزنا لها
حرف (ل).

د- نسخة دار الكتب في القاهرة وهي من النسخ الجيدة للكتاب ورمزنا لها بالحرف
) غير أنها تعود لفترة متأخرة من ناحية النسخ.

هذه هي أهم المخطوطات التي اعتمدنا عليها في إخراج الكتاب لا كلها، فهناك
تبات تحتفظ بالجزء والجزئين وهكذا، ولعل أهم دراسة ظهرت عن مخطوطات
ـالك هي دراسة دورثيا كرافولسكي، في كتابها إيران والعرب.

ندعو الله أن يوفقنا ويعيننا في تحقيقه.

والله ولي التوفيق

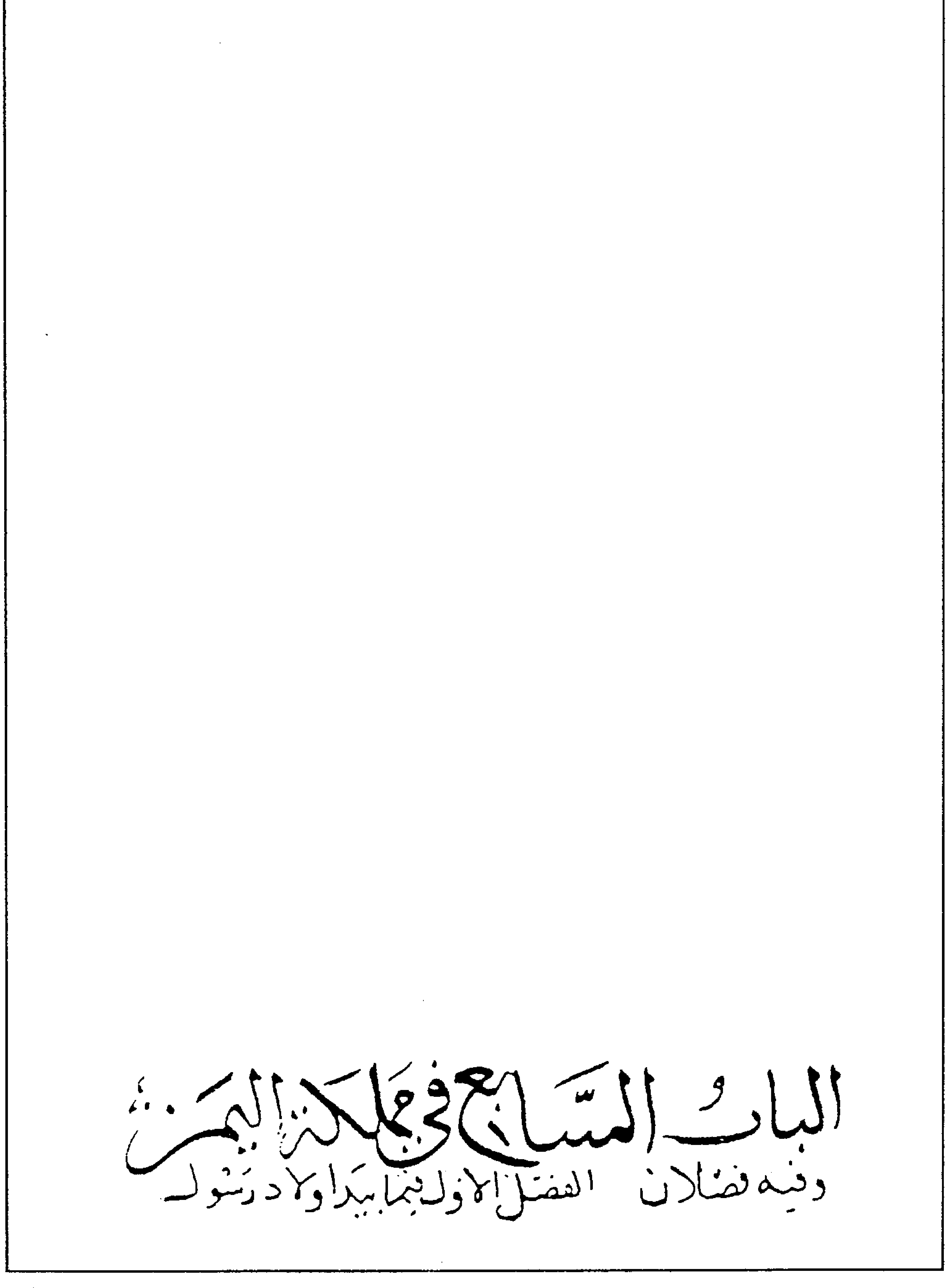
أ.د. محمد عبد القادر خريسات

د. عصام مصطفى عقله

د. يوسف أحمد بني ياسين

صور من المخطوطات المعتمدة في التحقيق





الباب السابع في مملكة اليمن
وفيه فصلان الفصل الاول فيما بيد اولاد رسول

الصفحة الأولى من نسخة سزكين

الفصل الثاني فيما بيد الاشراف واليمن اقليم منسوب له
ذكر قديم ذكر السكري ان عرضه ستة عشر مرحلة وطوله
عشرون مرحلة المرحلة ست فراسخ وهو كرسي ملك التبابعة
من حمير وبه كانت سبا وفيه كانت بلقيس وعرشها المذكور في
القران الكريم وحدوده من القبلة الموضع المعروف بطلحة الملك
ومن الشرق حا وحام ومن الغرب حضرموت ومن الشمال حضرموت
عدن وهو لشتمل على عدة بلاد وقلاع وحصون حصينة ولكن مدنه
بفضل البر تباين بعضها عن بعض وبلادها مختلفة نجود وتهايم فالنجود
باردة الهوا طيبة المسكن والتهايم حارة شديدة الحر واعظم
الملك بها تعز وزبيد وتعز من النجود مبنية على جبل شاهق وزبيد
من التهايم مبنية في وطاة واليمن مفرق الملك بعضه بيد الشرفا
المطيعين لامام الزيدية لا يطيعون الا لاعيتهم القايمين منهم اماما
[illegible]
[illegible]
عليها نفصل الفصل الاول في ما بيد اولاد رسول
[illegible] المشار اليه اذا
[illegible] واخبرني [illegible] من احوالها ابو جعفر احمد بن محمد
المقدسي عرف بابن غانم وكان من كتاب الانشا بمصر وبدمشق
ثم دخل اليمن وخدم بها صاحبها اذ ذاك الملك المويد داود
ابن عمر رحمه الله في كتابة الانشا واختص به وابو محمد عبد الباقي
ابن عبد المجيد اليمني الكاتب وعملت ما ذكره عنهما ولا اميز اللازم لكل
واحد منهما على التخصيص وهو ان صاحب اليمن يصيف بتعز ويشتي
بزبيد وتعز بلد كثير الما بارد الهوا كثير الفاكهة من العنب

الصفحة الثانية من نسخة سزكين

عليه باب مذهب سلطاني والوزير لا يخرج معه من هذا الباب بل
يسبق فيفتح الباب ويخرج السلطان منه وحده ويقوم له دائما عند
الوفا فيمن من اعيان اهل دولته ولا يقوم له في الجامع غيرهم وليس له مقصورة
مخصوصة فاذا انفصل عن الصلاة تعلق بقبة كبيرة له في صدر الرحبة
وحضر عنده ارباب دولته ثم يدخل قصره قال وربما خرج الى البستان له من اعظم
ما تضمنت بنيانه الملوك واختلفت بغرسه السلاطين ويخرج في نحو مائتي فارس
من شباب ارباب دولته يعرفون بالصبيان يوصلونه الى البستان ويرجعون
ويبقى وزراؤه نوابا له وهم ثلاثة وزير الجند وهو بمنزلة الحاجب بمصر ووزير
المال وهو المسمى صاحب الاشغال ووزير الفضل وهو كاتب السر ومهما
تجدد عند كل واحد منهم اسر كيفا لعدد بانكابات في ما يتعلق بشغله المنوط به
ويجاوبه بما يراه قلت .. وركوبه الى البستان في زماننا من قصبته
الى البستان محجوب الحيطان لا يراه به احد والمشهور ان سلطانها الان قليل
الركوب فاذا ركب الى هذا البستان لا يكون معه الا جواريه وخدمه قال
[illegible]
ويحضر عنده اعيان دولته وارباب الاشياخ والجانب الايمن لارباب
والايسر للاشياخ وبين يديه وزير الجند ووزير المال وصاحب [illegible]
والمحتسب وصاحب [illegible] المظالم قلت [illegible]
قال ويتبرا بعض نصف المظالم الكتب الغير ما رفع اليه ويرد الى وظيفة المقصة
المتعلقة بوظيفته ويتفقد البايه قلت والمشهور عن السنة
التونسيين ان سلطانهم الان كثير الاحتجاب بخلاف جميع سلفه قليل الاعتنا
بالنظر في مصالح اهل دولته وربما ياتيه مقتصر على لذاته مع ما هو عليه من الشجاعة
والاقدام وآثار النفس يحكى عنه في اول طلبه الملك ومنازعته لثوار عليه ما اورثت
له به الابطال وذرت بن الويه الجبال ويدل على قوله فعله وعلى فعله

صفحة ٥٨ من نسخة سزكين

قوله

انظر الينا ترانا ما بنا دهش ... كيف يطرق اسد الغابة الدهش

لا نعرف الحادث المرهوب انفسنا ... انا بارتكاب الموت ننتعش

من لف طي سنان من يداسنه ... لشرب عطشا ما زاد في العطش

كان وجنتها من حمرة شفق ... وشعرها غسق بالجسم مفترش

فالقوس تلبسها والسهم مقلتها ... وان تروت فان السالف الحنش

فانظر ما نطق به اول هذه الابيات من افتخاره ثم ما جذبته اليه دواعي النفس من ذكر حبيبه ومدامه واما ما هو محض بوصف شجاعته وجلده فنحو

قوله

مواطننا في دهرهن عجائب ... وازماننا لم تعد عنها الغرائب

مواطن لم تحك التواريخ مثلها ... ولا حدثت عنها الليالي الذواهب

وذلك ما نبه على نقله قوله في الابتداء عن عزيمته لا في ما كان عظيمه

[illegible]

ان هذه الابيات تحكي من قصيدة ... [illegible]

[illegible] السلطان ابو تاشفين عبد الرحمن صاحب تلمسان [illegible] قلعة سنان

[illegible] ثلاثة عدوه شبانا كثيرا [illegible] ثلث جراحات

واخذه ولدا من اولاده وحفظه فقال هذه الابيات ومدح في اخرها

سلطان المغرب وذكر فيها تعهده لابا زكريا في البحر لاستنجاده فدله

لمساعدة ساعده وسدد لاعدائه سهما قاصدا ، ولما اخذت اولاده

صبا اليهم واشتاقهم وقال يسلي نفسه وصبرا لهم

طمت في دموعي للفراق بحور ... واجج ما بين الضلوع سعير

وثارت قلبي يوم فارقت صبيتي ... لله احبا خلت [illegible]

وقلت له يا قلب صبرا فقال لي ... جانبك اني نحوهن اسير

صفحة ٥٩ من نسخة سزكين

يطمع بها طامح ولا طامع وينتهي حد هذا الى ما قابلت من ارض بجاية سنة

قال هذا الشريف ولابي زيدان تيد ومن بني عمه يحيى بن شعيب

بن عبد الله قال وهو اكبر سنا منه وحسبا وتليهم عرب تعرف

بالقرابين يملكون الى البحر المحيط وبلادهم حاحا وركراكة وسقاو

ومسوفة هذه اهل لثام وبرقع ازرق لا تزال تمشي الرجال بتلك

البراقع والنسا مكشفات الوجوه وقال وسبب براقعهم اظهار

الحزن على المهدي بن تومرت قال واما الطريق الثانية الشامية

الاخذة من قابس على الساحل فغالب اهلها بربر ومصامدة سكان

مدر واهل زرع وحرث قال يلي آل حمرا الاخذين من قابس

الى اسفاقس فيما هو الى المهدية طائفة تعرف بحكيم وشيخهم سحيم

وكان قد دخل الاندلس غازيا وحضر يوم طريف ولهذه الطائفة

الى القيروان وتليهم دلاج وكان شيخهم الحبيب فتا ونام والداه

عبد الله ويحيى ابنا الحبيب قال وفي زمانه يرمون بنفوس البلد

[illegible] شرق المغرب [illegible]

من سوسة الى الحمامات الى الجزيرة القبلية الى تونس وتليهم

طائفة من البربر من تونس الى تبسة الى بلد [illegible]

وهولاء من هوارة ولهم اشياخ كثير ومن جهتهم [illegible]

والكعوب وتليهم طائفة اخرى زواع من البربر والهاصة وشيخهم

صخر بن موسى وتليهم سدويكش وبلادهم من قسنطينة الى

بجاية وشيخهم عبد الكريم ابن منديل وله اعتلاق بخدمة السلطان

ابي الحسن وتليهم في جبال زواوة بربر من بني حسن زواوة وتليهم

ارض متيجة وسكانها بنو عبد الواد اصحاب تلمسان بنو عياد

وفرقة تعرف بمغراوة قال ومغراوة نحو الف فارس

صفحة ١٨٤ من نسخة سزكين

وكلهم عنز وهم بارض تلمسان على وادي شلف قال وكلهم من
بني عبد الواد وهم من زناته وكلهم با قراطه بن تلمسان الى فاس
واما سفيان فخالية من العرب وكلهم من فاس الى مراكش رياح
ايضا ثم المصامده من مراكش الى البحر المحيط فهذا ما ذكره الشريف
ابو عمر عبد العزيز الادريسي وحدثني بذلك كله في صفر سنة
تسع واربعين وسبعماية واما عرب الطرق المسلوكة التي
توجد فيها الجمال الى مكه المعظمة فقد ذكرنا فيما تقدم انها
اربعه طرق ولا تقصد مكة غالبا الا منها وهي اربع جهات
مصر ودمشق وبغداد وتعز وقد ذكرنا انفا من العربان الذين
بهذه الطرق من ملاكها ومن تحكم عليهم اذا حل بارضهم كال
فضل وال مري وبني عقبة من لم يكن بد من ذكره فيما تقدم ونحن
الان نسوق لهم طريقا طريقا وفريقا فريقا ليكون اوضح اذ ذكر
هذه الطرق وعربانها من المهم المتقدم فاما طريق الركب المصري
فمن القاهرة الى عقبة [illegible]
العقبة لبني عقبة ومن العقبة الى اكرى وهم من القبيقة لبني
ومن اكري الى نما وهي اخر الوعرات لجهينة ومن نما الى نهاية
[illegible] الفرعا والى نهاية الصفرا [illegible] على لبني حسن اصحاب
الينبع وكلهم من اقاربهم من بني حسن اصحاب بدر الى رملة عالج
في طرف قاع البزوه ومن الصفرا الى الجحفة ورابغ لزبيد الحجاز
ومن الجحفة على قديد وما حولها الى الثنية المشرفة على عسفان
للشريف حسان من بني حسن ومن الثنية المشرفة على عسفان الى
النخل وهو المسمى بالحاطب لبني جابر وهم في طاعة صاحب مكة
المعظمة من بني حسن واما طريق الركب الشامي

الصفحة الأخيرة من نسخة سزكين

الباب السابع
الممالك الإسلامية
اليمن

الباب السابع
في مملكة اليمن

وفيه فصلان: الفصل الأول: فيما هو بيد أولاد رسول. الفصل الثاني فيما هو بيد الأشراف.

واليمن إقليم متّسع، وله ذكر قديم. ذكر البكري: أن عرضه ستَّ عشرة مرحلة. وطوله عشرون مرحلة[1]، المرحلة ستة فراسخ. وهو كرسي مُلك التَّبابعة من حِمير، وبه كانت سبأ. وفيه كانت بلقيس وعرشها المذكور في القرآن الكريم[2]. وحدوده من القِبلة الموضع المعروف بطلحة الملك، ومن الغرب[3] حاوَحكم[4]، ومن الشرق حضرموت، ومن الجنوب عَدَن.

وهو يشتمل على عدّة بلادٍ وقلاعٍ وحصونٍ حصينة، ولكن مُدُنه يفصل البرُّ ما بين بعضها عن بعض. وبلادها مختلفة: نجود وتهائم، فالنجود باردة الهواء طّيبة المَسكن، والتهائم حارة شديدة الحرّ. وقاعدة الملك بها: تَعِز وزبيد. وتَعِز من النجود مبنية على جبل شاهق، وزبيد من التهائم مبنية في وطأة.

واليمن مفرَّق المُلك، بعضه بيد الشُّرفاء المضيعين لإمام الزَّيْدَّية لا يطيعون إلا لأئمتهم القائمين منهم إمامٌ بعد إمام، وقاعدة مملكته صنعاء وبعضه بيد أكراد عصاة على ملوك اليمن، وبعضه بأيدي عرب لا تطيع، وهذا الكلام عليها جُملياً فلنتكلم عنها تفصيلاً.

(١). يعادل (٣٦كم). انظر: هنتس، المكاييل: ص٩٤.

(٢). انظر: البكري، المسالك والممالك: ٣٧٦،٣٦٦. والمقصود هنا سورة النحل: الآية ٢٣.

(٣). ت: الشرق.

(٤). ت: حا وجلم.

الفصل الأول
فيما بيد أولاد رسول

فأما معظم اليمن فمع تَعز وزبيد، وصاحبها هو المشار إليه إذا قيل: صاحب اليمن. وأخبرني بجملة ما أذكر من أحوالها أبو جعفر أحمد بن محمد المقدسي عُرف بابن غانم(٥). وكان من كتَّاب الإنشاء بمصر ودمشق، ثم دخل اليمن وخدم بها صاحبها إذ ذالك الملك المؤيد داود بن عمر(٢) رحمه الله، في كتابه الإنشاء واختص به. وأبو محمد عبدالباقي بن عبدالمجيد اليمني الكاتب، وجملة ما أذكره عنهما ولا أميّز(٣) الآن قول كل واحد منهما على التخصيص وهو:

أن صاحب اليمن يُصيّف بتعز، ويشتّي بزبيد. وتعز بلدٌ كثير الماء، بارد الهواء، كثير الفاكهة من العنب، والرمّان. والسَّفرجل، والتفاح، والخوخ، والتوت، والموز، والبطيخ الأخضر والأصفر، ويوجد به كثير من أنواع الفاكهة، وإن كان قليل المقدار. فأما الموز، والليمون. والأُترج وما يناسبه فكثير إلى غاية. ويوجد بها كثير من الريّاحين والزّهور خلا البنفسج والنيلوفر. وربما احتاج ساكنها إلى لبس الفراء في بعض أحيانها(٤).

وأما زبيد فإنها شديدة الحرّ لا يبرد ماؤها ولا هواؤها، وهي أوسع رقة وأكثر بناءَ، ولها نهرٌ جار بظاهرها. وأما مساكن الملك فيهما فنهاية في العظمة وفرش الرخام والسقوف المدهونة(٥).

وأخِصّاء الملك بها الخِصيان. هم خاصته المقرّبون، وهو متوفر في غالب وقته على لذّاته والمتعة في قصوره بجواريه وقيانه. وله أرباب دولة ووظائف، ينحو في أموره منحى صاحب مصر، يتسمّع أخباره ويحاول اقتفاء آثاره في أحواله، وأوضاع دولته، غير أنه لا يصل إلى هذه الغاية، ولا تخفِق عليه تلك الرّاية، لقصور مدد بلاده وقلّة عددة أجناده(٦).

---

(١). شهاب الدين أبوجعفر أحمد بن محمد بن سلمان الجعفري (ت٧٢٧هـ/١٣٢٦م). انظر الصفدي، الوافي بالوفيات: ٨/١٩-٢٤.

(٢). المكل المؤيد داود بن عمر بن يوسف الرسولي (٦٩٦-٧٢١هـ/١٢٩٦-١٣٢١م): ابن شاكر، فوات الوفيات: ١/٤٢٨-٤٢٩، السبكي طبقات الشافعية الكبرى: ١/٣٢.

(٣). أ: ولأميز.

(٤). قارن بابن بطوطة، الرحلة ٢/١٠٧.

(٥). قارن بابن بطوطة، الرحلة: ٢/١٠٣.

(٦). ابن بطوطة، الرحلة: ٢/١٠٩، وقال أن ترتيبه يتفق مع سلطان الهند.

أخبرني أقضى القضاة أبو الربيع سليمان بن محمد بن قاضي القضاة الصدر سليمان الحنفي، وكان قد توجّه إلى اليمن وخدم في ديوان الجيش به: أنَّ مجموع جند اليمن ما يبلغ ألفي فارس، وينضاف إليهم من العرب الداخلين في طاعته مثلهم، وأراني جريدته الموضوعة لذلك فوقفت على بعضها وضاق وقتي عن الاستيعاب، وهي تشهد بما قال.

وصاحب هذه المملكة أبداً يرغب في الغرباء وحسن تلقّيهم غاية الإحسان[1]، ويستخدمهم فيما يناسب كلاً منهم، ويتفقدهم في كل وقت بما يأخذ به قلوبهم ويوطّنهم عنده[2].

وغالب جنده من الغرباء، وإذا دعت حاجة أحدٍ من جنده وغلمانه وأهل خدمته أجمعين إلى شيء وإن قلَّ، كتب إليه قصَّة يسأله حاجته فيها. فيوقّع عليها بخطه بإجابته إلى ما سأله أو إلى بعض ما سأله على ما يراه[3].

وهو قليل التصدّي لإقامته رسوم المواكب والخدمة والاجتماع بولاة الأمور ببابه، فإذا احتاج أحدٌ منهم إلى مراجعته في أمرٍ، كتب إليه قصّة يستأمره فيها فيكتب عليها بخطه ما يراه وكذلك إذا رُفعت إليه قصص المظالم هو الذي يكتب عليها بخطة بما فيه إنصاف الشاكي.

ورأيت علامة والد هذا السلطان القائم بها الآن على توقيع وهو على المصطلح المصري ما مثاله:

الشاكر لله على نعمائه في سطر وتحته[4] داود.

ولصاحب هذه المملكة البساتين والمتنزهات الحسنة، يتعهّدها في الأحيان، ويقيم بها للتنزّه بها، وهذا الملك لا ينزل في أسفاره إلا في قصوره مبنيّة له في منازل معروفة من بلاده، فحيث نزل في منزله وجد بها قصراً مبنياً ينزل به.

وباليمن الخيل العِراب الفائقة، والبغال نوعان: سروجيّة للركوب، وحبشيّة للأحمال، وبها الجمال والحمير وأنواع الدواب من البقر والغنم والطير من الإوز والدجاج والحمَام وغير ذلك[5].

---

(١). ساقطة من ت.

(٢). قارن بمعاملته الجيدة لابن بطوطة، الرحلة: ٢/١١١.

(٣). أ:يرام.

(٤). «في سطر وتحته» ساقطة من أ.

(٥). ابن المجاور، تاريخ المستبصر: ٢٤٤.

وهي بلاد رضية كثيرة الحبوب، وأقلُّ حبوبها القمح والشعير. وأكثرها الأرز والذرة والسمسم، وبها العسل الكثير وأنواع المقل، ووقودها السليط وهو السيرج ولا يوجد بها الزيت ولا الزيتون إلا إن جُلب من الشام(1).

واليمن جميعه كثير الأمطار، ولا تنشأ به السُّحب. ويمطر المطر من وقت الزوال إلى أخريات النهار، هذا وقت إمطارها في الغالب. وبها الأنهار الجارية، والمروج الفيح، والأشجار المتكاثفة في بعض أماكنها. ولها ارتفاع صالح من الأموال، وغالب أموالها من موجات التجار الواصلين من الهند ومصر والحبشة. مع ما لها من دخل البلاد.

وأما الإمرة بها فقد تُطلَق على مَن ليس بأمير. واما الإمرة الحقيقية التي تُرفع به الأعلام (وتضرب لها)(2) الكوسات فإنها لمن قلَّ، وربما أنه يتعدّى عدة الأمراء بها عشرة نفر.

وباليمن أرباب وظائف من النائب، والوزير، والحاجب. وكاتب السر، وكاتب الجيش، وديوان المال. وبها وظائف الشاد والولاية، على ما قدَّمنا ذكره من أنه يتشبّه بالأحوال المصرية.

وباليمن عدن وهي من أعظم المراسي بها، وتكاد تكون ثالثة تعزّ وزبيد في الذكر وبها قلعة السَّمدان المشهورة بالمنعة العظيمة وبها قلعة، وهي خزانة مال ملوك هذا الإقليم(3).

وصاحب اليمن يُهادي صاحب مصر ويداريه لمكان إمكان التسلط عليه من البحر والبر الحجازي. وقد كان مَلِكُها الآن الملك(4) المجاهد علي بن داود(5)، بعد موت أبيه المؤيّد، نجم عليه من أهله من جاذَبه رداء الملك ونازعَه في سلطانه. وأعان الناجم عليه كثير من مماليك أبيه وعسكر اليمن وأهله، فارسل إلى صاحب مصر السلطان الملك الناصر أبي المعالي محمد بن الملك الناصر، صاحب مصر، على ولده المجاهد علي، وبعث يترامى عليه ويستمد الإعانة منه فجهز إليه عسكراً منعه من عدوه الناجم عليه(6)، ومكن له في اليمن وبسط يده فيه. ثم عاد العسكر المصري. وإن لم يكن هذا موضع هذا، ولكنّا ذكرناه تنبيهاً

(1). ابن المجاور. تاريخ المستبصر: 63، 128، 86.

(2). زيادة اقتضاها السياق.

(3). قارن بابن بطوطة. الرحلة: 111/2؛ ابن المجاور، تاريخ المستبصر: 127-130.

(4). ساقطة من أ.

(5). الملك المجاهد علي بن المؤيد داود (720-764هـ/1321-1362م): ابن حجر. الدرر الكامنة: 118/3.

(6). «ويستمد الإعانة... الناجم عليه» ساقطة من أ.

على تمكّن صاحب مصر من اليمن إذا قصَده.

ثم نعود إلى ما كنّا بصدده فنقول: إن صاحب اليمن لا يزال من الشريف الإمام الزَّيدي، صاحب صنعاء، على مباينة تارة يكون بينهم عهد، وتارة يُنبذ العهد بينهم[١]، لأن الإمام الزيدي له قوة في مكانة ومنعة من أعوانه. ولو استقلّ مجموع اليمن لملك واحد كبُر محله وعظم قدره في الممالك الجليلة.

ولا تزال ملوك اليمن تستجلب من مصر والشام طوائف من أرباب الصناعات لقلة وجودهم باليمن.

وليس باليمن أسواق دائمة، إنما بها يوم من الجمعة تُجلب فيه الأجلاب، ويُخرج أرباب الصناعات والبضائع لبضائعهم[٢] على اختلافها، وتقام في ذلك اليوم الأسواق ويباع ويشترى، فمن أعوزه شيء في وسط الجمعة لا يكاد يجده، إلا المآكل. فإنها دائمة كغيرها من البلاد. والمعمولات من المآكل في أسواقها للبيع قليلة، بل مَن أراد شيئاً عمله لنفسه[٣].

فأما زي ملكهم وعامة[٤] الجند بها فأقبية إسلامية، ضيّقة الأكمام، مزنّدة على اليد، ومناطق، وعلى رؤوسهم تخافيف لأنس. وفي أرجلهم الدلاكسات -وهي أخفاف من القماش الحرير الأطلس والعتّابي وغير ذلك.

ولقد وقعت وحشة بين هذا المجاهد وبين بعض أمرائه وهو: عليُّ بن عمر بن يوسف الشهابي، فجاء إلى مصر وأقام بها وهو بهذا الزي، خلا الدلاكس[٥]، فإنه خلعه ولبَس الخُفّ المعتاد، وهو يحضر الموكب السلطاني بمصر على هذا الزي إلى الآن.

وحدّثني الحكيم الفاضل صلاح الدين أبوعبدالله محمد بن البرهان[٦]، وكان الملك المؤيد صاحب سلطانها الآن قد طلبه من مصر واستدعاه وأعذب ماءه ومرعاه وأقام لديه حيناً من الدهر بين جنّات ونهر، متنقلاً معه في ممالكه، متوقلاً[٧] على شرفات ممالكه،

---

(١). أ: بينهما.

(٢). أ: بضائعهم.

(٣). جانب العمري الصواب في هذه المسألة، فقد كانت اليمن تغص بالأسواق الدائمة. أنظر: ابن المجاور، تاريخ المستبصر: ٨٩.

(٤). أ: وسائر.

(٥). ت: الدلكس.

(٦). أ: متوملاً.

(٧). «قال: اليمن... الصيف» ساقطة من أ.

قال: اليمن أميل إلى الحر، وهو كثير المطر في أخريات الربيع إلى وسط الصيف(1). قال: ولقد أقمت مدة بعَدَن، وهي مدينة مجلوب إليها(2) كل شيء حتى الماء، يحتاج بها إلى كلفة في النفقات لارتفاع الأسعار بها في المآكل والمشارب ويحتاج المقيم بها إلى(3) ماء يتبرّد به في اليوم مرات إبّان قوة الحر(4).

وإليها مجمع الرّفاق وموضع سفر الآفاق يحيط بها من الصين والهند والسّند والعراق وعُمان والبحرين ومصر والزّنج والحبشة، فلا يخلو أسبوع بها من عدة تجار وسفن وواردين وبضائع شتّى ومتاجر، والمقيم بها في مكاسب وافرة، وتجائر مربحة، لا يبالي بما يغرمه بالنسبة إلى الفائدة، ولا يفكر في سوء المقام لكثرة الأموال النامية(5).

قال: ولَحطّ المراكب عليها وإقلاعها مواسم مشهودة(6). وإذا أراد ناخوذة مركباً فيها السفر إلى جهة أقام علمه برَنْكٍ خاصٍّ له، فَعلِم التجار وتسامع الناس وبقي كذلك أياماً، ويقع الاهتمام بالرحيل ويُسرع التجار في نقل أمتعتهم، وحولهم العبيد بالقماش السري والأسلحة النافعة، وتنصب على شاطئ البحر الأسواق، ويخرج أهل عدن للفرجة عليهم.

قال الحكيم ابن البرهان: وأما ظفار فهي لأولاد الملك الواثق، ابن عم صاحب اليمن، وهم وإن أطلق عليهم اسم الملك نوّابٌ له.

وظفار أقصَد إلى الهند من عدن، وهي على جَوْن خارج من البحر، تُنقل البضائع في زوارق صغار فيه تقطع ذلك الجون، ثم توسّق ذلك في السفاين(7).

قال الحكيم صلاح الدين محمد بن البرهان: واسم اليمن أكبر، لا تُعد في بلاد الخِصب بلاده. وغالب دخله مما يؤخذ من التجّار والجِلاّبة براً وبحراً. ومملكة بني رسول السواحل وما جاورها، ولهذا كانت مملكتهم أكثر مالاً من مملكة الشرفاء بصنعاء وما والاها على ما يأتي ذكره في مكانه.

---

(1). محمد بن إبراهيم الجرائحي (ت743هـ/1342م). انظر: الصفدي، الوافي بالوفيات: 2/23.

(2). أ: إليه.

(3). «كلفة في... بها إلى» ساقطة من أ.

(4). قارن بابن بطوطة، الرحلة: 2/111.

(5). الإدريسي، نزهة المشتاق: 1/54.

(6). أ: مشهورة.

(7). انظر: ابن بطوطة، الرحلة: 2/123-127، 129.

قال: وشعار هذا السلطان وردة حمراء في أرض بيضاء. قلت: ورأيت أنا الستّجَق اليمني، وقد رُفع في جبل عرفات سنة ثمان وثلاثين وسبعمائة، وهو أبيض وفيه وردات حُمر كثيرة.

قال: وإنما تجتمع لهم الأموال لقلّة الكُلَف في الخرج والمصاريف التي تذهب في سعة النفقات والتكاليف، ولأن الهند يُمدهم بمراكبه ، ويواصلهم ببضائعه.

وسألته عمّا بها من الفواكه، فذكر غالب[1] ما يوجد بمصر. غير أنه بالغ في وصف السَّفرجل بها. وقال: إن القمح يوجد ولكنه يغلو، واللحوم رخيصة، ويُعمل بها السكر والصابون ولكنهما ليسا كما بمصر والشام.

قال: ولأهل اليمن سيادات بينهم محفوظة، وسعادات عندهم ملحوظة، ولأكابرهم حظ من رفاهية العيش والتنعّم والتفنّن في المأكل، يُطبخ في بيت الرجل منهم عدة ألوان. ويُعمل فيها بالسكر والقلوب، وتُطيَّب أوانيها بالعطر والبَخور، وتكون له الحاشية والغاشية[2]. وفي بيته العدد الصالح من الإماء. وعلى بابه جملة من العبيد والخدم والخِصيان من الهند والحبوش. ولهم الديارات الجليلة، والمباني الأنيقة، إلا الرخام ودهان الذهب واللازورد فإن هذا من خواص السلطان لا يشاركه فيها مشارك من الرعايا ولا من الأعيان، وإنما فرش دورهم بالخافقي وما يجري مجراه.

قال: ولسلطانهم بستان يعرف بالثّعبَان يطلع إليه ويقيم فيه أياماً للنزهة به، فيه قبّة ملوكية ومقعد سلطاني فرشهما وأزرهما رخام ملوّن. وبهما[3] عُمُد قليلة المِثل، يجري فيها الماء من تبعات تملأ العين حسناً، والأذن طرباً بصفاء صفيرها وطيب خريرها وترى شبابيكها على أشجار قد نُقلت إليه من كل مكان تجمع بين فواكه الشام والهند. ولا يقف ناظر على بستان أحسن منه جمعاً، ولا أجمع حسناً ولا أتم صورة ولا معنى، يهزّ معاطف دوحة[4] الصبا كأنه في اليمن من بقايا سبأ.

قال ابن البرهان: وأما كتّاب الإنشاء عنده، فإنه لا يجمعهم رئيس يرأس عليهم يقرأ ما يرد على السلطان ويُجاوب عنه، ويتلقى المراسم ويُنفّذها. وإنما السلطان إذا دعت حاجته إلى كتابه كتب، بعث إلى كل منهم ما يكتبه. فإذا كتب الكاتب ما رُسم له به بعثه على يد

---

(١). ط: غالباً.

(٢). تضيف أ: والحبوش وهي سبق نظر.

(٣). أ: وبها.

(٤). أ: روحه.

أحد الخِصّيان وقدَّمه إلى السلطان فعلم عليه ونفّذه.

قال ابن البرهان: وملوك اليمن أوقاتهم مقصورة على لذّاتهم. والخلوة مع حظاياهم وخاصّتهم من النّدماء والمطر بين، فلا يكاد السلطان يُرى، بل ولا يسمع أحد من أهل اليمن له على الحقيقة خبراً، مع شدة ضبطهم لبلادهم ومن فيها، واحترازهم على طرقها براً وبحراً من كل جهة، فلا يخفى داخل يدخل إليها ولا خارج منها.

وللتجار عندهم وضع جليل، وفي غالب متحصلات اليمن منهم وبسببهم، كما قدّمنا ذكره.

قلت ولقد كان الملك المظفر، ثم ولده الملك المؤيّد - رحمهما الله تعالى - مقصودين من آفاق الأرض، قل أن يبقى مجيد في صنعة من الصنائع إلاّ ويصنع شيئاً على اسمه، ويجيد فيه بحسب الطاقة، ثم يجهزه إليه أو يقصده به ويقدمه إليه من يده، فيُقبل عليه ويقبَل منه. ويحسن نزله، ويسنى جائزته، ثم إن أقام في بابه، أقام مكرماً محترماً، أو عاد عاد[1] محبواً محبوراً ولهما ولع بحب الغرباء وكرمٌ متسع في الحياة يجزلون من نعمهم العطايا ويثقلون بكرمهم المطايا، ولقد قصدهما كثير من الناس وحصل لهم البر والإيناس، ثم ينوّع لهم من الكرامة ما أسناهم أن ينفذوا بسلطان. وأسلاهم عن الأوطان، فحمدوا بالنجاح آمالاً، ووردوا أخفافاً وصدروا ثِقالاً.

وكان من عادتهما، رحمهما الله، أن لا يسمحا بعَوْد غريب، ولا يصفحا عن هذا عن بعيد ولا قريب قصداً لعمارة اليمن بإنادة آفاقه بكل شيء حسن، إلا مَن قدّم لديهما القول بأنه أتاهما راحلاً لا مقيماً، وزائراً لا مستديماً، فإنهما كانا لا يكلّفانه مقاماً لديهما ولا دواماً في النزول عليهما، بل يجزلان رفادته ويجملان إعادته.

وأما من جاء إليهما بنيّة مقيم وأقام لديهما على أنه لا يريم. فإنهما يرفعان مجده ويوسّعان رفده ويجريان عليه الإدرار[2]، وإليه السّحاب المداد، ويخلّيان له داراً مملوءاً له بصفوف الخدم حداداً، فإذا أراد الارتحال عن دارهما مكّناه من العود كما جاءهما وخرج عنهما على أسوأ حال، مسلوباً بما عندهما من نعمة ومال، عقاباً له على مفارقته لأبوابهما، لا بخلاً بما جادت به سحابهما.

---

(١). ساقطة من أ.

(٢). أ: الأدوار.

وحكى لي غير واحد ممن قصدهما على أنه يقيم ثم فارقهما على هذا الحال الذميم من حالاته لكل أعجوبة وما وجد. ثم فارقه من نعمهما الموهونة المسلوبة.

قلت: ولقد كان يبعثان إلى مصر والشام والعراق من يتلقّط لهما محاسن الوجود وأحاسن الموجود، فلا يبقى طرفةً م الطرف إلاّ اشتريت لهما، ولا من يجيد[1] في شيء من الأشياء إلاّ استميل إليهما. ورغّب في الكثير حتى يقصد حضرتهما ويقيم عندهما، وقلّ من يعود عنهما «ومن وجد الإحسان قيداً تقيّدا»[2].

قلت: وصاحب اليمن لا عذر له لأنه محجوب ببحر زاخر وبرّ منقطع من كل جهة، والمسألة بينه وبينهم، فهو لهذا قرير العين، خالي البال، لا يهمّه إلاّ صيد، ولا يهيّجه إلا بلبال.

---

(١). أ: مجيد.

(٢). «ومن وجد...تقيّدا» ساقطه من أ وهو عجز من بيت شعر للمتنبي، العكبري، شرح شعر المتنبي:١/٢٩٢.

الفصل الثاني
فيما بيد الأشراف

قد تقدم على من قام باليمن من أهل هذا البيت الشريف وهم إلى الآن وأمرهم على ما كان. وأوّل قائم منهم الإمام يحيى الهادي بن الحسين الزاهد بن أبي القاسم الرسّي بن إبراهيم طباطبا بن إسماعيل الدّيباج بن إبراهيم الغمر بن الحسن المثّنى بن السيد أبي محمد الحسن بن أمير المؤمنين أبي الحسن عليّ بن أبي طالب سلام الله عليهم ورحمته وبركاته.

قام بهذه الدّعوة في اليمن وأعلن منادبه بالإمامة ورفع بيته وشيّد له الدعامة، واستجاب الخلق لندائه، وصلّوا بصلاته وأمّنوا على دعائه. وقام منهم مقاماً محموداً، وأثّر فيهم من الصلاح أثراً مشهوداً.

وفي ذلك يقول:

بنى حَسَن إنّي نَهَضْتُ بثأركُم ... وثَأر كتابِ الله والحَقّ والسُّنَنْ
وصَيَّرتُ نفسي للحوادثِ عُرْضَةً ... وغِبْتُ عن الإخوانِ والأهْلِ والوَطَنْ

وأكثر ما أطاعت له في اليمن النجود وانقادت إلى حكمه ودانت له ولإمامته واجتهدت على استمرار أمره واستدامته.

وقام بعد الهادي ولده المرتضى وتمّت البيعة، ثم اضطرب أمره، واضطرّ إلى تجريد السيف، وقاتله الناس، وفي ذلك يقول:

كدر الوِرْد علينا بالصَّدَر ... فِعْلُ مَنْ بدَّل حَقّاً وكَفَرْ
أيُّها الأمَّةُ عُودِي للهُدَى ... ودَعى عَنْك أحاديث البَشَرْ
عَدِمَتْني البيضُ والسُّمْرُ معاً ... وتَبَدَّلت رُقاداً بسَهَرْ
لأجُرَّن على أعدائنا ... نارَ حرْبٍ بِضَرام وشَرَرْ

وكان رحمه الله خطيباً شاعراً ذا مقال يستنفر ناظماً وناثراً. قال صاحب التبيين في أنساب الطالبين: وهم الآن الأئمة باليمن.

قلت: وحدّثني الشيخ شهاب الدين أبوجعفر أحمد بن غانم، أنه في عوده من اليمن -فاراً من صاحب اليمن-نزل بحماهم ونزح[1] إلى كنف نعماهم فألحقه القائم بظلّه الظليل وأتحفه بفضله الجزيل، وأرشفه على ظمأ زلالا، وأنصفه من الأيام منّة وإفضالاً. ووصله بمال وأوصله إلى أحسن مآل. قال: وهو في منعة منيعة، وذروة رفيعة، دار ملكه صنعاء. ولرعاياه من حياطة الله به استرعاء. قال: وهو بنفسه يؤمّهم ويخطب، ويركب في نحو ثلاثة آلاف فارس، وأمّا عسكره من الرجالة فخلق جمّ، وأمم تموج كاليمّ.

وحدّثني الشيخ تاج الدين أبومحمد عبدالباقي بن عبدالمجيد اليمني، عن ما هو عليه هذا الإمام في يومه من الأمر المطاع حتى لا يخرج أحدٌ منهم له عن نصٍّ، ولا يشاركه فيما يتميّز به ويختص مع القوة في مباينة لصاحب اليمن لا يخافه ولا يرجوه، والاهمال له فلا يستجيب له ولا يدعوه، مع أنه لا يزال صاحب اليمن، يرعى جانبه وتعقد بينهما العقود، وتكتب الهدن، وتوثّق المواثيق، وتشترط الشروط[2].

قلت: وقد أتى آتٍ إلى الأبواب السلطانية الشريفة، زعم أنه مرسل من حضرة هذا الإمام، وحدّثني كثيراً من تفاصيل أحوالهم من التشدّد في الدين، وإقامة الحق والعمل والإلتزام بموجبه وأن الأئمة في هذا البيت أهل علم يتوارثه إمام عن إمام وقائم بعد قائم. هذه جملة من أحوالهم ذكرناها[3].

وأما صنعاء فدار ملكهم. فقد تقدّم في هذا الكتاب من أحوالها ما يغني عن إعادته هنا. وهي قاعدة ملك اليمن في قديم الزمان، وأوقاتها كلها على مناسبة الاعتدال، لذيذة الهواء كثيرة الفواكه يقع بها الأمطار والبرد ويكاد يجمد الجمر. وهي تشبّه في اليمن ببعلبك في الشام لتمامها الحسن وحسنها التّمام[4].

وسألت الفاضل تاج الدين عبدالباقي اليماني عمّا يعلمه من أحوال الأئمة بهذه المملكة، فكتب إليّ أنه ما يعلم تفاصيل أحوالهم إذ هم كالبادية.

---

(1). أ: وترح.

(2). العمري، التعريف بالمصطلح الشريف:١٨.

(3). العمري، التعريف بالمصطلح الشريف: ١٨.

(4). قارن بابن بطوطة، الرحلة: ٢/١١١.

قال: وأئمة الزيديين كثيرون، والمشهور منهم: المؤيّد بالله، والمنصور بالله، والمهدي بالله، والمؤيد[1] يحيى بن حمزة. قال: ويحيى بن حمزة هو الذي كان آخراً على عهد الملك المؤيد داود بن يوسف صاحب اليمن، وكاتب الهدنة تكون بينهما.

قال: وابتداء دولة الزيديين كانت في أواخر دولة بني العبّاس، قال: وأظنّها من المستضيء. قال: ولهؤلاء دعوة بالجيلان، وهي كيلان، ولهم دعاة هناك يجبون لهم الزكاوات من تلك البلاد ومن يجيب داعيهم فيها.

قال: وهم من أولاد زيد بن الحسن بن المثنّى، قال: وشيعتهم كثيرة وأئمتهم لا يحجبون ولا يحتجبون، ولا يرون التفخيم والتعظيم، الإمام كواحد من شيعته: في مأكله ومشربه وملبسه، وقيامه وقعوده، وركوبه ونزوله، وعامة أموره، يجلس ويجالس، ويعود المرضى، ويصلّي بالناس على الجنائز، ويشيّع الموتى، ويحضر دفن بعضهم[2].

قال: وشيعته لهم في إمامهم حسن اعتقادهم وهم يستشفون بدعائه، ويمرُّون يده على مرضاهم، ويستسقون المطر إذا أجدبوا به. قال: وهم يبالغون في ذلك مبالغهم العظيمة.

سألته فهل لهذه الدعوة حقيقة؟ قال: هذه أقوالهم التي كانت[3] تبلغنا عنهم وتصل إلينا من نحوهم وما أجزم.

قلت: ولا يكبر لإمام هذه سيرته- في التواضع لله. وحسن المعاملة لخلقه، وهو من ذلك الأصل الطاهر والعنصر الطَّيب - أن يجاب دعاؤه ويتقبَّل منه.

وحدَّثني الحكيم الفاضل صلاح الدين محمد بن البرهان: أن اليمن تنقسم إلى قسمين: سواحل وجبال فالسواحل بها لبني رسول، والجبال كلُّها أو غالبها للأشراف، وهي أقلُّ دخلاً من السواحل لمدد البحر لتلك واتصال سبيلها منه. وانقطاع المدد عن هذه البلاد لانقطاع سبيلها من كل جهة.

وحدثني أبوجعفر بن غانم أن بلاد الشُّرفاء هؤلاء متَّصلة ببلاد السَّراة، إلى الطَّائف، إلى مكة المعظَّمة، وأنها طريقه التي سلكها في عوده من اليمن.

قال: وهي جبالٌ شامخة عليَّة، ذات عيون دافقة ومياه جارية، على قرىً متصلة، الواحدة

(١). ت: المطهر.

(٢). العمري، التعريف بالمصطلح الشريف: ١٨.

(٣). ساقطة من أ.

إلى جانب الأخرى، وليست لواحدة تعلُّق بالأخرى، لكل واحدةٍ أهلٌ يرجع أمرهم إلى كبيرهم. لا يضمُّهم مُلك مَلِك ولا يجمعهم حكم سلطان، ولا تخلو قرية منها من أشجار وعروش ذوات فواكه أكثرها العنب واللوز. ولها زروع أكثرها الشّعير. ولأهلها مشاية أعوزتها الزرائب وضاقت بها الحظائر.

قال: وأهلها أهل سلامة وخير وتمسُّكٍ بالشريعة ووقوف معها. يعضُّون على دينهم بالنواجذ ويقرون كلَّ من يمرّ بهم، ويضيِّفونه مدَّة مقامه حتى يفارقهم. قال: وإذا ذبحوا لضيفهم شاةً، قدَّموا له جميع لحمها ورأسها وأكارعها وكرشها وكبدها وقلبها، يأكل ما يأكل ويحمل ما يحمل.

قال: وأهل هذه البلاد لا يفارق أحد منهم قريته مسافراً إلى الأخرى إلا برفيق يسترفقه منها ليخفره، وإلا فلا يأمن أولئك لعداوة بينهم وتفرُّق ذات بين.

ثم نعود إلى تتمّة الكلام في مملكة الأشراف فنقول. وبالله التوفيق: إنها تشتمل على عدّة حصون منيعة وبلاد مخصبة مرتعة، وقبائل عرب وحلفاء وأكراد في طاعة هؤلاء الشرفاء ولأمراء مكة ميل كلّي إليهم لقرابتهم بهم، لتمَذْهُبهم بمَذْهَبِهم.

والإمام في هذه البلاد يعتقد في نفسه ويعتقد أشياعه فيه أنه إمام معصوم مفترض الطاعة تنعقد به عندهم الجمعة والجماعة، ويرون أن جميع ملوك الأرض وسلاطين الأقطار تلزمهم طاعته ومتابعته حتى خلفاء بني العبّاس، وأن جميع مَن مات منهم مات عاصياً بترك متابعته ومبايعته. وهم يزعمون ويزعم لهم أن سيكون لهم دولة يدال بها بين الأمم. وتملك بها منتهى الهمم لا تهجع لها سيوف ولا تخضع صفوف. وفي رأيهم أن الإمام الحُجة المنتظر في آخر الزمان منهم.

وزيُّ هذا الإمام وأتباعه زيّ العرب في لباسهم والعِمامة والحنَك، ويقال في الأذان عندهم حيّ على خير العمل، ولا يظهر أحد منهم عندهم بسبّ، ولا تنقص[٢] على ما هو رأي الزيدية.

حدّثني مَن أقام بينهم مدّة صالحة: أنهم أهل نَجدة وبأس، وشجاعة ورأي، غير أن عددهم قليل، وسلاحهم ليس بكثير: لضيق أيديهم، وقلة دخل بلادهم.

قال: ولقد فارقتهم، في سنة اثنتين وثلاثين وسبعمائة، وهم لا يشُكّون أنه قد آن أوان

(١). أ: يبغض.

ظهورهم، وحان حين مُلكهم، ولهم رعايا[1] تختلف إلى البلاد، وتجتمع بمَن هو على رأيهم، يتربّصون ضعف الدول في أقطار الأرض.

وحدثني شيخنا قاضي القضاة شيخ الإسلام كمال الدين أبوالمعالي محمد بن علي الأنصاري ابن الزَّمْلَكاني[2]، رحمه الله، عند عودته من قضاء حلب عن رجل كان بها بأنه مات وترك صندوقين كبيرين مختومين، فظُنّ أن فيهما مالاً، ففُتحا فلم يوجد فيهما سوى كتب من أئمة هذه الجهة ونسخ أجوبة عنها، منها ما هو إليه ومنه. ومنها ما كان إلى قدماء آبائه وأسلافه ومنهم. فسألته كيف كانت وما الذي كان مضمونها؟

فقال: أما كيف؟ فعلى نحو طريقة السّلف: من فلان أمير المؤمنين وإمام[3] الوقت إلى فلان أو لفلان، أما بعد فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلاّ هو، وأعلمك بكذا وكذا. وكذلك نسخ الأجوبة وتبدأ باسم الإمام على عادة السّلف لا نقْص فيها ولا زيادة سوى قوله: وإمام الوقت. وأما مضمونها فيختلف[4] ومداره على استعلام الأخبار عامة، وأحوال الشيعة خاصة، والسؤال عن أناس منهم. وأنه قد ورد كتاب فلان وأعيد جواب فلان وأعيد جواب فلان عن أناس ما يُعرف مَن هم بكنايات موضوعة، وفي بعضها حديث الخُمس وذكر وصوله أو التقاضي به.

قال: ورأيت[5] في بعضها في هذا المعنى ما هذه عبارته وهي: «لا تؤخّروا مدد[6] من هنا من إخوانكم من المؤمنين في هذه البلاد الشاسعة، وهو حقّ لله في تزكية أموالكم ومدد إخوانكم من الضّعفاء واتّقوا الله و﴿اسْتَغْفِروا ربَّكُمْ إنَّهُ كانَ غَفَّاراً يُرْسل السَّماءَ عليكم مِدْراراً ويُمْدِدْكُم بأمْوالٍ وبنينَ ويجعل لَّكُم جَنَّتٍ ويَجْعَل لَّكُم أنهارا﴾[7].

فسألته عما صنعوا بتلك الكتب؟

فقال: عرفت الأمير أرغون نائب السلطان بها، فقال: إغسلوها[8] فغسلت. هذا ما انتهى إلينا من أخبارهم.

---

(١). ت: عادة.

(٢). قاضي قضاة حلب (ت٧٢٧هـ/١٣٢٦م): الصفدي، الوافي بالوفيات: ٤/ ٢١٤-٢٢١.

(٣). أ: وأما الوقت.

(٤). أك فمختلف.

(٥). أ: ووجدت.

(٦). أ: قدر.

(٧). سورة نوح: الآية ١٠-١٢.

(٨). اغتسلوها.

الباب الثامن

الممالك الإسلامية

الحبشة



الباب الثامن
في ممالك المسلمين بالحبشة

وفيه سبعة فصول:

الفصل الأول في أوفات.

الفصل الثاني في دوارو.

الفصل الثالث في أرابيني.

الفصل الرابع في هدية.

الفصل الخامس في شرخا.

الفصل السادس في بالي.

الفصل السابع في داره.

وهذه الممالك السبعة بأيدي سبعة ملوك. وهي ضعيفة البناء، قليلة الغناء، لضعف تركيب أهلها، وقلة محصول البلاد، وتسلط ملك ملوك الحبشة صاحب أمحرة عليهم مع ما بينهم من عداوة الدين ومباينة ما بين النصارى والمسلمين، ومع هذا فكلمتهم متفرقة وذات بينهم فاسدة[1].

وقد حكى لي الشيخ عبدالله الزيلعي وجماعة من فقهاء هذه البلاد: أنَّ هؤلاء الملوك السبعة لو اتفقت كلمتهم واجتمعت ذات بينهم قدروا على المدافعة أو التماسك ولكنهم مع ما هم عليه من الضعف وافتراق الكلمة بينهم تنافس. ومنهم من يترامى إلى صاحب أمحرة ويميل إليه بالطباع، وهؤلاء مع الذلة والمسكنة عليهم لصاحب أمحرة قطائع محررة تحمل في كل سنة وهي من القماش الحرير والكتان مما يجلب إليهم من مصر واليمن والعراق، وقد كان الفقيه عبدالله الزيلعي قد سعى في الأبواب السلطانية بمصر عند وصول رسل صاحب أمحرة إليها في تنجز كتاب البطريرك إليه بكف أذيته عن بلاده من المسلمين وأخذ حريمهم ورسم له بذلك، وكتب البطريرك كتاباً بليغاً شافياً

فيه معنى الإنكار لهذه الأفعال، وإنه حرَّم هذا على من يفعله بعبارات أجاد فيها، وفي

---

(١). قارن بالقلقشندي، صبح الأعشى: ٢١٧/٥.

هذا دلالة على الحال وسنذكر أمورهم مفصلة في موضعها[1].

قال لي الشيخ الصالح عبدالمؤمن: أن طولها براً وبحراً خاصاً بين نحو شهرين، وعرضها ممتد أكثر من هذا لكن الغالب في عرضه مقفر. وأما مقدار العمارة فهو ثلاثة وأربعون يوماً عرضا[2].

وبهذه الممالك السبع الجوامع والمساجد والمواذن وتقام بها الخطب والجمع والجماعات، وعند أهلها محافظةٌ على الدين ولا تعرف عندهم مدرسة ولا خانقاه ولا رباط ولا زاوية. وليست لهم إبل، وهي بلاد حارة ليست بمائلة إلى الاعتدال وألوان أهلها إلى الصفاء، وليست شعورهم في غاية التفلفل كأهل مملكة مالي وما معها وما يليها من جنوب المغرب. وفطنهم انية وفطرهم أذكى، وفيهم الزهاد والأبرار(٣).

وهذه البلاد وهي التي يقال لها بمصر والشام بلاد الزيلع[4] وإنما الزيلع قرية بالبحر من قراها، وجزيرة من جزائرها، وإنما غلب عليها اسمها. وبيوتهم من طين وأحجار وأخشاب مسقفة جملونات وقباب، وليست بذوات أسوار ولا لها فخامة بناء[5]. وقد أوردنا على جهة الإجمال / ونحن نذكر ذلك فصلاً إن شاء الله تعالى.

---

(١). قارن بالقلقشندي، صبح الأعشى: ٥/٣١٧.

(٢). قارن بالقلقشندي، صبح الأعشى: ٥/٣١٠.

(٣). قارن بالقلقشندي، صبح الأعشى: ٥/٣١٠.

(٤). الزيلع: ثغر على الشاطئ الافريقي لخليج عدن، وهي الثغر الوحيد للصومال. ولا يوجد منه اليوم سوى بقايا قليلة. دائرة المعارف الإسلامية: ١١/٢٧.

(٥). قارن بالقلقشندي، صبح الأعشى: ٥/٣١٠.

الفصل الأول
في أوفات

حدثني الفقيه عبدالله الزيلعي ومن معه من الفقهاء: أن مملكة أوفات طولها خمسة عشر يوماً وعرضها عشرون يوماً بالسير المعتاد. وكلها عامرة آهلة بقرى متصلة. وبها نهر جار هو أقرب أخواتها إلى الديار المصرية وإلى السواحل المسامتة لليمن، وهي أوسع هذه الممالك أرضاً، والإجلاب إليها أكثر لقربها من البلاد. وملكها يحكم على الزيلع[1]، والزيلع ميناء التجار الواردين إليها وهو في وقتنا اليوم شافعي المذهب، وغالبها شافعية، وعسكرها خمسة عشر ألفاً من الفرسان يتبعهم عشرون ألفاً أو أزيد من الرجالة، وهم يركبون الخيل عراباً بلا سروج، وإنما يوطئون لهم بجلود مرعز حتى الملك وخيلهم عراب[2].

وفي غالب الأوقات ركوبهم البغال، والملك عندهم أو الأمير يعد من حشمته إذا ركب بغلة يردف خلفه غلامه على كفل البغلة، وأما إذا ركب فرساً فإنه لا يردف أحداً عليه[3]. ويسمى الملك عندهم فاط، والملك يعتصب على رأسه بعصابة من حرير تدور بدائر رأسه، ويبقى وسط الرأس مكشوفاً[4].

وأما الأمراء والجند فتعصّب رؤوسهم بعصائب من قطن على مثل هذا الوضع ولا يعتصب بالحرير إلاّ الملك، وقل من يلبس منهم قميصاً أو ثوباً مخيطاً وإنما يتزرون وزرات، وتلبس طائفة أرباب السيوف منهم سراويلات[5].

وأما الفقهاء فتلبس العمائم وعامة الناس كوافي بيضاً طاقيات، ومن الفقهاء وأرباب النعم من تلبس القمصان وإلاّ فالجمهور الغالب الموزرات كل واحد بوزرتين واحدة على كتفه متوشحاً بها والأخرى في وسطه[6].

---

(١). قارن بالقلقشندي. صبح الأعشى: ٣١١/٥.

(٢). قارن بالقلقشندي. صبح الأعشى: ٣١١/٥.

(٣). قارن بالقلقشندي. صبح الأعشى: ٣١٩/٥.

(٤). قارن بالقلقشندي. صبح الأعشى: ٣١٨/٥.

(٥). قارن بالقلقشندي. صبح الأعشى: ٣١٨/٥.

(٦). قارن بالقلقشندي. صبح الأعشى: ٣١٨/٥.

وكلامهم بالحبشية وبالعربية ومما يعده أهل هذه المملكة من الحشمة أن الملك أو الأمير إذا مشى يتوكأ على رجلين من خاصته، والملك يجلس على كرسي حديد مُطعم علوه أربعة أذرع. ويجلس أكابر الأمراء حوله على كراسي أخفض من كرسيه وبقية الأمراء وقوف، ويحمل رجلان على رأسه السلاح، وإذا ركب يحمل على رأسه جتر حديد، فإن كان الملك راكب بغلة كان حامل الجتر رديفة. والجتر بيده وقدامة حجاب، ونتباء تطرد الناس، وتضرب قدامه الشبابة والبوقات من خشب اسمه البنبو المعمول منه في اليد وفي رؤوسها قرون بقرٍ، ويدق معها الوطواط، وهي طبول معلقة في رقاب الرجال، ويكون قدام الجميع بوق اسمه الحبناء وهو ملوى من قرون الوحش وحير عندهم اسمه عجزين من نوع بقر الوحش يكون طوله ثلاثة أذرع محروقاً من علوه يسمع من قريب نصف نهار فيعلم الناس ركوب الملك فيتبادر إليه من له عادة الركوب معه ويتنحى عن طريقه من يحب أن يتنحى[1].

وعنده قضاة وفقهاء وليس منهم بارع العلم، والملك يتصدى للحكم بين الناس ويقصد الإنصاف.

وفي مملكته مدن أمهات، وهي: بقلزرة، وكلجور، وسمجق، وسوا، وعدل، وجبا، ولاو.

وأكثر قتال هذه المملكة بالحراب، وفيهم الرماة بالنشاب[2]، وأقواتهم القمح والذرة والطافي وهو حب دقيق إلى غاية أكبر من الخردل، وهو أحمر اللون لهم منه قوت وعندهم الأبقار والأغنام كثيرة جداً، وكذلك السمن والعسل. وأما المعز فقليلة عندهم[3]. وأسعارهم رخية، وكيلهم يسمى الرابعيَّة، وهذا الكيل مقداره ويبة مصرية[4]. ورطلهم اثنا عشر أوقية وزن الأوقية عشرة دراهم نقرة بصنجة مصر[5].

وعندهم من قصب السكر مقدار صالح، ويخرج منه القند ويعمل قصعاً صغاراً وعندهم الموز. والجميز، والأترج، والليمون، وقليل من النارنج، والرمان الحامض. والمشمش. والتوت الأسود، والعنب الأسود، وهو والتوت قليلان، وعندهم تين بري وخوخ بري. ولكنهم لا يأكلون التين[6].

---

(1). قارن بالقلقشندي. صبح الأعشى: ٥/٢١٨-٢١٩. (٢). قارن بالقلقشندي. صبح الأعشى: ٥/٢١٨.

(٣). قارن بالقلقشندي. صبح الأعشى: ٥/٢١٥.

(٤). تساوي تقريباً ١٢.١٦٨ كغم قمح. انظر: هنتس. المكاييل: ٨٠؛ وقارن بالقلقشندي، صبح الأعشى: ٥/٢١٨.

(٥). يساوي ٣٧٨.٤غرام. انظر: هتس، المكاييل: ٣٢.

(٦). قارن بالقلقشندي. صبح الأعشى: ٥/٢١٥.

ولهم فواكه أخرى لا تعرف بمصر والشام والعراق فمنها: شجر اسمه كسياد يخرج ثمره أحمر صفة البلح، وهو حلو ماوي، وشجر يعرف لمويه يخرج ثمره أسود صفة البلح طعمه مر ماوي، ومنها شجر يسمى كوسي يخرج ثمرة مدوراً شديد الاستدارة كالبرقوق ولونه أصفر خلوقي كلون المشمش، وهو مزماوي. ومنها شجر طانة يخرج ثمره أصفر من البسر، وفي وسطه شبيه النوى، وهو حلو صادق الحلاوة. ومنها شجر اسمه أَوَجَات بفتح الواو والجيم تخرج ثمرته أكبر من حب الفلفل وطعمه شبيه به في الحراقة مع بعض حلاوة. ومنها شجر اسمه جات وهذه الجيم نطقهم بها بين الجيم والشين لا ثمر له. وإنما المأكول قلوبه، وهو يزيد في الذكاء، ويذكر الناسي، ويفرح، ويقلل الأكل والنوم والجماع، وكلهم يأكلونه، ويرغبون في أكله خصوصاً طلبة العلم منهم. ومن يريد الاشتغال أو من يؤثر دوام السهر لسفر يسافره أو لحرفة يعملها. عنايتهم به شبيه بعناية أهل الهند بالتنبول، وإن لم يكن هذا شبه ذلك وحاشى ما يقال عن تلك الأفعال المحمودة من مشابهة هذا لما يدل عليه من زيادة تجفيفه بما يورثه من قلة النوم والأكل والجماع[1].

ولقد أعجبني ما حكاه بعض هؤلاء الفقهاء المخبرين لي به عن الملك المؤيد داود صاحب اليمن رحمه الله قال: سافر بعض المسلمين من أهل بلاد الحبشة إلى اليمن واتصل بالملك المؤيد وصار من خاصته فمناه يوماً فتمنى عليه قلوب شجر الأوجات، فبعث من نقل إليه منها، وغرست باليمن فأنجبت، فلما آن اقتطاف قلوبها سأله الملك المؤيد عما يفيد، فوصف له ما يحدث عنها فلما قال له إنها تقلل الأكل والنوم والجماع. قال له الملك المؤيد: وأي لذة في الدنيا سوى هذا. والله لا آكله فإنني ما أنفق الأموال إلاّ على ثلاثة الأشياء، فكيف استعمل ما يحول بيني وبين لذاتي منها[2].

ويزرع عندهم اللوبياء، والخردل، والباذنجان، والبطيخ الأخضر، والخيار، والقرع والكرنب، ويطلع عندهم الملوخيا برية، وكذلك الشمار، والصعتر[3].

(1). قارن بالقلقشندي، صبح الأعشى: ٥/٢١٥.

(2). قارن بالقلقشندي، صبح الأعشى: ٥/٢٩٣.

(3). قارن بالقلقشندي، صبح الأعشى: ٥/٢١٥-٢١٦.

ويجلب إليهم الذهب من داموت وسحام وهما بلاد معادن بالحبشة وتساوي الأوقية منه من ثمانين درهماً إلى مئة وعشرين درهماً على قدر جودة الذهب، ورداءته بقدر ما يخالطه من التراب وكثر فيه والطّيب من الذهب عندهم يسمى ستراً وعندهم الدجاج الدواجن ولا لهم كثير رغبة في أكلها استقذاراً لها لأكلها من القمامات والزبل، وعندهم جواميس برية تصاد كما ذكر في بلاد مالي. وبها من أنواع الوحش: البقر، والحمر. والغزال، والنعام، والمها، والإبل، والكركدن. والفهد، والأسد، والضبعة العرجاء وتسمى عندهم مرغفيف، ويصاد عندهم دجاج الحبش المعروف ويؤكل ويستطاب لحمه ويفاخر فيه[1].

وليس لأمراء هذا الملك ولا لجنده إقطاعات عليه ولا نقود، إنما لهم الدواب الكثيرة السليمة، ومن شاء منهم زرع واشتغل ولا يعارض، ولهذا الملك سماط عام ممدود بل له سماط له ولخاصته، ولكنه يفرق في بعض الأحيان على أمرائه بقراً عوضاً عن أكلهم على السماط وأكثر ما يعطى الأمير الكبير منهم مائتي بقرة[2].

وليس بأوفات ولا بلادها دار ضرب ولا سكة ومعاملتهم بدنانير مصر ودراهمها مما يدخل مع التجار إلى بلادهم[3].

(١). قارن بالقلقشندي. صبح الأعشى: ٣١٥/٥.

(٢). قارن بالقلقشندي. صبح الأعشى: ٣١٩/٥.

(٣). قارن بالقلقشندي. صبح الأعشى: ٣١٦/٥.

الفصل الثاني
في دَوارو

حدثني هؤلاء الفقهاء المتقدمون في الفصل قبله: أن هذه المملكة طولها خمسة أيام وعرضها يومان[1]، وهي على هذا الضيق ذات عسكر جم نظير عسكر أوفات في الفارس والراجل وزيهم مثل زيهم في اللبس والركوب والهيئة سوى أن ملكها لا يحمل على رأسه جتر ولا يتوكأ الأكابر بها مثل الملك والأمراء على الأيدي[2]. وأقواتهم والموجودات التي عندهم من الحبوب والفواكه والخيول والدواب من نسبة ما تقدم إلاّ أنهم حنفية المذهب[3] ومعاملتهم بالحديد وتسمى الواحدة من تلك الحدايد: حَكُنُه بفتح الحاء المهملة وضم الكاف والنون، وهي في طول الابرة ولكنها أعرض من الإبرة تكون نحو عرض ثلاث إبر وعنها سعر تضبط به وإنما تباع البقرة الجيدة بخمسة آلاف حَكُنُة، ويباع الرأس الغنم الجيد بثلاثة آلاف حَكُنُه وهذه المملكة مجاورة الأوفات[4].

الفصل الثالث
في أرابيني

حدثني هؤلاء الفقهاء أيضاً: أن هذه المملكة مربعة على شكل التربيع طولها أربعة أيام وعرضها كذلك وعسكرها يقارب عشرة آلاف فارس[5]. وأما الرجالة فكثيرة جداً وأهلها حنفية وهي على دوارو وزي أهلها زي أهل دوارو وفي كل شيء والموجودات التي عندهم من الحبوب والفواكه والبقول والدواب وغير ذلك مثل دوارو ومعاملتهم بالحَكُنُة كما تقدم.

---

(1) قارن بالقلقشندي، صبح الأعشى: ٣١٢/٥.

(2) قارن بالقلقشندي، صبح الأعشى: ٣١٢/٥.

(3) قارن بالقلقشندي، صبح الأعشى: ٣١٠/٥.

(4) قارن بالقلقشندي، صبح الأعشى: ٣١٦/٥.

(5) قارن بالقلقشندي، صبح الأعشى: ٣١٣/٥.

الفصل الرابع

في هدية

حدثني أيضاً هؤلاء الفقهاء: أن صاحب هدية أقوى إخوانه من ملوك هذه الممالك السبعة وأكثر خيلاً ورجالاً وأشد بأساً على ضيق بلاده عن مقدار أوفات، وهذه البلاد طولها ثمانية أيام وعرضها تسعة أيام ولملكها من العسكر نحو أربعين ألف فارس غير الرجالة فإنهم خلق كثير مثل الفرسان مرتين أو أكثر وهم في زيهم ومعاملتهم وما يوجد عندهم من الحبوب والفواكه والبقول مثل أرابيني ودوارو، وبلاد هدية تلي أرابيني، وإلى مدينته تجلب الخدام من بلاد الكفار[1].

الفصل الخامس

في شرْخا

حدثني هؤلاء الفقهاء: أن هذه المملكة طولها ثلاثة أيام وعرضها أربعة أيام وعسكرها ثلاثة آلاف فارس ورجاله مثلها مرتين. وأكثر وهي كأخواتها دوارو وأرابيني في بقية أحوالها من الزي والمعاملة والحبوب والفواكه والبقول وسائر مالهم وما عليهم، وهي تلي هدية. وأهلها حنفية المذهب[2].

الفصل السادس

في بالي

حدثني هؤلاء الفقهاء: أن هذه المملكة طولها عشرون يوماً وعرضها ستة أيام وعسكرها ثمانية عشر ألف فارس والرجالة بها كثير عددهم، وأهلها مثل باقي أخواتها في جميع زيهم وأحوالهم وأقواتهم والموجودات عندهم، ولكنها أكثر خصباً وأطيب سكناً وأبرد هواءً وماءً، ولكنهم لا يتعاملون بالنقود مثل أوفات ولا بالحنكة مثل بقية ما تقدم. ولكن بالأعواض مثل البقر والغنم والقماش وهي تلي شرخاً وأهلها حنفية المذهب[3].

---

(١). قارن بالقلقشندي، صبح الأعشى: ٥/٣١٣.

(٢). قارن بالقلقشندي، صبح الأعشى: ٥/٣١٤.

(٣). قارن بالقلقشندي، صبح الأعشى: ٥/٣١٤.

الفصل السابع

في داره

حدثني هؤلاء الفقهاء: أن طولها ثلاثة أيام وعرضها مثلها وهي أضعف أخواتها حالاً وأقلها خيلاً ورجالاً، وعسكرها لا يزيد على ألفي فارس ومثلهم رجالة، وهم في بقية أحوالهم وأحوالها مثل أخواتها ومعاملتها بالأعواض مثل بالي وهي تليها. وأهلها حنفية المذهب[1].

هذه جملة ما علمنا من أحوال هذه المملكة المسلمة في بلاد الحبشة، والمملكة منهم في بيوت محفوظة إلاّ بالي اليوم فإن الملك بها صار إلى رجل ليس من أهل بيت الملك تقرب إلى صاحب أمحرة حتى ولاه مملكة بالي فاستقل ملكاً بها ولا يبالي وقد ولي بالي، ومن أهل بيت الملك بها رجال أكفاء[2] ﴿إن الأرض لله يُورثُها من يشاء من عباده.[3]﴾

وجميع ملوك هذه الممالك وإن توارثوها لا يستقل منه بملكٍ إلاّ من إقامة صاحب أمحرة، وإذا مات الملك منهم، ومن أهله رجال قصدوا جميعهم صاحب أمحرة، وبذلوا المقدرة في التقرب إليه فيختار منهم رجلاً يوليه، فإذا ولاه سمع البقية وأطاعوا لأن الأمر له فيهم، وهم كالنواب له ومع هذا فإن جميع ملوك هؤلاء الملك تعظم مكان صاحب أوفات وتنقاد له بالمعاضدة في بعض الأوقات[4].

والطريق إلى هذه البلاد من مصر شعبة من الطريق العظمى الآخذة إلى أمحرة وسائر بلاد الحبشة وتجار هذه البلاد ماصع وسواكن ودهلك، وليس بها مملكة مشهورة ولا لها أخبار مذكورة وكلها مسلمون قائمون وأرضها أصعب مسلكاً لكثرة جبالها الشامخة وعظم أشجارها واشتباكها بعضها ببعض حتى أنه إذا أراد ملكها الخروج إلى جهة من جهاتها يتقدمه قوم مرصودون لإصلاح طرقها بالآت لقطع أشجارها ويطلقون فيها نار لحريقها وأولئك القوم كثير عددهم، ولم يملك بلادهم غيرهم من النوع الإنساني لأنهم أجبر بني حام. وأخبر بالتوغل في القتال والاقتحام طول زمانهم مسافرون، وفي صيد وحش البر راغبون ومما يدل على قوة جنانهم أنهم لا يُلبسون ولا يلبسون خيلهم عند القتال شيئاً[5].

---

(١). قارن بالقلقشندي، صبح الأعشى: ٣١٥/٥.

(٢). القلقشندي، صبح الأعشى: ٣١٧/٥.

(٣). سورة الأعراف: الآية ١٢٨.

(٤). القلقشندي، صبح الأعشى: ٣١٧/٥.

(٥). القلقشندي، صبح الأعشى: ٢٩٠/٥.

والمشهور عنهم مع مالهم من الشجاعة يقبلون الحسب ويصفحون عن الجرائم، والمصطلح بينهم أن من رمى سلاحه في القتال يحرمون قتاله، والمحرم يتحسب ببر القادر عليه فيتجاوز عن ذنبه، وقيل فيهم خلة حسنة أيضاً أنهم يحبون الغريب ويكرمون الضيف ويحقق ذلك إكرام النجاشي قريشاً عندما هاجروا إليه ويقال أنه قلَّ أن يوجد عندهم رياء والصديق عندهم لا ينقض عهداً لصديقه، وإذا تعاهدوا أكَّدوا المحبة وأظهروها، وإذا تباغضوا أعلنوا المباينة وأجهروها[1].

غالباً يوجدون أذكياء أقوياء الحدس لهم علوم وصناعات بهم خصيصة، ومع كونهم جنساً واحداً ينطقون بألسنة شتى تزيد على خمسين لساناً، وقلم قراءتهم واحد، وهو الحبشي يكتب من اليمين إلى الشمال عدته ستة عشر حرفاً لكل حرف سبعة فروع الجملة من ذلك مئة واثنان وثمانون حرفاً خارجاً عن حروفٍ أخر مستقلة بذاتها لا تفتقر إلى حرف من الحروف المعدودة المتقدم ذكرها مضبوط بحركات نحوية متصلة به لا منفصلة عنه[2].

وهي بلاد تنقسم عندهم أقاليم كما تنقسم الديار المصرية والبلاد الشامية أعمالاً وصفقات وممالك الإسلام المتقدمة الذكر في ذلك ونحن نذكرها هنا جملة حال بلاد الحبشة مسلمها وكافرها، قيل: أن أول بلادهم من الجهة الشرقية المائلة إلى بعض الجهة الشمالية بحر الهند واليمن، وفيها يمر البحر الحلو المسمى سيحون الذي يرفد منه نيل مصر المحروسة والجهة الغربية إلى بلاد التكرور مما يلي جهة اليمين، وأولها مفازة تسمى وادي بركة قيل يتوصل منه إلى إقليم يسمى سحرت. ويسمى قديماً تكراي، وكانت مدينة المملكة بهذا الإقليم في ذلك الزمان تسمى أخشرم بلغة أخرى من لغاتهم وتسمى أيضاً زفرتا، وكان النجاشي الأقدم بها ملكاً على جميع البلاد ثم إقليم أمحرة وهو الذي به الآن مدينة المملكة وتسمى بلغتهم مرعدي ثم اقليم شاوة ثم اقليم داموت ثم إقليم لامنان ثم إقليم السَّيهو ثم إقليم عدل الأمراء ثم إقليم حماسا ثم إقليم باريا ثم إقليم الطراز الإسلامي الداخلة في جملة البلاد الحبشية. وملوكه سبعة كما تقدم وتفصيلها إقليماً إقليماً وكل إقليم من هذه الأقاليم له ملك وجيوش كما تقدم أيضاً ذكره[3].

---

(١). القلقشندي، صبح الأعشى: ٥/ ٢٩٠.

(٢). القلقشندي، صبح الأعشى: ٥/ ٢٩٠.

(٣). القلقشندي، صبح الأعشى: ٥/ ٢٩٠-٢٩١.

وقيل: إنهم كلهم تحت سلطان ملكهم الأكبر المسمى بلغتهم الحَطِّي. ومعناه السلطان، وهذا الاسم موضوع لكل من يقام عليهم ملكاً كبيراً واسم الملك المقام عليهم الآن عمدسيون وتأويله ركن صهيون، وهي بيعة قديمة البناء بالاسكندرية معظمة عندهم يتعبدون لله فيها(١).

وقيل: إنه من الشجاعة على أوفر قسم. وأنه حسن السلوك، عادل في رعيته يتفقد مساكينها، وقيل أن تحت يده من الملوك تسعة وتسعون ملكاً وهولهم تمام المئة في الأقاليم المذكورة والأقاليم المجهولة أسماءها لأنها كثيرة العدد غير مشهورة ولا معلومة(٢).

وقيل: إن الحطي المذكور وجيشه لهم خيام ينقلونها معهم في السرحات والأسفار، وإذا جلس يجلس حول كرسيه أمراء مملكته وكبراءها على كراسي حديد منها ما هو مطعم بالذهب، ومنها ما هو ساذج على قدر مراتبهم، والملك المذكور قيل أنه مع ماله من نفاذ الأمر يتثبت في أحكامه حتى يتبين(٣).

فأما لباس أهل البلاد المذكورة في الشتاء فهو لباسهم في الصيف، الخواص منهم والأجناد قماش حرير وأبراد هندية وما شاكل ذلك، والعوام ثياب قطن منسوج غير مخيط وسلاح المقاتلين منهم القسى والنبال الشبيهة بالنشاب والسيوف والمزاريق والحراب، ومنهم من يقاتل بالسيوف وأتراس طوال وقصار وغالب سلاحهم مزاريق تشبه الحراب الطوال، ومنهم من يرمي عن قوس طويل يشبه قوس القُطن بالنبال، وهي سهام قصار. وقيل: إن نبال المقاتلين من أجناد الطراز الإسلامي أكبر ولهم أبواق من خشب القنا المجوف، ومن قرون البقر المجوفة ومآكلهم شحوم البقر والماعز، وبعض شحوم الضأن، ومشروبهم اللبن البقري، وفي ضعفهم يتداوون باللبن المذاب بالماء وسمن البقر وعندهم نبات يسمى حاب يتناولونه لتجويد الفهم وتقوية الحفظ، وهو أشجار صغار وكبار تمرية تشبه قلوب شجر النارنج، وقد تقدم ذكره(٤).

وغالب أهل البلاد المذكورة يتعاملون مقايضة بالأغنام والأبقار والحبوب وغير ذلك إلاّ في خمسة أقاليم من الطراز الإسلامي وهي إقليم أوفات يتعاملون بالذهب والفضة، واقليم

(١). القلقشندي، صبح الأعشى: ٣٠٨/٥.

(٢). القلقشندي، صبح الأعشى: ٣٠٨/٥.

(٣). القلقشندي، صبح الأعشى: ٣٠٩/٥-٣١٠.

(٤). القلقشندي، صبح الأعشى: ٢٩٢/٥، ٢٩٤.

دوارو واقليم أرابينى وإقليم شرخا وإقليم هدية يتعاملون بشيء يسمى عندهم الحكنة وهي حديد مضروب كالإبر الطوال كل ثلاثة آلاف بالعدد قيمتها درهم واحد وكل البلاد المذكورة والطراز الإسلامي يزرعون على الأمطار في السنة مرتين ويتحصل لهم مغلان والزمان الذي يحصل فيه المغل الأول يأتى فيه مطر ثان يزرع عليه المغل الثاني والمطر الواقع من زمن الشتاء يسمى بل، والمطر الواقع زمن الصيف يسمى كرم بلغة الزيالعة[1].

وأخبرني البطريرك بنيامين فيما حكى لي في كتابه عنهم أنه عند نزول الأمطار الكثيرة تقع صواعق، وأصناف زراعاتهم الغبيطة: القمح والشعير والحمص والعدس والبسلا والذرة وبعض البلاقلاء وحبوب أخر غير ذلك منها حب يسمى قبا نهلول يستعملونه قوتاً كالقمح[2].

أما القمح فيه كالحنطة المألوفة ولونه كالقمح الشامي يباع منه في الطراز الإسلامي بالدرهم الواحد تقدير حمل بغل والشعير ليس له قيمة وحبه أكبر مقداراً من حبه بالديار المصرية ومنه ضرب يسمى طمحة والحمص إلى الحمرة ما هو والباقلاء عزيز الوجود في أكثر البلاد. ولا يفتقر إليه دوابهم في العلف لأن الأرض كثيرة المياه والمراعي، وعندهم حب يسمى بلغتهم طافي وحبه بمقدار الخردل ولونه إلى الحمرة ومكسره إلى السواد يتخذون منه خبزاً. وهو يميل إلى القمح وعندهم ببعض الأقاليم حب يسمى البر وهو شبه القمح ولكنه بقشرين فينزعون قشوره بالهرس كالأرز ويتخذون منه طعاماً ينوب عن القمح، وليس عندهم من أصناف المقاثي إلا القرع، وفي بعض الأقاليم بطيخ صغير وبزر الكتان وحب الرشاد، والفت، والفجل، ومن البقول أيضاً الثوم والبصل والكزبرة الخضراء، وأشجارهم البستانية. العنب الأسود وهو قليل. والتين الوزيري وأصناف الحوامض خلا النارنج والموز. ورياحينهم: الريحان والقرنفل، ونبات أيضاً يسمى بعتران، وعندهم الياسمين البري ولكنه غير مشموم لهم.

ومن أشجارهم: الزيتون والصنوبر والجميز، وفي بعض بلادهم الأبنوس وهو كثير الأشجار والنتل أيضاً في بعض الأقاليم، وكذلك أشجار القنا وهي صنفان أحدهما صامت والآخر أجوف. وبالطراز الإسلامي قصب السكر كثير جداً ويتخذون منه القند. وذكر أن

(١). قارن بالقلقشندي، صبح الأعشى: ٥/٣١٦.

(٢). قارن بالقلقشندي، صبح الأعشى: ٥/٣١٥.

الذي يوجد عندهم من المعادن معدن الذهب والحديد[1].

وذكر السيد الشريف عز الدين التاجر: أن في بعض بلادهم يوجد معدن الفضة، وعندهم من ذوات الأربع الخيل والبقر والغنم والبغال، وما أشبه ذلك، وأغنامهم تشبه أغنام عيذاب واليمن ووحوشهم البرية الأسد والنمر والفهد والفيل والغزال على اختلاف الألوان في ذلك. وبقر الوحش وحمر الوحش والزرافة والقردة ووحوش أُخر. وعندهم من الطيور الجوية والأهلية والمائية، أما الجوية فهي الصقور الكبيرة والنسور البيض والسود وأمثالها والغربان والحجل، وسائر طير الواجب والسُمان. والحمام والعصافير والبزاة وغير ذلك مما لم يوجدبالديار المصرية، وأما الأهلية والبرية فدجاج الحبش وأمثاله، والمائية فالبط ودجاج أيضاً يخرج من بركة ماء في إقليم هدية الإسلامي[2].

قال الشيخ عبدالله الزيلعي: إن العين المذكورة يتولد منها دجاج يأكلونه ويأكلون من لحوم الطير الحمام والعصفور وغراب الزرع والدجاج البري والحجل. والسمك عندهم منه ما يشبه البوري ومنها ما يشبه الثعبان والذي يشبه الثعبان يطول إلى مقدار ذراعين ونصف ويغلظ إلى مقدار كبار الخشب، ويطلع من بحرهم التمساح وفرس البحر، وأما عسل النحل فكثير في جميع البلاد يتربى في الجبال ويأخذون منه العسل والشمع من غير حجز عليه، ومنه ماله خلايا خشب منقورة وعسلهم مختلف الألوان بحسب المرعى ومساكنهم غالبها أخصاص وجملونات خلا المدن الكبار فإنها مبنية بالحجر. وأواني طعامهم فخار مدهون أسود وحمامهم الاغتسال بالماء البارد وبعضهم يتخذونه حاراً، ووقودهم الشمع ومصابيحهم وقودها بشحوم البقر لأن الزيت الطيب يجلب إليهم. ويدهن الرجال والنساء منهم بالسمن. ومصاغهم الذهب والفضة والنحاس والرصاص. على قدر تمثال السعر. هذا ما نقلته الثقات عنهم[3].

ومع ما هم عليه من تبعة البلاد وكثرة الخلق والأجناد يفتقرون إلى العناية والملاحظة، من صاحب مصر لأن المطران الذي هو حاكم شريعتهم في جميع بلادهم النصرانية لا يقام إلا من الأقباط اليعاقبة بالديار المصرية، حيث تخرج الأوامر السلطانية من مصر

(١). قارن بالقلقشندي، صبح الأعشى: ٥/٢٩٢-٢٩٣.

(٢). قارن بالقلقشندي، صبح الأعشى: ٥/٣١٥.

(٣). قارن بالقلقشندي، صبح الأعشى: ٥/٢٩٢.

لبطرك النصارى اليعاقبة بإرسال مطرانٍ إليهم وذلك بعد سؤال ملك الحبشة المسمى بالحطي بلغتهم وإرسال رسله وهداياه وهم يدّعون أنهم يحفظون مجاري النيل المنحدر إلى مصر ويساعدون على إصلاح سلوكه تقرباً لصاحب مصر، وإنما المشهود منهم والمعروف عنهم من الصدق والأمنة فهو مشهور ولذلك يختار صاحب إقامتهم أُمناء على الحريم والأولاد والأرواح والأموال وكذلك بعض التجار الكرامية وذوي الأموال يجعلونهم على حفظ أموالهم وتجاراتهم وبضعهم الثمينة ومكاسبهم الجليلة قريب في بلادهم وبعيدها وطويل المسافات وقصيرها وهذا ما وصلني من أخبارهم والله أعلم بالحق وعندهم وعنده العلم الصدق[1].

1). قارن بالقلقشندي، صبح الأعشى: ٥/٣٠٩.

الباب التاسع

الممالك الإسلامية

الكانم والنوبة

الباب التاسع
في ممالك مُسلمي السودان على ضفة النيل إلى مصر

وفيه فصلان:
الفصل الأول: في الكانم.
الفصل الثاني: في النّوبة.

الفصل الأول
في الكانم

مسلمٌ مستقل بينه وبين بلاد مالي مسافة بعيدة جداً، قاعدة ملكه إسمها جيمي، مبدأ مملكته من جهة مصير بلدة اسمها زلا وآخرها طولا بلدة يقال لها كاكاو. وبينهما نحو ثلاثة أشهر[1]، وعسكرهم يتلثمون، وملكهم على حقارة سلطانه وسوء بقعة مكانه في غاية لا تدرك من الكبرياء يمسح برأسه عنان السماء، مع ضعف أجناد وقلة متحصل بلاد، محجوب لا يراه أحد إلا في يوم العيدين يرى بكرة وعند العصر وفي سائر السنة لا يكلمه أحد ولو كان أميراً إلا من وراء حجاب[2]، وربما كان فيهم من أخذ في التعليم ونظر من الأدب نظرة النجوم ﴿فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ﴾[3] فما زال يداوي علل فهمه ويداوي جامع علمه حتى تشرف عليه أشعتها ويطرز بديباجه أمتعتها، غالب عيشهم الأرز والقمح والذرة، وببلادهم التين والليمون واللفت والباذنجان والرطب[4].

وأخبرني أبو عبدالله السلاجي أنه أخبره الشيخ الصالح المنقطع عثمان الكانمي وهو من أقارب ملوكها: أنَّ الأرز ينبت عندهم من غير بذر أصلاً، وهو ثقة. قال السلاجي وسألت عن ذلك غيره فأخبرني بصحة ذلك: ويتعاملون بقماش ينسج عندهم اسمه دندي، طول

(١). قارن بالقلقشندي، صبح الأعشى: ٥/ ٢٧٠.
(٢). قارن بابن بطوطة، الرحلة: ٤/٢٧٥؛ القلقشندي، صبح الأعشى: ٥/ ٢٧١.
(٣). سورة الصافات: الآية ٨٩.
(٤). ابن سعيد، الجغرافيا: ٩٥.

كل ثوب عشرة أذرع، يشترون من ربع ذراع فأكثر، ويتعاملون أيضاً بالودع والخز والنحاس المكسور والورق. لكنه جميعه يسعر بذلك القماش[١].

وذكر ابن سعيد: أن في جنوبيها شعار وصحار، فيها أشخاص متوحشة كالغول تؤذي بني آدم ولا يلحقها الفارس، وهي أقرب الحيوانات إلى الشكل الآدمي[٢].

وذكر القاضي أبو عبدالله محمد بن عبدالملك المراكشي في كتابه المعجم المسمى بالتكملة، أبا إسحاق إبراهيم الكانمي الأديب الشاعر، وحكى عنه أنه قال: يظهر ببلاد الكانم بالقرب منها أمام الماشي في الليل شبيه قلل نار تضيء فإذا مشى ليلحقها بعدت عنه ولو جرى إليها لا يصل إليها بل لا تزال أمامه. وربما رماها بحجر فأصابها فيتشظى منها شرارات، نقل لي هذا على ما رآه في التكملة محمد السلاجي[٣].

قال ابن سعيد: وأن بها يقطيناً تعظم اليقطينة إلى أن يصنع منها مركب تعبر فيه في النيل قال: وهذا مستفيض والعهدة على الحاكي.

وهذه البلاد بين افريقية وبرقة ممتدة في الجنوب إلى سمت الغرب الأوسط وهي بلاد قحط وشظف وسوء مزاج، مستول عليها وأحوانها وأحوال أهلها خشنة وأول من بث الإسلام فيها الهادي العثماني ادعى أنه من ولد عثمان بن عفان رضي الله عنه[٤]، وصارت بعده لليزنيين من بني ذي يزن[٥]. والعدل قائم في بلادهم ومذهبهم مذهب الإمام مالك رضي الله عنه[٦]، وهم ذوو اختصار في اللباس، يابسون في الدين[٧]. وقد بنو بفسطاط مصر مدرسة للمالكية ووفودهم تنزل بها[٨].

---

(١). قارن بالقلقشندي. صبح الأعشى: ٥/ ٢٧٠. وذكر ابن سعيد. الجغرافيا: ٩٥ أن الثياب تنقل إليه من تونس.

(٢). قارن بالقلقشندي. صبح الأعشى: ٥/ ٢٧٠. ولا يوجد في كتاب الجغرافيا لابن سعيد. فربما كان جزءاً من كتاب المغرب وهو مفقود.

(٣). ليس في المطبوع من التكملة، وقارن بالقلقشندي، صبح الأعشى: ٥/ ٢٧٠.

(٤). قارن بالقلقشندي. صبح الأعشى: ٥/ ٢٧٠.

(٥). ابن سعيد. الجغرافيا: ٩٥.

(٦). القلقشندي. صبح الأعشى: ٥/٢٧١.

(٧). قارن بابن بطوطة. الرحلة: ٤/١٥٨.

(٨). هي مدرسة ابن رشيق. ذكر المقريزي أن أهل الكانم دفعوا للقاضي علم الدين ابن رشيق في سنة بضع وأربعين وستمائة مالا فبناها به. انظر: المقريزي، الخطط: ٣/٤٤٢.

الفصل الثاني
في النوبة

تلي مصر في نهاية جنوبها على ضفتي النيل الجاري إلى مصر، وقاعدتها دُنْقُلَة[1] ومدنها أشبه بالقرى والضياع من المدن، قليلة الخير والخصب. يابسة الهواء[2]، وكذلك زهد فيها بني أيوب في مدة السلطان صلاح الدين لما تجهز أخوه شمس الدولة لأخذها فعدل عن اليمن لأنهم خافوا من الشهيد نور الدين محمود بن زنكي أن يقصدهم إلى مصر وينتزع المملكة من أيديهم فأرادوا فتح بلاد من ورائهم تكون ملجأ لهم فقصدوا النوبة، فلما رأوها بلاداً لا تصلح لمثلهم عدلوا إلى اليمن.

وأديان أهل هذه البلاد دين النصرانية وملكهم كأنه واحد من العامة، ومن بلادهم لقمان الحكيم وقد ذكره البيهقي في مفاخر النوبة، ثم سكن مدينة أيلة مع اليهود ورحل إلى البيت المقدس ورأى أنبياء بني إسرائيل وجالس داوود عليه السلام، قال ابن سعيد: رآه يصوغ في الحديد ويصنع منه حلقاً ولا يعرف ما يؤول إليه أمره. فصحبه على ذلك سنة ولم يسأله عما يصنعه إلى أن كمل داوود الدرع ولبسها، فقال لقمان: درع حصينة ليوم قتال. كفتني عيني مؤونة لساني. الصمت حكمة وقليل فاعله.

قال: ومنها ذو النون المصري أبو الفيض ثوبان بن إبراهيم[3]، وكان أبوه عبداً نوبياً، وقد تقدم ذكره في الفقراء[4]. وقال صاحب كتاب الأبرار: ومما سُمع منه[5]:

أموتُ وما ماتَتْ إليك صَبابَتي ... ولا قضَّيتُ من صِدق حُبك أوْطاري

وأنتَ مُنَى سُؤْلي وغاية مقصدي ... ومَوضعُ شكواي ومَكْنُونُ أسراري

---

(١). دنقلة: إقليم بالنوبة بين خطي عرض ١٩ ٤٢ و ١٨ شمالاً ويمتد مسافة ١٧٠ ميلاً، وهو اليوم إحدى مديريات السودان. أنظر: دائرة المعارف الإسلامية: ٢٩٨/٩.

(٢). قارن بالحسن الوزان. وصف افريقيا: ٥٥٨.

(٣). توفي سنة ٢٤٥هـ/٨٥٩م. انظر عنه: أبو نعيم، حلية الأولياء: ٣٣١/٩؛ القشيري، طبقات الصوفية:١٠؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان: ١٢٦/١.

(٤). انظر أخباره في: مسالك الأبصار: ٢٤١/٨.

(٥). انظر الأبيات في: القشيري، طبقات الصوفية: ٢١.

وخدمة رجل على أن يعلمه اسم الله الأعظم، فمطله زماناً، ثم أمره أن يحمل من عنده طبق مغطى إلى شخص بالفسطاط، فلما حمله استخفه، فقال: لأبصرن ما فيه فكشفه فخرجت منه فأرة فاغتاظ، وقال: ضحك عليَّ ذو النون فرجع إليه مغضباً، فلما رآه ذا النون تبسم وقال: يا مجنون ائتمنتك على فأرة فخنتني، فكيف أئمنك على اسم الله الأعظم. قم عني فلا أراك بعدها. وقيل له: المصري لأنه سكن مصر ومات بها وقبره بالقرافة رحمه الله تعالى.

وملكها الآن مسلم من أولاد كنز الدولة[1]، وهؤلاء أولاد الكنز أهل بيت ثارت لهم فيما تقدم ثوائر مرات، ولا يملك الآن بها ملك إلا من الأبواب السلطانية بمصر، وعلى ملوك دُنْقُلَة حمل مقرر لصاحب مصر. وهذا الإتاوة لا ذهب فيها ولا فضة بل هي عدد من العبيد والإماء والحراب والوحش النوبية[2].

وحدثني غير واحد ممن دخل النوبة: أن دنقلة مدينة ممتدة على النيل، وأهلها في شظف من العيش على أنهم أصلح من كثير ممن سواهم من السودان، وبها مسجد جامع تأوي إليه الغرباء وتجيء رسل الملك إليهم تستدعيهم إليه، فإذا جاءوا أضافهم ووهبهم وأكرمهم هو وأمراته. وأكبر عطياتهم إما عبد أو جارية، وأما أكثر عطياتهم فهي دكاديك وهي اكسية غلاظ غالبها سود. واللحوم والألبان والسمك عندهم كثيرة والحبوب قليلة إلاّ الذرة. وأفخر أطبختهم ما يعمل باللوبياء في مرق اللحم ويثرد ويصف اللحم واللوبياء على وجه الثريد، ويعمل اللوبياء بورقها وعرقها، ولهم انهماك على السكر وبالمزر ولهم ميل شديد إلى الطرب[3].

وحدثني أحمد بن المعظمي، وكان قد دخل مع أبيه إلى هذه البلاد وما ورائها في الرسلية مرات: أن ملوك السودان يتخذون كلاباً معلمة تنام على التخوت حولهم هي كالحراس لهم. والنوبة لهم قتال وبأسهم بينهم على ضعف قواهم وقلة بأسهم.

---

(١). كنز الدولة أول ملك مسلم يتولى منهم النوبة ارتقى العرش، ٥٧٦هـ/١٣١٦. وهو من قبيلة الكنز. انظر: دائرة المعارف الإسلامية: ٩/٢٩٩.

(٢). قارن بالقلقشندي. صبح الأعشى: ٥/٢٦٨.

(٣). قارن بالقلقشندي. صبح الأعشى: ٥/٢٦٨، ٢٦٥.

الباب العاشر

الممالك الإسلامية

مالي

الباب العاشر
في مملكة مالي وما معها

اعلم أن هذه المملكة في جنوب نهاية الغرب(1) متصلة بالبحر المحيط(2). قاعدة الملك بها مدنية نيني(3).

وهذه المملكة شديدة الحر، قشفة المعيشة، قليلة أنواع الأقوات، وأهلها طوال في غاية السواد وتَفَلْفُل الشعور. وغالب طول أهلها من سوقهم لا من هياكل أبدانهم(4).

وملكُها الآن اسمه سليمان(5). أخذ(6) السلطان موسى(7) مَنْسا بيده ما كان قد جمعه أخوه مما فتحه من بلاد السودان وأضافه إلى يد الإسلام. وبنى المساجد والجوامع والمواذن، وأقام به الجُمعَ والجَماعات والأذان، وجلب إلى بلاده الفقهاء من مذهب الإمام مالك رضي الله عنه، وبقي بها سلطان المسلمين، وتفقه في الدين.

وصاحب هذه المملكة هو المعروف عند أهل مصر بملك التكرور(8)، ولو سمع هذا أنف منه، لأن التكرور إنما هو إقليم من أقاليم(9) المملكة. والاحب إليه أن يُقال صاحب مالي، لأنه الاسم(10) الأكبر، وهو به أشهر.

وهذا الملك هو أعظم ملوك السودان المسلمين، وأوسعهم بلاداً، وأكثرهم عسكراً،

---

(1). م: المغرب.

(2). قارن بالوزاني، وصف افريقيا: ٥٣٨.

(3). م: ينى، وهي تقع الآن على الحدود الغينية المالية. انظر: ابن بطوطة، الرحلة: ٢٥٣/٤ ويسميها ابن بطوطة مالي. وكذلك سماها الوزاني، وصف افريقيا: ٥٣٨ وذكر أنها في زمنه تضم ٦ آلاف أسرة.

(4). قارن بالقلقشندي، صبح الأعشى: ٥/٢٧١-٢٧٢.

(5). السلطان منسا سليمان حكم من سنة ٧٤١-٧٦١هـ/١٣٤١-١٣٦٠م. انظر: الشيخ الأمين. العلاقات بين المغرب الأقصى والسودان الغربي: ٥٦.

(6). ت: أخو.

(7). السلطان منسا موسى حكم من سنة ٧١٢-٧٣٨هـ/١٣١٢-١٣٣٧م. انظر: الشيخ الأمين. العلاقات بين المغرب الأقصى والسودان الغربي: ٥٣.

(8). انظر حول ذلك، العمري، التعريف بالمصطلح الشريف: ٣٥؛ ابن سعيد، الجغرافيا: ٩١.

(9). ساقطة من م.

(10). ت: الإقليم.

وأشدّهم بأساً، وأعظمهم مالاً، وأحسنهم حالاً، وأقهرهم للأعداء، وأقدرهم على إفاضة النعماء[1].

والذي تشتمل عليه هذه المملكة من الأقاليم[2]: غانة، وزافون، وتُرنكا، وتكرور، وسنغانة، وبانيُغو، وزرنطانيا[3]، وبيترا[4]، دومورا[5]، وزَاغَا، وكَابَرا، وبراغوري، وكَوْكَو. وسكّان كَوْكَو قبائل يزنان[6]، وإقليم مالي الذي به قاعدة الملك مدينة نيني[7].

وكل هذه الأقاليم مضافة إليه.

والاسم المطلق عليه في هذه الأقاليم كلّها مالي قاعدة أقاليم هذه المملكة، ذوات المدن والقُرى والأعمال أربعة عشر إقليماً.

حدثني الشيخ الثقة الثبت أبو عثمان سعيد الدُكّالي[8]، وهو ممن سكن مدينة نيني[9] خمسة وثلاثين سنة، واضطرب في هذه المملكة: انها هي مربّعة، طولها أربعة أشهر أو أزيد، وعرضها مثل ذلك. تقع جَنوب مرّاكش ودواخل برّ العدوة، وجنوباً بغرب إلى المحيط. وطولها من مولى إلى طوروا[10] وهي على المحيط. وجميعها مسكونة إلاّ ما قلّ[11]. وأن في طاعة سلطان هذه المملكة بلاد مفازة[12] التبر، يحملون إليه التبر في كل سنة، وهم كفّار هَمَج، ولو شاء أخذهم، ولكن ملوك هذه المملكة قد جرّبوا أنه ما فتح أحد منهم[13] مدينة من مدن الذهب وفشا[14] بها الإسلام، ونطق بها داعي الأذان، إلاّ قلّ وجود الذهب ثم يتلاشى حتى يُعدم، ويزداد فيما يليه من بلاد الكفّار. وأنه لما صحّ هذا عندهم على

(1). انظر وصفه عند ابن بطوطة، الرحلة: ٤/٢٥٥ حيث وصفه بالبخل.

(2). انظر عن مدن وأقاليم مملكة مالي، العمري، التعريف بالمصطلح الشريف: ٣٥؛ ابن بطوطة، الرحلة: ٤/٢٥٠.

(3). م: زارفيرطا.

(4). م: تنبرا.

(5). م: درفودا.

(6). م: يربا. وانظر ابن سعيد، الجغرافيا: ٩٣.

(7). م: ينى.

(8). أحد مصادر ابن فضل الله الرئيسة ولم نهتدِ إلى ترجمة له.

(9). م: ينى.

(10). م: طورا.

(11). انظر عن حدودها، العمري، التعريف بالمصطلح الشريف: ٣٥.

(12). ت: مفزازة.

(13). ت: منهم أحد.

(14). م: ونشأ.

التجريب، ابقوا بلاد التبر بأيدي أهلها الكفّار. رضوا منهم ببذل الطاعة وحمول قُرِّرت عليهم[١].

وليس في مملكة صاحب هذه المملكة مَن يُطلق عليه اسم ملك إلاّ صاحب غانة، وهو كالنائب له وإن كان ملكاً[٢].

وفي شمال بلاد مالي قبائل من البربر بيض تحت حكم سلطانها، وهم: ينتصر، ونيتفراس[٣]، ومدوسة[٤]، ولمتونة. ولهم أشياخ تحكم عليهم، إلا ينتصر فإنهم يتداولهم ملوك منهم تحت حكم صاحب مالي[٥].

وكذلك في طاعته قوم من الكفار، ومنهم مَن يأكل لحوم بني آدم، ومنهم مَن أسلم. ومنهم مَن هو باقٍ على هذا. وقد ذُكر هذا في موضعه[٦].

ومدينة نيني[٧] ممتدة طولاً وعرضاً، تكون طول بريد تقريباً. وعرضها كذلك. لا يحيط بها سور. وأكثرها متفرقة. وللملك عدّة قصور يستدير بها سور محيط بها. وفرع من النيل يستدير بهذه المدينة من جهاتها الأربع. وفي بعضها يُخاض ويُمشى فيه عد قلّة الماء، وفي بعضها لا يُعْبَر إلاّ بالمراكب[٨].

وبناء على هذه المدينة بإياد من الطين، مثل جدران بساتين دمشق. وهو أن يُبنى تقدير ثُلثي ذراع بالطين. ثم ترك حتى يجفّ. ثم يُبنى عليه مثله، ثم يُترك حتى يجفّ ثم يُبنى عليه مثله، هكذا حتى يتناهى. وسقوفها بالأخشاب والقصب، وغالب سقوفها قباب أو جملونات كالأقباء. وأرضها تراب مُرْمِل[٩]. وشُرب أهلها من ماء النيل، وآبار متحفرة.

---

(١). انظر حول بلاد التبر: العمري، التعريف بالمصطلح الشريف: ٣٥-٣٦. القلقشندي. صبح الأعشى: ٢٩٠/٥: القزويني، آثار البلاد: ١٨: ابن سعيد. الجغرافيا: ٩٢.

(٢). انظر حوله، العمري. التعريف بالمصطلح الشريف: ٣٥-٣٦: القلقشندي. صبح الأعشى: ٢٨١/٥: ابن سعيد. الجغرافيا: ٩٢.

(٣). م: وشغراس.

(٤). م: مديونة، ويبدو أنها تصحيف الاسم مسغفة القبيلة البربرية.

(٥). انظر: القلقشندي. صبح الأعشى: ٢٧٥/٥. وابن سعيد. الجغرافيا: ٩٦.

(٦). انظر حول آكلة لحوم البشر، ابن بطوطة. الرحلة. ٤: ٢٦٨. القلقشندي. صبح الأعشى: ٢٧٥/٥: ابن سعيد. الجغرافيا: ٩٤، ١٠١.

(٧). م: يني.

(٨). انظر عنها: ابن بطوطة، الرحلة، ٢٥٣/٤.

(٩). قارن بالقلقشندي. صبح الأعشى: ٢٧٢/٥-٢٧٣: الوزاني. وصف افريقيا: ٥٤٠.

وجميع هذه البلاد مصخرة مجبلة[١]، وجبالها ذوات أشجال بريّة مشتبكة غليظة السوق إلى غاية يكون منها الشجرة الواحدة تُظلّ خمسمائة فارس[٢].

وغالب أقواتهم الأرز، والفوني -وهو دقّ مزغب يُدرس فيخرج منه شيبة حبّ الخردل أو أصغر- وهو أبيض يُغسل ثم يطحن ثم يُعجن. ويُؤكل[٣].

وعندهم الحنطة، وهي قليلة، والذرة وفيها لهم قوت وعليق خيلهم وطعم دوابهم[٤].

وعندهم الخيل من نوع الأكاديش التريّة. والبغال كلها صغار المقادير جداً. وكذلك كل دوابهم من البقر والغنم والحُمُر ليس يوجد منها إلا ذميم الخلق صغير الجثّة[٥].

ويزرع عندهم شيء اسمه القافي، وهو قرون دقاق تُدفن في الأرض فتزكو حتى تصير غلاظاً، طعمها شبيه بالقلقاس لكنه ألذ من القلقاس. وهو يُزرع في الخلاء، فإن اطّلع الملك على أن أحداً سرق شيئاً منه قطع رأسه وعلّق مكان[٦] ما قطعه، هذه سُنّة عندهم يتوارثها كابر عن كابر لا ترخصها مسامحة ولا تنفع فيها شفاعة[٧].

ويُزرع عندهم اللوبيا، والقرع، واللّفت، والبصل، والثوم، والباذنجان، والكرنب. لكن الباذنجان والكرنب قليل عندهم. وتطلع الملوخية بريّة[٨].

وعندهم من الفواكة البستانية الجمّيز، وهو كثير عندهم. وتطلع عندهم أشجار برية ذوات ثمار مأكولة مُستطابة فيها شجر يسمى تادمنت يحمل مثل القواديس في كبرها، وفي داخلها شيء شبيه دقيق الحنطة، ساطع البياض. مُزّ، طعمه لذيذ. ويُعمل منه إذا جفّ في الحناء فيسوّده مثل النوشادر. وهو يُدّخر عندهم للأكل والخِضاب[٩].

ومنها شجر يسمى زبيزور تخرج ثمرته مثل قرون الخرّوب، يخرج منه شبيه بدقيق الترمس، حلو، لذيذ الطعم، وله نوى.

---

(١). م: مخضرة نخيلة.

(٢). ذكر ابن بطوطة أن القافلة تستظل بالشجرة. الرحلة: ٢٤٧/٤. وانظر وصاف غاباتها عند: الوزاني، وصف افريقيا: ٥٢٨.

(٣). انظر عنه: ابن بطوطة، الرحلة: ٢٤٩/٤. تحدث عن عمل الكسكسو والعصيدة منه. انظر: القلقشندي، صبح الأعشى: ٢٧٧/٥.

(٤). قارن بالقلقشندي، صبح الأعشى: ٢٧٧/٥. والوزاني. وصف افريقيا: ٥٤١.

(٥). قارن بالقلقشندي، صبح الأعشى: ٢٧٦/٥.

(٦). م: مكانه.

(٧). القلقشندي. صبح الأعشى: ٢٧٧/٥.

(٨). القلقشندي، صبح الأعشى: ٢٧٧/٥.

(٩). م: الحطاب. والخبر في القلقشندي، صبح الأعشى: ٢٧٧/٥.

ومنها شجر يسمى قومي يحمل شبيه السفرجل، طعمه لذيذ، يشبه طعم الموز. وله نوى شبيه بغضروف العظم يأكله بعضهم معه[1].

وشجر اسمه قاريتي يحمل شبيه الليمو[2]. وطعمه شبيه طعم الكمثرى، بداخله نوىً مُلحم. يؤخذ ذلك النوى وهو طريٌّ ويطحن فيخرج منه شبيه بالسمن[3]، ويجمد مثله. تُبيّض به البيوت، وتوقد منه السُرج والقناديل. ويُعمل منه صابون. وإذا أُريد أن يؤكل ذلك الدهن يُحرق بتدبير، وصورة تدبيره أن يوضع على نار ليّنة ويغطى ويترك إلى أن يقوى غليانه. ويبقى الذي يُدبّره يشارفه مشارفة[4] في اختباره، ويرضعه بالماء قليلاً قليلاً مرات. وهو مغطى مُحترز عليه إلى أن يتناهى على قدر[5] القوة، ثم يترك حتى يبرد، ويُستعمل في المأكل كالسمن. ومتى فوجئ بكشف الغطاء فار وطار[6] وتصاعد إلى السقف، وربما انعقد منه نار فأحرقت الدار، وربّما زاد فأحرقت البلد. وهذا الدهن يحرق كلّ جلد وُضع فيه، ولا يحمله إلاّ ظروف القرع.

ويوجد بها من الثمرات البريّة ما هو شبيه بكل الفواكه البستانية على اختلاف أنواعها. لكتها حرّيفة لا تُستطاب ولا يأكلها إلا السودان، وهي قوت كثير منهم[7].

وعندهم الملح يوجد بخلاف الجوانيّين والمسامتين بسلجماسة. وما وراءها[8].

وفي صحاريهم الجواميس، بريّة، تُصاد كالوحش. وصورة صيدهم لها أنهم يحملون من بطونها الصغار، وما يربى عندهم في البيوت. فإذا أرادوا صيد الجواميس أخرجوا واحداً منها إلى موضع الجواميس لتراه وتقصده وتتألف به للجنسية التي هي علة الضم. فإذا تألّفت بها رموها بنشّار مسموم

عندهم، ثم يقطعون مواضع السمّ، وهو موضع الرمية وما حوله، ثم يؤكل باقيه[9].

(١). القلقشندي، صبح الأعشى: ٢٧٧/٥

(٢). م: الليموه.

(٣). م: السمن.

(٤). م: يسارقه مساقة.

(٥). م: مقدار.

(٦). م: وطلع.

(٧). القلقشندي، صبح الأعشى: ٢٧٧/٥.

(٨). ابن بطوطة، الرحلة: ٢٤١/٤.

(٩). م: ما فيه. وقارن بالقلقشندي، صبح الأعشى: ٢٧٦/٥.

وأغنامهم ومعزهم لا مرعى لها، وإنما هي جلالات على القمامات والمزابل. وتلد الواحدة من المعز في بطن واحد سبعة وثمانية[1].

وبصحاريهم أنواع الوحوش[2] من الحُمُر والبقر والغزلان والنعام وما يجري مجراها. والفِيَلة والآساد والنمور. وكلّها لا تؤذي إلاَ مَن تعرّض لها أو تحرّش بها[3]، وربّما مرّ الرجل إلى جانبها فلا اعترضه مال يهجها[4].

وعندهم وحش يسمى تُرمّى بضم التاء المثنّاة والراء المهملة وتشديد الميم، ولا يكون إلا خنثى له ذكر وفرجٌ مونَّد بين الذئاب والضباع. قال الشيخ سعيد الدُكّالي: وقد[5] رأيته بعينيّ، وهو خُنثى. قدر الذئب، متى وجد في الليل آدمياً صغيراً أو مراهقاً خطَفَه وأكله، فأمّا بالنهار فلا يؤذي. ولا له إقدام على الرجل التمام. وهو ينعر كنُعار الثور إذا أراد النطاح. وهو ينبش الموتى ويأكلهم. وأسنانه كأسنان التمساح مصفّحة، ذكر في أنثى[6].

وفي مجرى النيل عندهم تماسيح كبار هائلة المقادير، يوجد منها ما يكون طوله عشرة أذرع وأزيد. قال الدكّالي: وصيد منها تمساح وُضع في قلبه رمحٌ طوله عشرة أشبار. ومرارته سمّ، وهي تحمل إلى خزانة ملكهم. قال: والفيل يصاد في بلاد الكفّار المجاورة لهم بالسحر حقيقة لا مجازاً[7].

والسحر بهذه البلاد كلّها كثيرٌ إلى الغاية[8]، وخصوصاً ببلاد غانة. وفي كلّ وقت يتحاكمون عند ملكهم بسببه، ويقال: إنَّ فلاناً قتل بالسحر أخي أو ولدي أو ابنتي أو أختي. ويُحكم على القاتل بالقصاص، ويُقتل الساحر[9].

وسلطان هذه المملكة يجلس في قصره على مصطبة كبيرة تسمى عندهم بَنبى، بالباء الموّحدة، والنون. والباء الموّحدة، على دكّة كبيرة من أبنوس كالتخت. يكون قدر المجلس

(١). القلقشندي. صبح الأعشى: ٢٧٦/٥.

(٢). م: الوحش.

(٣). ساقطة من م.

(٤). م: يفجئها. وقارن بالقلقشندي. صبح الأعشى: ٢٧٦/٥.

(٥). ساقطة من م.

(٦). القلقشندي. صبح الأعشى: ٢٧٦/٥.

(٧). القلقشندي. صبح الأعشى: ٢٧٦/٥.

(٨). ت: غاية.

(٩). القلقشندي. صبح الأعشى: ٢٨٠/٥.

العظيم المتّسع، عليها أنياب الفيلة في جميع جوانبها. الناب إلى الناب. وعنده سلاحه من ذهب كله: سيف ومِزراق وتركاش وقوس وناشب، وعليه سراويل كبير مفصّل من نحو عشرين نصفيّة لا يلبسه أحد، ويقف خلفه نحو ثلاثين مملوكاً من الترك وغيرهم ممن يُبتاع له من مصر، بيد واحد منهم جتر حرير عليه قبة. وطائر من ذهب، والطائر[1] صفة بازي يحمل على يساره، وأُمراؤه جلوس حوله من تحته[2] سماطين يميناً ويساراً ثم دونهم أعيان من فرسان عسكره جلوس، وبين يديه شخص يغني له وهو سيّافة، وآخر سفير بينه وبين الناس، يسمى الشاعر. وحولهم أُناس بأيديهم طبولٌ يدقون بها، وبين يديه أناس يرقصون، وهو يتفرّج عليهم ويضحك منهم، وخلفه صنجقان منشوران، وقدامه فرسان مشدودان محصّلان لركوبه متى شاء[3].

ومَن عطس في مجلسه ضُرب ضرباً مؤلماً، ولا يُسامح أحداً في هذا، وإنما إذا جاءت[4] أحدهم العطسة انبطح على الأرض وعطس حتى لا يُعلم به. وأما الملك فإنه إذا عطس ضرب الحاضرون على صدورهم[5].

ولباسُهم عمائم بحبك[6] مثل العرب. وقماشهم بياض من قطن يُزرع عندهم، ويُنسج في نهاية الرفع واللطف، يسمى الكميصيًّا[7].

وزيّهم[8] شبيه بزيّ المغاربة: جبابٌ ودراريع بلا تفريج. ويلبس أبطالهم الفرسان أساور ذهب. فمَن زادت فروسيته لبس معها أطواقاً من ذهب. فإن زادت لبس معها خلاخل ذهب. وكلّما زادت فروسيّة الفارس[9] منهم ألبسه الملك سراويلاً متسعاً. وكلما زادت فرسية البطل[10] يزيد[11] في كبر سراويله. وصفة سراويلاتهم ضيق أكمام الساقين وسعة السرج[12].

---

(١). م: والطير.

(٢). م: تحت.

(٣). ابن بطوطة، الرحلة: ٢٥٧/٤.

(٤). م: جاء.

(٥). القلقشندي، صبح الأعشى: ٢٨٨/٥.

(٦). م: تحنك.

(٧). م: ايكميصا.

(٨). ت: ومنهم.

(٩). م: البطل.

(١٠). م: الفارس.

(١١). م: يزيدون.

(١٢). القلقشندي، صبح الأعشى: ٢٨٧/٥.

ويمتاز الملك في زيّه بأنه يُرخى له عذبة من[1] بين يديه. ويكون سراويله من عشرين صفيّة. لا يتجاسر على لبس هذا أحدٌ غيره[2].

وملوك هذه المملكة يُجلب إليها الخيل العِراب. وتُبذل الأثمان الكثيرة فيها[3].

ومقدار عسكره مئة ألف نفر. منهم عشرة آلاف فارس فرسان خيّالة. وسائرهم رجالة خيل لهم، ولا مراكب. والجمال والمراكب[4] عندهم موجودة، ولا يعرف بها ركوب كور[5]. والشعير عندهم معدوم بالجملة الكافية. لا ينبت عندهم[6] البتة.

ولأمراء هذا الملك وجنده إقطاعات وإنعامات. مِن أكابرهم مَن يبلغ جملة ماله على الملك في كل سنة خمسين ألف مثقال من الذهب. ويتفقدهم بالخيل والقماش. وهمّته كلها في جميل زيّهم، وتمصير مدنه[7].

ولا يدخل أحد دار هذا الملك إلاّ حافياً، كائناً مَن كان. فمن لم يخلع نعليه ساهياً كان أو عامداً قُتل بلا عفو[8].

وإذا قدم القادم على هذا الملك من أمرائه أو غيرهم أوقفه زماناً قُدّامه، ثم يُومي القادم بيده اليمنى مثل مَن يضرب الجوك ببلاد توران وإيران. فإذا أنعم على أحد بإنعام أو عده بجميل، أو شكره على فِعل تمرّغ ذلك المُنعَم عليه بين يديه من أول المكان إلى آخره. لما وصل إلى آخره[9] أخذ غلمان ذاك المنعم عليه أو مَن هو من أصحابه من رماد يكون موضوعاً في آخر مجلس الملك مُعدّاً هناك دائماً لأجل مثل هذا. فيذرّ في رأس المنعَم عليه. ثم يعود يتمرغ[10] إلى أن يصير بين يديّ الملك. ويضرب جوكاً آخر بيده كما تقدّم، ثم يقوم[11].

---

1). ساقطة من م.

2). ابن بطوطة، الرحلة: ٢٥٧/٤.

3). القلقشندي، صبح الأعشى: ٢٧٦/٥؛ الوزاني. وصف افريقيا: ٥٤١.

4). ساقطة من م.

5). القلقشندي، صبح الأعشى: ٢٨٧/٥. وذكر الوزاني. وصف افريقيا: ٥٤١ أنّ عدد جنوده ٣ آلاف فارس وعدد لا يحصى من المشاة.

6). م: بها.

7). القلقشندي، صبح الأعشى، ٢٨٧/٥.

8). القلقشندي، صبح الأعشى، ٢٨٨/٥.

9). م: فإذا وصل إلى آخر ذلك المكان.

10). م: متمرغاً.

11). م: يقدم. والخبر في: القلقشندي، صبح الأعشى. ٢٨٨/٥. وقارن بابن بطوطة، الرحلة: ٢٥٩/٤. والوزاني، وصف افريقيا: ٥٤١.

وأما صورة هذا المشبه بضرب الجوك أن يرفع الرجل يده اليمنى إلى قريب أذنه، ثم يضعها وهي قائمة منتصبة، ويلقيها بيده اليسرى فوق فخذه، واليد اليسرى مبسوطة الكف لتلتقى مرفق اليمنى مبسوطة الكف مضمومة الأصابع بعضُها إلى جانب بعض كالمشط يماس شحمة الأذن[١].

وأهل هذه المملكة يركبون بالسروج العربيّة، وهم في غالب أحوالهم كأنهم منهم، ولكنهم يبدأون في الركوب بالرجل اليمنى بخلاف[٢] الناس جميعاً[٣].

ومن عادتهم أن لا يُدفن عندهم ميت إلاّ إذا كان ذا قدر وحشمة، وإلاّ فكلّ مَن كان سوى هؤلاء ممن لا قدر له، والفقراء والغرباء، فإنه يُرمى رمياً في الفلاة مثل ما تُرمى باقي الميتات.

وهي بلاد يُسرع فيها فساد المدخورات، وخصوصاً السمن فإنه ينتن ويجيف في يومين. قلت: وليس هذا بغريب[٤] لأن أغنامهم جلالات تأكل القمامات والمزابل. وبلادهم شديدة الحرّ سريعة التحليل.

وملك هذه المملكة إذا قَدِم من السفر يحمل على رأسه الجَتْر. راكباً، ويُنشر على رأسه علم، ويضرب قدّامه الطبول والطنابير والبوقات بقرون لهم فيها صناعة محكمة[٥].

ومن عادته[٦] أنه إذا عاد إليه أحد ممن بعث به في شُغُلٍ أو مُهِمّ يسأله عن كل ما تمَّ له من حال، من حين مفارقته إلى حين عوده مفصّلاً[٧].

والشكاوى والمظالم تُنهى إلى هذا الملك فيفصلها بنفسه. وفي الغالب لا يكتب شيئاً، بل أمره بالقول غالباً، وله قضاة وكُتّاب ودواوين. هذا ما حدّثني به الدُكالي[٨].

وحكى لي الأمير أبو الحسن علي بن أمير حاجب: أنّه كان كثير الاجتماع بالسلطان موسى

---

(١). قارن بالقلقشندي، صبح الأعشى: ٢٨٩/٥.

(٢). م: خلاف.

(٣). القلقشندي، صبح الأعشى: ٢٨٧/٥.

(٤). م: غريباً.

(٥). القلقشندي، صبح الأعشى: ٢٨٩/٥.

(٦). م: عادتهم.

(٧). القلقشندي، صبح الأعشى: ٢٨٩/٥.

(٨). القلقشندي، صبح الأعشى: ٢٨٦/٥.

ملك هذه البلاد لما قدم مصر حاجّاً[١]. وكان هو نازلاً بالقرافة[٢]، وابن أمير حاجب والي مصر والقرافة إذ ذاك، واتحدت بينهما الصحبة. وأنَّ السلطان موسى حدّثه بكثير من أحواله وأحوال بلاده ومَن يجاوره من أُمم السودان.

قال: ومما حدّثني به أن بلاده متسعة اتساعاً كثيراً، وهي متصلة بالبحر المحيط، فتح فيها بسيفه وجنده أربعاً وعشرين مدينة ذوات أعمال وقرى وضياع. وهي كثيرة الدواب من البقر والغنم والمعز والخيل البغال، وأنواع الطير: الدواجن كالإوز والحمام والدجاج، وأنَّ أهل بلاده عدد كثير وجَمٌّ غفير، وهم بالنسبة إلى مَن جاورهم من أمم السودان المتوغلين في الجنوب كالشامة البيضاء في البقرة السوداء.

وفي مهادنته أهل بلاد الذهب -وله عليهم القطيعة- قال: فسألته: كيف نبات الذهب؟

فقال: يوجد[٣] على نوعين: نوع في زمن الربيع عُقيب الأمطار ينبت في الصحراء، وله ورق شبيه بالنخيل أصوله التِبْر. والنوع الآخر يوجد في جميع السنة في أماكن معروفة على ضفات مجاري النيل. فتحفر هناك حفائر فتوجد[٤] أصول الذهب كالحجارة والحصى فيؤخذ[٥]. وكلاهما هو المسمى بالتبر. والأول أفحل في العيار وأفضل في القيمة.

قال: وحدّثني السلطان موسى: أنَّ الذهب حمىً له، يُجمع متحصلة كالقطيعة إلا ما يأخذه أهل تلك البلاد منه على سبيل السرقة.

قلت: والذي قاله الدكّالي إنه[٦] إنما يُهادي بشيء منه كالمصانعة، ويتكسّب عليهم في المبيعات، لأن بلادهم لا شيء بها. وقول الدكّالي أثبت[٧].

قال ابن أمير حاجب: وشعار هذا السلطان أصفر في أرض حمراء تنشر عليه الأعلام، حيث يركب. وهي ألويةٌ كبار جداً[٨].

---

(١). حج السلطان موسى سنة ٧٢٤هـ. انظر: المقريزي، السلوك: ٣/ ٧٣.

(٢). القرافة: مقبرة ومدفن في القاهرة في الجنوب الشرقي منها ولها شكل المدينة بسبب كثرة الأبنية عليها. انظر: ابن بطوطة، الرحلة: ١/ ٢٠٦؛ الحميري، الروض: ٤٦٠-٤٦١.

(٣). م: يؤخذ.

(٤). م: فتؤخذ.

(٥). ساقطة من م.

(٦). ساقطة من م.

(٧). القلقشندي، صبح الأعشى: ٥/ ٢٧٨.

(٨). القلقشندي، صبح الأعشى: ٥/ ٢٨٩.

وخدمة القادم عليه أو المنْعَم عليه أن يكشف مقدّم رأسه، ويضرب بيده اليمنى جوكاً إلى الأرض نحو ما يعمل التتار، فإذا احتاج إلى أكثر من هذه الخدمة تمرّغ بين يديه[1].

قال ابن أمير حاجب: وأنا رأيت هذا بالمشاهدة والعيان.

قال: ومن عادة هذا السلطان أنه لا يأكل بحضور أحد من الناس كائناً مَن كان، بل يأكل دائماً وحده بمفرده.

ومن عادة أهل مملكته أنه إذا نشأ لأحدٍ منهم بنتٌ حسناء قدّمها له أمَةً موطوءة، فيملكها بغير تزويج، مثل ما مَلكت اليمين، مع ظهور الإسلام بينهم وتمذهبهم بمذهب المالكيّة.

قال ابن أمير حاجب: هذا مع كون هذا السلطان موسى كان متديّناً محافظاً على الصلاة والقراءة والذكر.

قال: فقلت له: إنَّ مثل هذا لا يجوز، ولا يحلّ لمسلم شرعاً ولا نقلاً.

فقال: ولا للملوك؟

فقلت: ولا للملوك. وسلِ العلماء.

فقال: والله ما كنت أعلم. وقد تركتُ هذا ورجعتُ رجوعاً كليًّا عنه[2].

قال ابن أمير حاجب: ورأيت هذا السلطان موسى محباً للخير، وأهلِه. وترك مملكته واستناب بها ولده محمداً، وهاجر إلى الله ورسوله، فأدّى فريضة الحج، وزار النبيّ (ﷺ)، وعاد إلى بلاده على أنه[3] يقرِّر لابنه الملك، ويتركه له بالكليّة، ويعود إلى مكة المعظمة، ويُقيم مجاوراً بها. فأتاه أجله رحمه الله تعالى.

قال ابن أمير حاجب: وسألته إن كان له أعداء بينهم حروب وقتال؟ [4].

فقال: نعم لنا عدو شديد هم في السودان، كالتتار لكم. وبينهم وبين التتار مناسبة من جهات منها:[5] أنهم وساع الوجوه، فُطس الأنوف، يجيدون الرميَ بالنشّاب، وخيولهم

(١). قارن بابن بطوطة، الرحلة: ٤/٢٥٩.

(٢). القلقشندي، صبح الأعشى: ٥/٢٨٥.

(٣). م: ان.

(٤). ساقطة من م.

(٥). ساقطة من م.

أكاديش[١]، مسقّفة الأنوف، زلنا ولهم وقائع، ولهم بأس شديد بإصابة رميهم بالنشّاب، وبيننا وبينهم نوَب، والحروب بيننا[٢] تارات.

قلت: وقد ذكر ابن سعيد في «المغرب» طائفة الدمادم الذين خرجوا على أصناف السودان فأهلكوا بلادهم. وهم يشبّهون بالتتر. وكان خروج الفريقين في عصر واحد. انتهى كلامه في هذا المعنى[٣].

قال ابن أمير حاجب: سألت السلطان موسى كيف انتقلت إليه المملكة فقال: نحن أهل بيت نتوارث[٤] الملك. وكان الذي قبلي[٥] لا يصدّق أن البحر المحيط لا يُمكن الوقوف على آخره، وأحبّ الوقوف على هذا، وولع به، فجهز مئين مراكب مملوءة من الرجال، وأمثالها مملوءة من الذهب والماء والزاد، ما يكفيهم سنين، وقال للمسفرين[٦] فيها: لا ترجعوا حتى تبلغوا نهايته، أو تنفد أزوادكم وماؤكم. فساروا، وطالت مدة غيبتهم، لا يرجع منهم أحد. حتى مضت مدة طويلة. ثم عاد مركب واحد منها. فسألنا كبيرهم عما كان من أثرهم وخبرهم. فقال: تعلم[٧] أيّها السلطان. إنّا سرنا زماناً طويلاً حتى عرض في لجّة البحر وادٍ له جرية قوية، وكنت آخر تلك المراكب، فأما تلك المراكب فإنها تقدمت، فلما صارت في ذلك المكان ما عادت ولا بانت، ولا عرفنا ما جرى لها. وأما أنا فرجعت من مكاني ولم أدخل ذلك الوادي.

قال: فأنكر عليه.

قال: ثم إنَّ السلطان أعدَّ ألفيْ مركب، ألفاً له ولرجال استصحبهم معه، وألفاً للماء والزاد. ثم استخلفني وركب بمن معه البحر وسار فيه. وكان آخر العهد به وبجميع مَن معه. واستقلّ لي الملك[٨].

---

(١). «يجيدون الرمي ... أكاديش» ساقطة من ت.

(٢). ساقطة من ت.

(٣). ابن خلدون. التاريخ: ٦/٢٠٠.

(٤). م: يتوارث.

(٥). م: قبلُ.

(٦). م: للمتقدمين.

(٧). م: نعم.

(٨). القلقشندي، صبح الأعشى: ٥/٢٨٢.

قال ابن أمير حاجب: ولقد كان هذا السلطان موسى مدَّة مقامه بمصر، قبل توجُّهه إلى الحجاز الشريف وبعده على نمط واحد في العبادة والتوجّه إلى الله عزّ وجل كأنه بين يديه لكثرة حضوره، وكان هو وكلّ مَن معه على مثل هذا، مع حسن الزيّ في الملبس والسكينة والوقار. وكان كريماً جواداً كثير الصدقة والبرّ. خرج من بلده بمئة وسق جمل[1] من الذهب أنفقها في حجّته على القبائل بطريقة من بلاده إلى مصر، ثم بمصر، ثم من مصر إلى الحجاز الشريف، في التوجّه والعود حتى احتاج إلى القرض من مصر. فاستدان على ذمته من التجار بمكاسب كثيرة وافرة جعلها لهم، بحيث حصل لهم في ثلاث مئة دينار سبع مئة دينار ربحاً، ثم بعثها إليهم بالراجح. قال ابن أمير حاجب: وبعث لي خمس مئة مثقال ذهباً على سبيل الافتقاد[2].

وأخبرني ابن أمير حاجب: أنَّ المعاملة في بلاد التكرور بالودَع، وأنَّ التجار أكثر ما تجلب إليهم[3] الودَع، وتستفيد به فائدة جليلة. انتهى كلام ابن أمير حاجب[4].

قلت: وقد كان بلغني أول قدومي مصر وإقامتي بها حديث وصول هذا السلطان موسى حاجّاً، ورأيت أهل مصر لهجين بذكر ما رأوه من سعة انفاقهم. فسألت الأمير أبا العباس أحمد ابن الجاكي[5] المهمندار رحمة الله عنه، فذكر لي[6] ما كان عليه هذا السلطان من سعة الحال والمروءة والديانة وقال: لما خرجتُ لملتقاه، أعني من جهة السلطان الأعظم الملك الناصر أكرمني إكراماً بليغاً. وعاملني بأجمل الآداب، ولكنه كان لا يحدثني[7] إلاّ بترجمان، مع إجادة معرفته للتكلم باللسان العربي. ثم إنه قدّم للخزانة[8] السلطانية جملاً كثيرة من الذهب المعدني الذي لم يصنع[9] وغير ذلك. وحاولته أن يطلع للقلعة ويجتمع

---

(١). ساقطة من م.

(٢). القلقشندي، صبح الأعشى: ٥/ ٢٨٤.

(٣). ط: لهم.

(٤). قارن بابن بطوطة. الرحلة: ٤/ ٢٧١. والوزاني، وصف افريقيا: ٥٤١. ويزن المثقال السوداني حسبما ذكر محقق كتاب الوزاني: ٤/٢٣٨ غرام.

(٥). م: الحاكي.

(٦). ساقطة من ت.

(٧). م: ما كان يكلمني.

(٨). م: إلى الخزانة.

(٩). م: يصغ.

بالسلطان فأبى عليَّ وامتنع وقال:

أنا جئت لأحج لا لشيء آخر. وما أُريد أخلط حجّي بغيره. وشرع في الاحتجاج بنا وأنا أفهم أنه يرى الحضور نقصاً عليه لما يضطرُّ إليه من تقبيل الأرض أو اليد. وبقيت أحاوله، وهو يتعلَّل ويعتذر. والمراسم السلطانية تتقاضاني في إحضاره. فما زلتُ به حتى وافق. فلما وصل إلى حضرة السلطان قلنا له: قبِّل الأرض. فتوقَّف وأبى إباء ظاهراً. وقال: كيف يجوز هذا؟ فأسرّ إليه رجل عاقل كان معه كلاماً ما نعلمه. فقال: أنا أسجد لله الذي خلقني وفَطرني. ثم سجد. وتقدَّم إلى السلطان. فقام له بعض قيام وأكرمه، وأجلسه إلى جانبه. وتحادثا حديثاً طويلاً. ثم خرج السلطان موسى. وبعث إليه السلطان بعدة من الخِلع الكاملة ولأصحابه، ولكلّ مَن حضر معه، وخيلاً مسرجة ملجمة له ولأعيان مَن معه، وكانت خلعته طَرْدَ وَحْش مقصَّب كبير، بسنجاب مقندس مطرّز بزركش على مقترح[١] اسكندري وكلّوته زركش[٢]، وكلاليب ذهب، وشاش بحرور رَقم[٣] خليفتي، ومنطقة ذهب مرّصعة. وسيف محلّى، ومنديل بذهب جرّ[٤]، وأعلام، وفرسين، مسرّجين[٥] ملجمين بمراكب ثقل[٦] محلاّة. وأجرى عليه الأنزال والإقامات الوافرة مدة مقامه. فلما آن أوان الحج بعث إليه دراهم كثير[٧]. وجمال، وهجن خاص، كاملات الأكوار والعدد لمراكبه، وأتباع لأصحابه ومَن حضر معه. وأزوادٍ جمَّة، وركز له العليق في الطرق، ورسم لأمراء الركب بإكرامه، واحترامه.

ثم لما عاد تلقيته وأنزلته، واستمرّ على علوفاته وانزاله وبعث إلى السلطان متبرّكاً من هدايا الحجاز الشريف، فقبله السلطان منه، وبعث إليه بالخلع الكوامل له ولأصحابه، والألطاف والثوابي[٨] من البرّ الاسكندري، والأمتعة الفاخرة. ثم عاد إلى بلاده[٩].

---

(١). م: مفرج

(٢). م: وزركش.

(٣). م: ورقم.

(٤). م: خز.

(٥). م: مسرحين.

(٦). م: مصل.

(٧). م: بمبلغ كبير من الدراهم.

(٨). م: الغوالي.

(٩). القلقشندي. صبح الأعشى: ٥/٢٨٣.

قال المهمندار: ولقد أفاض هذا الرجل بمصر فيض الإحسان. لم يدع أميراً مقرّباً ولا ربّ وظيفة سلطانيّة حتى وصله بجملة من الذهب. ولقد كسب أهل مصر عليه وعلى أصحابه في البيع والشراء والعطاء ولأخذ مالا يُحصر. وبذلوا[1] الذهب حتى أهانوا في مصر قدره. وأرخصوا سعره.

قلت: ولقد صدق المهمندار، فإنه حكى مثل هذا غير واحد. ولما مات المهمندار وجد الديوان فيما خلّفه آلافاً من الذهب المعدني مما أعطاه له، باقياً على حاله في ترابه لم يُصنع[2].

وحدّثني خلقٌ من تجّار مصر والقاهرة عما حصل لهم من المكاسب والربح عليهم، فإن الرجل منهم كان يشتري القميص أو الثوب والإزار وغير ذلك بخمسة دنانير وهو لا يساوي[3] ديناراً واحداً، وكانوا في غاية سلامة الصدر[4] والطمأنينة، يجوز عليهم مهما جُوّز[5] عليهم. ويأخذون كلّ قول يُقال بالقبول والصدق. ثم ساءت ظنونهم بأهل مصر غاية الإساءة[6] لما ظهر لهم من غشّهم لهم في كل قول. وفي تراجحهم[7] المفرط عليهم[8] في أثمان ما يُباع عليهم من الأطعمة والسلع. حتى إنهم لو رأوا اليوم أكبر أئمة العلم والدين. وقال[9] لهم إنه مصري امتهنوه[10]. وأساؤوا به الظن. لما رأوا من سوء معاملتهم لهم[11].

وحدّثني مُهَنا بن عبدالباقي العجرمي الدليل أنه كان في صحبة السلطان موسى لما حجّ. وأنه أفاض على الحجيج وأهل الحرمين سجال الإحسان. وكان في غاية التجمل وحسن الزي في سفره هو ومَن معه، وتصدّق بمال كثير.

---

(1). م: وبدّلوا.

(2). م: يصغ.

(3). م: يسوى.

(4). م: الصدور.

(5). م: حزر.

(6). م: الاستياء.

(7). م: تزاحمهم.

(8). ساقطة من ت.

(9). مك: قيل.

(10). م: أمهنوه.

(11). ساقطة من م.

قال: ونابني عنه مائتي مثقال من الذهب. وأعطى رفاقي جُملاً أخرى. وبالغ مُهَنّا في وصف ما رآه منه من الكرم وسعة النفس ورفاهية الحال.

قلت: ولقد كان الذهب مرتفع السعر بمصر إلى أن جاءوا[1] إليها في تلك السنة. كان المثقال لا ينزل عن خمسة وعشرين درهماً، وما زاد عليها في الغالب[2]. فمن يومئذ نزلت قيمته ورخُص سعره، واستمرّ على الرخص إلى الآن لا يتعدى المثقال اثنين وعشرين درهماً وما دونها، هذا من مدّة تُقارب اثنتي عشر سنة إلى اليوم لكثرة ما جلبوا من الذهب إلى مصر وأنفقوه بها.

قلت: ولقد جاء كتاب من هذا السلطان إلى الحضرة السلطانية بمصر. وهو بالخط المغربي في ورق عريض. السطر إلى جانب السطر، وهو يمسك فيه ناموساً[3] لنفسه مع مراعاة قوانين الأدب. كتبه على بعض يد خواصّه ممن جاء يحجّ. ومضمونه السلام والوصيّة بحامله. وجهّز معه على سبيل الهدية خمسة آلاف مثقال من الذهب.

وبلاد مالي وغانة وما معها يُسلك إليها من غربي صعيد مصر. على الواحات، في بر مقفر تسكنه طوائف من العرب، ثم من البربر، إلى عمران يتوصل منه إلى مالي وغانة. وهي مسامته لجبال[4] البربر في جنوب مراكش وما يليها في قفار طويلة، وصحار ممتدة موحشة.

وحدّثني الفقيه العلامة أبو الروح عيسى الزواوي قال: حدثني السلطان موسى منسي أن طول مملكته نحو سنة. وبمثل هذا أخبرني عنه ابن أمير حاجب.

وأما ما قاله الدُكالي فقد تقدّم ذكره، وهو أنها أربعة أشهر طولاً في مثلها عرضاً. وقول الدُكالي أثبت، لأن موسى منسى ربّما عظّم شأن ملكه.

وقال الزواوي: قال لي هذا السلطان موسى أنَّ عنده في مدينة اسمها تكرا[5] معدن النحاس الأحمر. تجلب منه القضبان[6] إلى مدينة نينى[7].

---

(١). م: جاء.

(٢). «في الغالب» ساقطة من ت.

(٣). م: ناسوتاً.

(٤). م: جبال.

(٥). م: زكرى.

(٦). م: قصبات.

(٧). ابن بطوطة، الرحلة: ٤/٢٧٠؛ القلقشندي، صبح الأعشى: ٥/٢٧٩.

قال[1]: وقال: ليس لي في مملكتي شيء يمكس[2] سوى هذا النحاس المعدني الذي يجلب، فإنه يؤخذ منه[3] خاصّة لا غير، ونحن نبعثه إلى بلاد السودان الكفّار نبيعه وزن مثقال بثلثي وزنه من الذهب. فنبيع كل مئة مثقال[4] من[5] النحاس بستة وستين مثقالاً من الذهب وثلثي مثقال.

قال: وقال لي إنّ عنده أُمماً من الكفّار في مملكته وهو لا يأخذ منهم جزية، وإنما يستعملهم في استخراج الذهب من معادنه.

وقال لي: إن معادن الذهب تحفر الجورة عمق قامة أو ما يُقاربها، فيوجد الذهب في جنباتها، وربَّما يوجد مجتمعاً في سفل تلك الحفائر.

وملكُ هذه المملكة في جهاد دائم وغزو ملازم لمن جاوره من كفّار السودان. وهم أمم لا يستوعبهم الزمان.

قال لي الدُكالي: وأهل هذه المملكة كثيرٌ فيهم السحر والسم. ولهم عناية بهما وتدقيق فيهما. وعندهم حشائش وحيوانات يركّبون منها السموم القتّالة، ولا سيّما من نوع من[6] السمك يوجد عندهم، ومرارات التماسيح فإنها سموم لا دواء لها.

وحدّثني الشيخ الإمام أبو عبدالله محمد بن الصايغ الأموي قال: حدّثني الوزير أبو عبدالله محمد ابن زاغنوه[7] من أهل بلدنا المريّة بالأندلس، وهو ثقة من الفقهاء العلماء قال: ركبت في مركب تجارة لي مع جملة تجّار من فم الإيلاية[8] وهو مدخل البحر المحيط قاصدين بعض بلاد العدوة. فلعبت بنا الريح، وتقاذفت بنا الأمواج إلى أن عدَّينا المكان المقصود وتمادى بنا الحال إلى أن عجزنا عن الإرساء إلى البر، ولم نَزَل على هذا نتغلغل في المحيط إلى الجنوب. إلى أن دُفعنا في ظلمات ممتدة إذا أخرج الإنسان بها يده لم يكد يراها. وأيقنّا بالهلاك لوقوعنا في الظلمات. ثم لطف الله تعالى[9] بسكون الريح، فداريْنا

(1). ساقطة من م.

(2). م: ممكس.

(3). «يؤخذ منه» ساقطة من ت.

(4). ساقطة من م.

(5). تشيف م: هذا.

(6). ساقطة من ت.

(7). م: راغنوه.

(8). م: الإيلابة.

(9). ساقطة من ت.

المركب ورفقنا[١] به، وقصدنا ناحية البر إلى أن وصلنا إلى البرّ وأرسينا به وخرجنا نطلب الخلاص لأنفسنا. فرأينا أعلام مدينة فقصدناها، فوجدنا بها أمة من السودان لمّا رأونا بيضاً عجبوا منّا واعتقدوا أنّا صبغنا جسومنا بالبياض، فحكّوا جلودنا[٢] بالليف، فلما ظهر لهم أنه خلقة بقي كل واحد منهم يتعجّب، ويتحدثون بذلك بعضهم مع بعض. فأقمنا عندهم فوجدنا غالب أكلهم لحم الثعابين والحيّات. وهي كثيرة في أرضهم جداً يتصيّدونها ويأكلون لحومها. ليس بأرضهم نبات ولا مرعى، فأقمنا عندهم مدّة حتى خرج منهم اناس إلى بلاد مجاورة لهم في بعض أشغالهم، فخرجنا معهم. ثم تنقلنا من مكان إلى مكان إلى أن وصلنا إلى برّ العدوة.

وحدّثني أبو عبدالله بن الصايغ: أن الملح معدوم في داخل بلاد السودان. فمن الناس من يغرّر ويصل به إلى ناس منهم يبذلون نظير كلّ صبرة ملح مثله من الذهب.

قال: وحدثت أن من أمم السودان الداخلة مَن لا يظهر لهم[٣]، بل إذا جاء التجار[٤] وضعوا الملح ثم غابوا فيضع السودان إزاءه الذهب. فإذا أخذ التجّار الذهب أخذوا هم الملح[٥].

وحكى لي عيسى الزواوي قال:

حُدِّثتُ أنَّ رجلاً دخل بملح ووصل إلى مدينة من مدن كفّار السودان. قال: فأهديت إلى ملكها شيئاً من الملح فقبله، وبعث إليَّ بجاريتين من أحسن السودان صورة. ثم حضرت عنده بعد أيام فقال: بعثنا إليك بتلك الجاريتين فاذبحهما وكُلهما. فإنَّ لحمهما أطيب ما يؤكل عندنا، فلأي شيء ما ذبحتهما؟

فقلت: ما يحلُّ هذا عندنا.

فقال: فأيّ شيء تأكل؟

قلت: لحم البقر والغنم.

---

(١). م: ووقفنا.

(٢). م: جسومنا.

(٣). ساقطة من م.

(٤). ساقطة من ت.

(٥). انظر: القزويني، آثار البلاد: ١٩.

قال: وحدّثت أيضاً ان في بلاد هؤلاء السودان جبلاً عالياً لا يمكن الصعود إليه، به[1] أنواع من الفواكه والثمار ولا سبيل لهم إليها إلاّ بما ألقت الرياح إليهم مما يتساقط من أوراقها وثمارها.

قلت: ولم يذكر هذا عن بلاد الكفار، وإن كان ليس من شرطنا؛ لكنّي ذكرته لغرابته، وزيادة فائدة، ولأنه يتعلّق ببلاد السودان. وأما ما أقوله فإنه قد كثر[2] القول عمّن يأكل من السودان لحوم الناس، وهم الذين بلادهم موغلة في غاية الجنوب ومنهم من الزنج؛

قال الجاحظ في كتاب البيان والتبيين: وقد ذكرنا الزنج ونزعها ثناياها قال: سألت مباركاً الزنجي الفشكار[3]، فقلت: لم تنزع الزنج ثناياها؟ قال: سألت عن ذلك، ولم يحدِّدُناس منهم أسنانهم؟ فقال: أما أصحاب التحديد فللقتال والنهش. ولأنهم يأكلون لحوم الناس، ومتى حارب ملكٌ ملكاً فأخذه قتيلاً أو أسيراً أكله، وكذلك إذا حارب بعضهم بعضاً أكل الغالب منهم المغلوب. وأما أصحاب القلاع فإنهم نظروا إلى مقادم أفواه الغنم فكرهوا أن تشبه مقادم أفواههم مقادم أفواه الغنم[4].

(1). م: فيه.

(2). م: فهو أنه كثر القول.

(3). الفشكار: الفلاح. انظر: الجاحظ، البيان: ١/٦٠ حاشية (١).

(4). الجملة من «قال الجاحظ في ... أفواه الغنم» ليست في م. والخبر في الجاحظ، البيان والتبيين: ١/٦٠.

الباب الحادي عشر
الممالك الإسلامية
جبال البربر

الباب الحادي عشر
في مملكة جبال البربر

وببلاد السودان أيضاً ثلاثة ملوك مستقلون مسلمون بيض من البربر، سلطان، أهير. وسلطان دمُّوسَة، وسلطان تادمكة، وهؤلاء الملوك الثلاثة البيض ملك أهير ودموسة وتادمكة ثلاثتهم ملوك مسلمون في جنوب الغرب بين بر العدوة مملكة السلطان أبي الحسن وبين بلاد مالي وما معها. وكل واحد منهم ملك مستقل بنفسه لا يحكم أحد منهم على الآخر وأكبرهم ملك أهير(1). وهم بربر زيهم نحو زي المغاربة دراريع إلاّ أنها أضيق وعمائم بأحناك(2)، وركوبهم الإبل ولا خيل عندهم ولا للمريني عليهم حكم ولا لصاحب مالي وعيشهم وعيش أهل البر من اللحوم والألبان والحبوب قليلة عندهم(3).

وحدثني الشيخ سعيد الدكالي: أنه مر بهم في بعض أسفاره ولم يقم عندهم وهم في قلة أقوات(4).

وحدثني الزواوي: أن لهؤلاء البربر جبالاً عامرة كثيرة الفواكه، وقال: إن كل ما بأيدي هؤلاء الثلاثة يجيء قدر نصف ما لملك مالي أو أرجح بقليل، وإنما ذلك أكثر دخلاً لقربه من بلاد الكفار، وبها منابت الذهب، وهو قاهر عليهم، ودخله كثير بهذا السبب وبكثرة ما يباع بمملكته من السلع وما يكتسبه في الغزوات من بلاد الكفار بخلاف هؤلاء فإن بلادهم جدبة ولا يد تمتد لهم إلى كسب. وغالب أرزاقهم من دوابهم ودون هؤلاء مما بينهم وبين مراكش جبال المصامدة، وهم خلق لا يُعد وأمم لا تحصى، وهم يفخرون بالشجاعة والكرم، فيهم أعيان الكُرماء، وبهم تطل سواكبُ سَواكبَ الدماء(5). وقد كانوا لا يدينون لسلطان من سلاطين بر العدوة ولا يقدر أحد من ملوكها يفتل لهم في غارب ولا ذروه.

---

(1). قارن بالقلقشندي، صبح الأعشى: 5/204. وانظر: ابن سعيد، الجغرافيا: 115، وذكر أنهم في طاعة ملك الكانم.

(2). انظرعن زيهم: الحميري. الروض المعطار: 129: البكري، المسالك والممالك: 2/880: مجهول، الاستبصار: 223: ابن سعيد، الجغرافيا: 115. القلقشندي. صبح الأعشى: 5/204

(3). الحميري، الروض المعطار: 128. البكري. المسالك والممالك: 2/880: القلقشندي، صبح الأعشى: 5/204: مجهول، الاستبصار: 223

(4). قارن بالقلقشندي. صبح الأعشى: 5/204. وذكر ابن سعيد، الجغرافيا: 115 أنهم يعتمدون في دخلهم على التجارة.

(5). قارن بالقلقشندي، صبح الأعشى: 5/204

وقد وصلت الآن إلينا الأخبار بأنهم قد دانوا للسلطان أبي الحسن صاحب بر العدوة الآن. وقد دخلوا تحت ذيل طاعته، وتقرّب كل منهم إليه بما فيه وبما في قدر استطاعته على أنهم لا يُمَلِّكُون لأحدٍ قيادهم ولا يسلمون إليه بلادهم وهم معه على كل حال بين صحة واعتدال. وهذا ما انتهى إلينا من أخبارهم(١).

---

(٢). قارن بالقلقشندي، صبح الأعشى: ٢٠٤/٥

الباب الثاني عشر
الممالك الإسلامية
أفريقيا

الباب الثاني عشر
في مملكة أفريقية (١)

هي مملكة عظيمة. ولها شهرة عظيمة. صحيحة الهواء، عذبة الماء، وسيعة المدى. كانت في أول منشأ الدولة الفاطمية مقر ملكهم، طلعت بها شمسهم من المغرب، وظهرت آية المتعجب(٢)، ثم صارت إلى بني باديس(٣). واستقلوا بأعبائها، وامتدت لهم فيها أيام قضوا بلابتيها وبلغوا أمنيتها، ثم كانت في أيام جدود ملوكها الآن(٤). ذات عز وسلطان. امتدت بها مهابة الأمير أبي زكريا(٥) وادعى بها ابنه المستنصر(٦) الخلافة، لما غلب على السبعة

---

(١). عرفت بلاد المغرب بأسماء متعددة. فأطلق العرب "الفينيقيون على الأقوام التي سكنت حول مدنهم مثل قرطاجنه اسم «أفري» وعنهم أخذها اليونان حيث أطلقوها على جميع سكان المغرب العربي ابتداء من غرب مصر حتى المحيط الأطلسي. ومنها اشتقت اسم افريقية أي بلاد الأفري. ثم استقرت اللفظه في المصادر للدلالة على الإقليم الذي تتوسطه مدينة القيروان (تونس) وحده من الغرب طرابلس حتى بجاية. انظر: حسين مؤنس. فتح العرب:٢-٤. السامرائي. تاريخ المغرب:٩-١٠

(٢). استولى أتباع الدعوة الفاطمية الذين نشروا مبادئ الدعوة في افريقية على مدينة رقادة عاصمة الأغالبة بقيادة مؤسس الدولة الفاطمية الإمام عبيدالله المهدي سنة ٢٩٦هـ. وبني مدينة المهديه واتخذها عاصمة له. واستمرت الدولة الفاطمية في افريقية حتى سنة ٣٥٨هـ حينما استولى المعز لدين الله الفاطمي على مصر وانتقل اليها. موسى لقبال. دور كتامه: ٢٦٣. سوادي عبد الحميد. دراسات: ٢٠٧.

(٣). عندما غادر المعز لدين الله الفاطمي افريقيه نحو مصر، عين من قبله عليها أميراً بربرياً نائباً عنه لحكمها. وهو الأمير بلكين بن زيري بن مناد الصنهاجي. وبقي الأمر كذلك حتى حكم من نسبه المعز بن باديس الذي خلع طاعة الدولة الفاطمية وأعلن استقلاله سنة ٤٤٠هـ/ ١٠٤٨م. وتبعه بعد ذلك أمراء ضعاف حتى تولى الأمر بني حفص. انظر: ابن أبي الضياف. الإتحاف:١/ ١٦٥. ابن خلدون، العبر: ٦/ ٣١٧. ابن أبي زرع، المؤنس: ٧٣/ ٧٥. الدولاتلي. تونس: ٤٦.

(٤). يشير ابن فضل إلى بني حفص الأوائل الذين ينحدر أصلهم من قبيلة هنتانة البربرية. وهم رعايا دولة الموحدين. وتنتسب دولة الحفصيين إلى الشيخ أبو حفص عمر بن يحيى (ت ٥٧١هـ) المهدي بن تومرت الذي اختص بصحبة وبدأ نجم بني حفص بالظهور عندما اشتدت الأخطار التي هاجمت الجانب الشرقي من الدولة الموحدية من قبل الأيوبيين في مصر ممثلاً بغزو قراقوش وبني غانية لذلك عمد الخليفة الموحدي الناصر بن المنصور بن يوسف إلى تجهيز جيش واستعادة تونس ووكل أمر افريقيه لعبد الواحد بن أبي حفص وذلك سنة ٦٠٠هـ/ ١٢٠٤م وبقي يحكم افريقية حتى وفاته سنة ٦١٨هـ/ ١٢٢١م بشكل مطلق. انظر: ابن خلدون، العبر: ٦/ ٥٧٧. ابن أبي الضياف. الإتحاف:١/ ١٩٢.

(٥). أبو زكريا يحيى بن أبي محمد بن عبد الواحد بن أبي حفص (بويع له سنة ٦٣٥/ ١٢٢٨م) (ت ٦٤٧هـ/ ١٢٤٩م). انظر: ابن خلدون. العبر: ٦/ ٥٩٣: ابن أبي الضياف. الإتحاف: ١/١٩٦.

(٦). هو محمد المستنصر بن أبي زكريا (ت ٦٧٥هـ/ ١٢٧٧م) توسعت رقعة الدولة الحفصية في عهده إذ ضمت بني مرين في فاس. وبني عبد الواد في تلمسان وبني نصر في غرناطة، وأقدم على ما لم يقدم عليه والده من إعلانه نفسه خليفه وتلقب بلقب « أمير المؤمنين». ابن خلدون. العبر: ٦/ ٦٢٦. ابن أبي الضياف. الإتحاف: ١/ ٢٠٣.

ملوك المنازلين له من الفرنج[1]، ولم يخرج بنفسه إلى لقائهم وانما اكتفى بإخراج سبعة قواد نازلوهم، ونصبوا محلاتهم بازاء محلاتهم، وليس هذا مما نحن بصدده.

وافريقية اسم الاقليم. وقاعدة الملك بها مدينة تونس[2]، واضيف إليها مملكة بجاية[3]، ومملكة تدلس[4]، يكون طولها خمسة وثلاثون يوماً، وعرضها عشرين يوماً وطولها من تدلس إلى حدود برقة.

وطرابلس أول مدنها مما يلي برقة. وتدلس آخر مدنها مما يلي الغرب الأوسط، وحدها من الجنوب الصحراء الفاصلة بينها وبين بلاد جناوة[5] المسكونة بأمم من السودان ومن الشرق آخر حدود طرابلس وهي داخلة من المحدود ومن الشمال البحر الشامي، ومن الغرب آخر حدود تدلس المجاورة لجزائر بني مزغنة آخر عمالة صاحب بر العدوة وملوكها الآن من بني أبي حفص أحد العشرة أصحاب محمد بن تومرت أصحاب المغرب[6].

---

(١). يشير ابن فضل الله إلى الحملة الصليبية التاسعة بقيادة لويس التاسع التي اتجهت من فرنسا إلى تونس سنة ٦٦٨هـ/ ١٢٦٩م الذي نزل بقرطاجنه. إلا أن الحملة فشلت فشلاً ذريعاً ومات لويس التاسع هناك. انظر ابن أبي الضياف. الإتحاف: ١/ ٢٠٦. جوزيف نسيم. العدوان الصليبي: ٣٦٦-٣٦٧.

(٢). مدينة تونس: عاصمة الجمهورية التونسية، تقع على خط خط عرض ٣٩ ٤٧ ٤٦ شمالاً. وخط طول ٥١ ٧ شرقي جرينتش، واستقر فتح العرب لتونس مع القائد حسان بن النعمان سنة ٧٩هـ/ ٦٩٨م، وحديث العمري الوارد هنا في مملكة افريقيه يمثل الحديث عن تونس الحفصيه إذ كانت تمثل عاصمة الدولة الحفصيه منذ سنة ٦٠٠هـ/ ١٢٠٤م. انظر: دائرة المعارف الإسلامية:٦/ ٣٠، البكري. المسالك: ٢/ ٦٧٥ مجهول، الإستبصار:١٢٠: الحميري. الروض: ١٤٣: القلقشندي، صبح الأعشى: ١٠٢/٥: ابن أبي دينار: المؤنس:١٧.

(٣). مدينة بجاية: مدينة بالجزائر على شاطىء البحر، تابعه لإقليم قسطنطينة،وهو على خط طول ٩ ٥ شرقي جرينتش وخط عرض ٤٩ ٣٦، وأصبحت بجاية عاصمة لدولة بني حماد منذ سنة ٤٨٣هـ/ ١٠٩٠م. إلى أن استولى عليها عبد المؤمن الموحدي سنة ٥٤٦هـ/ ١١٥٢م. فأصبحت عاصمةً للإقليم ثم تبعت للدولة الحفصية بعد قيام الدولة سنة ٦٢٩هـ/١١٩٨م، وجعلها الحفصيون عاصمة لولاية مستقلة تشمل الجزء الأكبر من إقليم قسطنطينة. انظر:دائرة المعارف الإسلامية:٣/ ٣٥٠. البكري. المسالك: ٢/ ٧٥٧: ابن الخطيب. نفاضة الجراب: ٢١٩. الحميري. الروض:٨٠.

(٤). تَدَليس: مدينة على شاطىء الجزائر وعلى مسيرة سبعين ميلاً من مدينة الجزائر وعلى أربعة أميال شرقي مصب نهر سباو وهي على خط عرض ٢٠ ٥٥ وخط طول ٥٠ ٣ شرقي جرينتش، تبعت لدولة بني حماد، ثم انتقلت إلى حكم الموحدين عقب سقوط مملكة بني حماد. واستولى عليها يحيى بن غانيه سنة ٦٢٢هـ/ ١٢٢٦م ثم تنازعها الحفصيون والمرينيونز. انظر: دائرة المعارف الإسلامية:٥/ ٨: الحميري، الروض: ١٣٢: الإدريسي، نزهة المشتاق: ١/ ٢٥٩.

(٥). جناوة: الاسم الذي أطلق على القبائل الوثنية جنوب الأراضي الإسلامية في غرب افريقية والذي سيعرف فيما بعد بغينيا. انظر: بطوطه، الرحلة: ٢/ ١٢١.

(٦). انظر: العمري، التعريف بالمصطلح الشريف: ٣٢. القلقشندي. صبح الأعشى: ٥/ ٩٥.

وحدثني الشيخ العلامة ركن الدين أبو عبدالله محمد بن القويع القرشي التونسي: أنها بلاد خصب تزرع على الأمطار(١)، ومعاملتها من الدراهم نوعان، أحدهما يُسمى القديم. والآخر الجديد ووزنيهما واحد. ولكن نقد الجديد خالص ونقد القديم مغشوش بالنحاس المعاملة، وإذا قيل درهم ولم يميز يراد به العتيق، وتفاوت ما بينه وبين الجديد أن كل عشرة عتق بمثيليه جدد، وفي مصطلحهم أن كل عشرة دراهم من العتق دينار، وهذا الدينار هو دينار مُسمى لا حقيقة أو كالرائج بإيران، والحبشي بمصر(٢).

ورطلها ست عشرة أوقية وزن الأوقية واحد وعشرون درهماً من دراهمها(٣)، والكيل اثنان قفيز(٤) وصحفه(٥)، فأما القفيز فهو ست عشر ويبة(٦) كل ويبة إثنا عشر مُداً قروياً يقارب المد النبوي، وهي ثمانية بالكيل الحفصي، والحفصي هو كيل قرره ملوكها الحفصيون آباء ملوكها الآن، وأما الصَّحفة فهي عشر صحاف كل صحفة اثنا عشر مداً بالحفصي نحو مُد ونصف من المقدم ذكره(٧).

وأوسط الأسعار بها في غالب أوقاتها كل قفيز بخمسين درهماً من العين، والشعير دون ذلك(٨).

والموجود بها من الحبوب: القمح، والشعير، والفول. والعدس، والذرة، والدُّخن، والجُلّبان، والبسله(٩) وتُسمى بافريقيه النسيم، وأما الأرز فمجلوب إليها(١٠).

وبها من الفاكه: العنب والتين كلاهما على أنواع، والرمان الحلو والمز والحامض، والسفرجل، والتفاح، والكمثرى، والعناب، والزعرور، والخوخ أنواع. والمشمش أنواع، والتوت الأبيض والأسود والمسمى بالفرصاد. والعين، والقراسيا. والزيتون، والأترج، والليمون،

---

(١). التيجاني، الرحلة: ٢٣٧.

(٢). قارن بالقلقشندي، صبح الأعشى: ٥/ ١٠٩.

(٣). يذكر هنتس أن كل أوقية تساوي ٢١ درهم = ٣٣٦ درهم أي بما يساوي ١١٠٨.٨ غم. هنتس، المكاييل: ٢٧.

(٤). قفيز: معادل القفيز ١٦ ويبه وكل ويبه حوالي ١٢ مد من أمداد النبي (= ٢٠١.٨٧٧ لتر).هنتس، المكاييل :٦٨.

(٥). صحفة: مكيال مغربي يعادل في فاس ٤٠ صاعاً محلياً أي ما يعادل ٥٠ صاعاً من صيعان النبي = ٢١٠.٢٨ لتر. انظر هنتس، المكاييل:٦٤.

(٦). والويبه تساوي ١٢ مد من أمداد النبي صلى الله عليه وسلم أي حوالي ١٢.٦ لتر. انظر: هنتس، المكاييل :٨٠.

(٧). قارن بالقلقشندي، صبح الأعشى: ٥/ ١٠٩.

(٨). قارن بالقلقشندي، صبح الأعشى: ٥/١١٠.

(٩). البسلا: صنف من الجلبان وهي نوع من أنواع الذرة، ابن بطوطة، الرحلة: ٤/١٩٥.

(١٠). قارن بالقلقشندي، صبح الأعشى: ٥/١٠٧.

والليم، والنارنج، وأما الجوز فقليل. وكذلك النخل، وأما الفستق والبندق فلا يوجد. وكذلك الموز. وبها فاكهة أخرى تسمى مصغ دون الجوزة المقشورة الصغيرة وأكبر من البندقة، يجيء في زمان الشتاء، وطعمه بين الحموضة والقبض شبيه بطعم السفرجل، ولونه بين الحمرة والصفرة، وله نوى وهو يقطف من شجر ثم يُلبس ويثقل ويدفئ كما يعمل بالموز حينئذ ويؤكل(١). قلت: وهذا ذكره ابن وحشية في كتابه الفلاحة النبطية.

وأما قصب السكر فيوجد منه ما قل بها ولا يعتصر، وبها البطيخ الأصفر على أنواع، والبطيخ الأخضر ولكنه قليل ويسمى بها خاصة وبالغرب عامة: الدلاع(٢)، وبها الخيار، والقثاء، وبها اللوبياء واللفت، والباذنجان، والقرنبيط، والكرنب، والبقلة اليمانية. واسمها بليدس، والرجلة، والحض، والهندباء(٣) على أنواع، وسائر البقول، والملوخياء ولكنها قليلة، وبها الهليون، والصعتر، والشمار برية كلها(٤).

وبها الرياحين: الآس، والورد، ومعظمه أبيض، والياسمين. والنرجس. والليتوفر الأصفر، والترنجان(٥)، والمنثور المرزنجوش. والبنفسج، والسوسن، والزعفران. والحبق التَّمَّام(٦).

وبها من الدواب الخيول العراب المشابهة لخيل برقة. والإبل. والبغال. والحمير. والبقر، والغنم والمعز، وبها الأوز ولكن قليل، وأنواع الصيد من الكركي ويسمى عندهم الغرنوق وكذلك الوحش بها الحُمر الوحشية. والبقر، والنعام، والغزال وغير ذلك(٧).

وغالب سعر لحم الضأن كل رطل إفريقي(٨) بدرهم عتيق وبقية اللحوم دونه في القيمة، وفي الربيع يكثر ويرخص غير هذا رخصاً كثيراً والدجاجة الجيدة بدرهمين جديدين

---

(١). القلقشندي. صبح الأعشى: ١٠٧/٥-١٠٨.

(٢). الدلاع: هو البطيخ الأخضر الذي باطنه أحمر ويسمى بالمغرب الدّلاع أو الدّلاح تمييزاً له عن البطيخ الذي باطنه أصفر. انظر: ابن بطوطة: الرحلة : ١١٢/٢ حاشية ٩٢.

(٣). الهندباء: عشب حولي له أوراق جذرية وأزهار زرقاء في مجموعات جالسة على الساق في الأوراق ملتفة حول الساق ويطلق عليه أيضاً مقدوسديس. أنظر: العمري. مسالك الأبصار: ٣٥/٢١.

(٤). قارن بالقلقشندي، صبح الأعشى: ١٠٨/٥.

(٥). الترنجان: ويسمى باذرنجبوية وهو الريحان ومن أسمائه بقلة العنب. ومفرح قلب المحزون وحشيشه السنور. انظر: العمري. مسالك الأبصار: ٤٧/٢١.

(٦). النمام: نبات يشبه الحبق القرنفلي وورقه دقيق. انظر: العمري، مسالك: ١٩١/٢١. وقارن منتوجاتها بما ورد عند القلقشندي. صبح الأعشى: ١٠٨/٥.

(٧). القلقشندي. صبح الأعشى: ١٠٨/٥.

(٨). رطل: الرطل في مدينة مراكش في حوالي سنة ١٥٠٠ كان يساوي ١٢ أوقية كل أوقية ١/٩. ١١ درهم. وهذا يشير إلى أنَّ الرطل المراكشي ٤٤٠ غم. انظر: هنتس. المكاييل: ٣٧٠.

وأحوالها مقاربة للديار المصرية في مثل ذلك لقرب المجاورة[١].

وأما مدنها الكبار فالقاعدة تونس، والمشرقيات على الساحل: سوسه، والمهدية، وصفاقس وقصر زياد، وقابس، والمغربيات على الساحل: بنزرت، وبلد العناب وهي بونه، والقل، وجيجل، وبجاية وتازراوت، وأزفون، وتدلس. وقبلي تونس إلى الجنوب القيروان، وجنوبيها بلاد الجريد، وأمها توزر، وبقربها تقيوس. وهي ثلاث بلاد ذات نخيل وزيتون، وكافة البهاليل بين توزر وتونس على طريق القيروان قفصة ذات نخيل وزيتون وبغربي توزر على نصف يوم منها نقطه، وغربي تونس بعيداً من البحر باجة على يومين منها، وبالقرب خولان على نهر بجرده في جنوبيها بغربي تونس جامه وتبرسق وكسره وبالقرب من ذلك مما يليل الغرب الأربس وشقبناريه، وفي الغرب منها مما يلي الغرب ابه وهي قصور مجتمعة نحو مائة وخمسين قصراً، وبالقرب منها على مسيرة يوم قلعة سنان. وهي قصرٌ لا يعرف على وجه الأرض أحصن منه على رأس جبل منقطع عن سائر الجبال، ليس في رأسها ماء إلا المطر، بها خمس مراحل نقش في حجر، وهو جبل يقصر سهم العقار عن الوصول إليه، ويرتقي إليها من سلم نقر في حجر طوله مائة وتسعون درجة، وبأسفلها قصبة بها عين ماء، وبها فواكه وثمار، ومن عمالتها قسنطينة. وهي بلد كبيرة متحضرة بها غاية الحصانة والمنعة[٢].

فأما تونس فهي قاعدة الملك، وبها مما يليها بجاية قاعدة ملك ثانية. وهي مدينة مسورة في وطاة من الأرض بسفح جبل يعرف بأم عمرو ويستدير بها خندق حصين وثلاثة أرباض كبيرة من جهاتها وأرضها سباخ[٣]، وبها قصبة وهي القلعة في مصطلح المغاربة[٤]، هي سكن السلطان، وجميع بناء تونس بالحجر والآجر مسقوفة بالأخشاب. وتفرش ديار أكابرها بالرخام[٥]، ومنذ خلا الأندلس من أهله وآووا إلى جناح ملوكها مصروا إقليمها، ونوقوا

---

(١). يذكر ابن بطوطة أنَّ أحوال مملكة افريقية أفضل حالاً من أحوال مصر فهو يقول: «إذا تأملت أسعاره مع أسعار ديار مصر والشام ظهر لك الحق في ذلك ولاح فضل بلاد المغرب». ابن بطوطة، الرحلة: ١٩٥/٤. وقارن بالقلقشندي، صبح الأعشى: ١١٠/٥.

(٢). قارن بالقلقشندي، صبح الأعشى: ٩٧/٥ وما بعدها. وانظر حول تلك المدن: الخارطة المرفقة.

(٣). انظر الدولاتي، تونس: ١٠١. ١١٦.

(٤). قصبة تونس: قلعة أسسها عبدالمؤمن سنة ٥٥٤هـ/١١٥٩م وأدخل عليها الحفصيون تعديلات كثيرة بعد أن اتخذوها مقراً رسمياً لهم ومركزاً إدارياً لملكتهم خصوصاً في عهد الأمير أبي زكريا وابنه المستنصر. انظر: الدولاتي، تونس: ٢٦٠.

(٥). قارن بالوزاني، وصف افريقيا: ٤٤٩.

بها الفراش فكثرت متنزهاتها وامتد بسيط بساتينها على بحيرة من البحر الشامي خارجة إلى شرقيها من فم ضيق(١).

قال أبو عبيد البكري(٢): دورها أربعة وعشرون ميلا في وسطها يقال لها شكله لا ساكن بها، وربما يركب إليها السلطان ويقطع في المراكب إليها زمان الربيع ويضرب أخبيته بها ويقيم للتنزه فيها أياماً ثم يعود على أنه لا ماء فيها ولا مرعى ولكن لما تشرف عليه من البساتين المستديرة بتلك البحيرة وما فيها من الجواشق المشرفة، ومنظر البحر.

وبتونس ثلاث مدارس الشماعية، والمعرضية، ومدرسة الهواء(٣)، وبها الحمامات والأسواق الجليلة، ويعمل بها القماش الافريقي وهو ثياب رقاع من القطن والكتان معاً، ومن الكتان وحده. وبها أمتع من النصافي البغدادي وأحسن، وهو أجل كساوي المغرب(٤). وللسلطان بستانان أحدهما ملاصق رباض البلد اسمه رأس الطابية(٥)، والآخر بعيد من البساتين اسمه أبو فهر(٦) بينه وبين البلد نحو ثلاثة أميال، والماس مساق إليهما من ساقية زفوان من جبل بُعده يومان من تونس ويدخل القصبة منه فرع، وليس لأهل تونس شرب إلا من الآبار أشهرها بئر طبيان، وبالبيوت صهاريج تجمع مياه الأمطار لغسل القماش وغير ذلك(٧).

وأما بجاية فهي مدينة قديمة مسورة، أضيف إلى جانبها ربض أدير على سور ضام لنطاق المدينه فصارا به كالشيء الواحد(٨)، والربض في وطاة، والمدينة القديمة المتصلة به في سفح جبل يدخل إليها جون من البحر الشامي يعبر بالمركب إليها، وبها عينان اثنتان من

---

(١). أشار الحميري إلى أن مهاجري الأندلس عندما حلوا في تونس كثر خلقها واتسع بشرها ورغب الناس في سكناها وأحدثوا بها المباني والكروم والبساتين والغروس حتى بلغ ذلك النهاية التي لا توجد في غيرها. انظر: الحميري، الروض:١٤٢، والى أثر الأندلسيين بعامة في تونس. انظر: السامرائي، تاريخ المغرب:٢٦٩ وما بعدها.

(٢). البكري. المسالك: ٦٩٣/٢: «ودور مدينة تونس أربعة وعشرون ألف ذراع» ووقع هنا وهم لابن فضل الله إذ إن الذي ذكره البكري يتعلق بالبحيرة المجاورة لتونس فقال: «وبشرقي مدينة تونس بحيرة كبيرة دورها أربعة وعشرون ميلاً في وسطها جزيرة تسمى شكله» انظر: ٦٩٥/٢.

(٣). انظر عنها: دائرة المعارف الإسلامية: ٣٥/٦-٣٦: الدولاتي. تونس: ١٩٣.

(٤). الوزاني. وصف افريقية: ٤٤٧.

(٥). رأس الطابية: جنان سلطانية شيدها أبو زيد عبد الواحد الموحدي سنة ٦٢٣هـ/١٢٢٦م ثم وسعت وزخرفت من قبل ملوك الحفصيين. ولم يبق منها الآن شيء سوى الاسم. الدولاتي. تونس: ٢٥٩.

(٦). أبو فهر: حدائق ورياض سلطانية في منطقة سكره (شمال تونس) لم يبق منها إلا بقايا حوض كبير. انظر: الدولاتي. تونس: ٢٥٧.

(٧). قارن بالوزاني. وصف افريقيه: ٤٤٩.

(٨). قارن بالقلقشندي، صبح الأعشى: ٥/ ١٠٤. وانظر الوزاني. وصف افريقيه: ٤٢٢.

الماء إحداهما كبيرة منها شرب أهل البلد ولها نهر جارٍ على نحو ميلين منها، تحف به البساتين ليس إلا أن يصب في البحر الشامي وبضفتيه بستانان للسلطان متقابلان شرقاً وغرباً الشرقي يُسمى الرفيع ويُسمى الغربي البديع هما مكان فرجته ومحل نزهته[١]. وفيهما يقول محمد بن محمد المكودي القابسي بديهاً حين رآهما:

هذا البديع كما رأيت بديع | وكذا الرفيع كما عهدت رفيع
هذه معاهد كلها معشوقة | والحسن فيها كله مجموع

وهي ثانية تونس في الرتبة والحال، وجميع المعاملات والموجودات والأحوال. ولبجاية حصانة عظيمة ومنعة ولها رفق كثير بمدخل السفن إليها من البحر.

وبقية مدن إفريقية جميعها ممنعة ممدنة ذوات جوامع ومساجد وحمامات وطواحين وأسواق وديارات سرية لكنها عاطلة من حلي البر والمعروف. لا يكاد يوجد بها مدرسة ولا خانقاه ولا زاوية ولا رباط ولا مارستان إلاّ فاس ومراكش وإن لم يبلغا أدنى رتب امثالها ولا تعلقا بأذيالهما على أن الذي بمراكش أجود، وسيأتي ذكرهما في موضعه.

وحدثني أقضى القضاة أبو الروح عيسى الزواوي: أنَّ أبواب ملوك افريقيه كبيرة. فإذا جلس سلطانها جلس حوله ثلاثة للرأي والمشورة، ويجلس دونهم عشرة من أكابر أشياخه. وقد يكون هؤلاء الثلاثة من العشرة المذكورين وبعد هؤلاء خمسون نفراً فإذا أمر السلطان بأمر بلغه وزير الجند لآخر واقف وراءه وبلغه الآخر الأخر، وبلغه الآخر لآخر إلى أن يسمع الأمر السلطاني من خارج الباب لنقل أناس كما ذكرنا، ويقف جماعة تُسمى الوقافين بأيديهم السيوف حوله وهم دون الخمسين المذكورين في الرتبة[٢].

وأما ركوبه إلى صلاة العيدين أو إلى سفرٍ فهو على ما يذكر: يركب السلطان ويمشي إلى جانبه رجلان مقلدان سيفين، رجاله إلى جانبه، يمسك أحدهما بركابه اليمين، والآخر بركابه اليسار ويليهما جماعة رجاله من أكابر دولته مثل الثلاثة أصحاب الرأي، والعشرة الذين يلونهم ومن يجري هذا المجرى من أعيان الجند. وتسمى هذه الجماعة ابربان يمشون حوله بالسيف وبأيديهم عكاكيز، قال الزواوي: وربما مشى في هؤلاء قاضي

---

(١). قارن بالقلقشندي، صبح الأعشى: ٥/١٠٤. وانظر الوزاني. وصف افريقية: ٤٢٢.

(٢). قارن بالقلقشندي، صبح الأعشى: ٥/١٤٠.

الجماعة، وهو عندهم قاضي القضاة، وقدام هؤلاء المشائين، نفر كثير من الموجودين أقارب السلطان بسيوف ومزاريق، أو يسمون بالمشائين وقدامهم جماعة جفاوة لبس جباب بيض مقلدين بالسيوف بأيديهم هذه الحراب، وقدامهم عبيد المخزن وهو اسم لعوام البلد، ينادي فيهم ليلة العيد أو ركوب السلطان لسفر فيخرج أهل كل صناعة ويبيت بظاهر البلد، فإذا أصبح مشوا قدام جفاوة وبأيديهم الدرق والسيوف، ومعهم العلم الأبيض المسمى عندهم العلم المنصور محمولاً بيد فارس، وعلى يمين السلطان فارس وعلى يساره فارس هما من أكابر أشياخه من العشرة المقدم ذكره. وخلف السلطان فارس إليه أمور الأعلام والصناجق يقال له صاحب العلامات مثل أمير علم، ووراءه أعلام القبائل ولكل قبيلة في علمها ما تمتاز به من الكتابة، والكتابة مثل: «لا إله إلا الله» أو «الملك لله» أو منا يناسبهما ووراء الأعلام الطبول والبوقات وأصحاب النفير وخلفهم فرسان يعرفون بـ محركي الساقة، بأيديهم عصى يرتبون الناس وهؤلاء هم بمنزلة النقباء، وخلف هؤلاء العسكر والجند والفارس الذي على يمين السلطان إليه أمر دق الطبول يقول دق فلان باسم كبير الطبالة ويخرج السلطان لصلاة العيدين من طريق ويعود من أخرى(1)، وهذا هو زي ملوك هذه المملكة وترتيبهم في الخروج للعيدين والأسفار لا يزال من حول السلطان ممن ذكرنا أنهم يمشون بقدرٍ ساعة ثم يركبون، ويطيف بالسلطان جماعة يقرأون حزباً من القرآن الكريم، ثم يقف السلطان ويدعو ويؤمن وزير الجند على دعائه، ويؤمِّن الناس على تأمينه، ويجد السلطان والناس السير. فإذا كانوا في فضاءٍ كان مشيهم على هذا الترتيب إلاّ أن السلطان لا يتقدم عليه جنده، فإذا قربوا من المنزلة وقف السلطان ودعا وأُمِّن على دعائه كما تقدم(2).

وأعلام هذا السلطان الذي تُحمل له سبعة أعلام: التي تحمل وراءه، الأوسط أبيض، وإلى جانبه أحمر وأصفر وأخضر. قال العلامة أبو عبدالله محمد بن القويع: ولا أتحقق كيف ترتيبها(3). وقد ذكر ابن سعيد: أن شعار سلطان افريقية يوم الجمعة لا يجتمع بأحد بل يخرج عندما ينادي المنادي، ويشق رحبة قصره ما بين خواص من المماليك الأتراك فعندما يعاينونه ينادون «سلام عليكم» نداءً عالياً من صوت واحد يسمعه من يكون بالمسجد الجامع

---

(1). قارن بالقلقشندي، صبح الأعشى: 5/141-142، وانظر ما قدمه ابن بطوطة، الرحلة: 1/168-169 حول هذا الموضوع.

(2). قارن بالقلقشندي، صبح الأعشى: 5/142.

(3). قارن بالقلقشندي، صبح الأعشى: 5/138.

ثم يتقدمه وزير الجند بين يديه في ساباط يُخْرَج هناك للجامع عليه باب مذهب سلطاني والوزير لا يخرج معه من هذا الباب بل يسبق فيفتح الباب ويخرج السلطان منه وحده، ويقوم له جماعة الوقافين من أعيان الدولة ولا يقوم له في الجامع غيرهم وليس له مقصورة مخصوصة فإذا انفصل عن الصلاة قعد في قبة كبيرة له في صدر الرحبة وحضر عنده أقاربه، ثم يدخل قصره[1].

قال: وربما خرج إلى بستان له من أعظم ما تهممت ببنيانه الملوك واحتفلت بغرسه السلاطين، ويخرج في نحو مائتي فارس من شباب أرباب دولته، يعرفون بالصبيان يوصلونه إلى البستان ويرجعون ويبقى وزراؤه نواباً له وهم ثلاثة: وزير الجند، وهو بمنزلة الحاجب بمصر، ووزير المال وهو المسمى صاحب الأشغال، ووزير الفضل وهو كاتب السر ومهما تجدد عند كل واحد منهم أمر يطالبه بالمكاتبات فيما يتعلق بشغله المنوط به ويجاوبهم بما يراه[2].

قلت: وركوبه إلى البستان في زقاق من قصبته إلى البستان محجوب الحيطان لا يراه فيه أحد والمشهور أن سلطانها الآن قليل الركوب فإذا ركب إلى هذا البستان لا يكون معه إلا جواريه وخدمه[3].

قال ابن سعيد: ويوم السبت مخصوص عنده لا يقعد في القبة الكبيرة يعني بقصبته، ويحضر عنده أعيان دولته وأقاربه والأشياخ، والجانب الأيمن لأقاربه والأيسر للأشياخ، وبين يديه وزير الجند ووزير المال وصاحب الشرطة والمحتسب وصاحب كتب المظالم. قلت: هو الموقع على القصص، قال: ويقرأ -يعني قصص المظالم- الكاتب المعين بما وقع إليه ويرد إلى وظيفة القصة المتعلقة بوظيفته وينفذ الباقي[4].

قلت: والمشهور على ألسنة التونسيين أن سلطانهم الآن كثير الاحتجاب بخلاف جميع سلفه قليل الاعتناء بالنظر في مصالح أهل دولته ورعاياه، مقتصر على لذاته مع ما هو عليه من الشجاعة والإقدام وإباء النفس.

---

(١). قارن بالقلقشندي، صبح الأعشى: ٥/ ١٤٠.

(٢). قارن بالقلقشندي، صبح الأعشى: ٥/ ١٤٢.

(٣). قارن بالقلقشندي، صبح الأعشى: ٥/ ١٤٣.

(٤). قارن بالقلقشندي، صبح الأعشى: ٥/ ١٤٠.

ويُحكى عنه في أوائل طلبه للملك ومنازعة الثوار ما أقرت له به الأبطال وقرت بزلزلته الجبال ويدل على قوله فعله وعلى فعله قوله:

انظر إلينا ترانا ما بنا دهش ... وكيف يطرق أسد الغابة الدهش
لا تعرف الحادث المرهوب أنفسنا ... فإننا بارتكاب الموت ننتعش
من كف ظبي سقاني من مدامته ... لنرتوي عطشاً فازدادني العطش
كأن وجنتها من جمرة شفق ... وشعرها غسق بالجسم مفترش
فالقوس حاجبها والسهم مقلتها ... وإن فررت فإن السالف الحكش(1)

فانظر ما نطق به أول هذه الأبيات من إقدامه ثم ما جذبته إليه دواعي النفس من ذكر حبيبه ومدامه.

وأما ما هو ممحض بوصف شجاعته وجلده فهو قوله:

مواطننا في دهرهن عجائب ... وأزماننا لم تعد عنها الغرائب
مواطن لم تحك التواريخ مثلها ... ولا حدثت عنها الليالي الذواهب(2)

وأدل ما فيها على فعله قوله في الاعتذار عن هزيمة لاقى بها كل عظيمة:

ومن قاتل الصفين وامتاز مانعاً ... وقد نهلت منه الظبي وهو غالب

قال هذه الأبيات التي هي من قصيدة طويلة عقيب وقعة جرت بينه(3) وبين قواد السلطان أبي تاشفين عبدالرحمن صاحب تلمسان قريب قلعة سنان، وثبت لملاقاة عدوه ثباتاً كثيراً وقد انهزم كل جنده حتى جرح ثلاث جراحات، وأخذ له ولدان من أولاده وحظاياه، فقال هذه الأبيات ومدح في آخرها سلطان المغرب وذكر فيها بعثه ولده أبا زكريا في البحر لاستنجاده فمد له للمساعدة ساعداه وسدد لأعدائه سهماً قاصداً، ولما أُخذت أولاده صبا إليهم واشتاقهم وقال يتسلى بعدهم وفراقهم:

---

(1). البيتان الأول والثاني في القلقشندي. صبح الأعشى: ٥/١١١.

(2). الشعر في القلقشندي. صبح الأعشى: ٥/١١٠.

(3). المقصود بها واقعة الرياس التي حدثت سنة ٧٢٧هـ. انظر: ابن خلدون، العبر: ٦/٣٤٣.

طمت في دموعي للفراق بحور	وأجج ما بين الضلوع سعير
وفارقت قلبي يوم فارقت صبيتي	فلله أحياء خلت وقصور
وقلت له يا قلبُ صبراً فقال لي حنانـ	ـيك إني نحوهن أسير
عسى الله يدني للمحبين أوبة	فتشفى قلوب منهم وصدور
وكم من قضى الدار أمسى بحزنه	فاعقبته عند الصباح سرور(1)

ثم لجأ إلى بلد العناب، ثم إلى بجاية وبعث ولده كما ذكر إلى أبي سعيد عثمان والد سلطانها الآن يستصرخ به فطلع إلى قريب تلمسان لنصرته ثم رد لمرض عرض له وأوصى ولده السلطان أبا الحسن الآتي ذكره في ذكر بر العدوه بإتمام ما بدأ به من نجدتهم. ثم أن صاحب افريقية بعث الشيخ العارف أبا الهادي إلى صاحب تلسمان فأعاد عليه ابنيه أحمد وعمر ومربيته لاعب، وأما الحظايا فأبت له نفسه استردادهن. وهذه الواقعة من الأسباب في أخذ صاحب بر العدوة لتلمسان، وسيأتي هذا في مكانه. وهذه فائدة جاءت عرضاً في هذا التأليف، وإن لم تكن من شأنه.

ونعود إلى ما كنا فيه من ذكر قصص الظلامات. قال ابن سعيد: والذي يتولى إبلاغ الظلامات إلى هذا السلطان يُسمى صاحب الرقاعات يأخذ برآت المتظلمين أي قصصهم ويعرضها ويخرّج بجوابها، قلت: وهذا هو بمثابة الدوادار(2).

قال ابن سعيد في المغرب(3)، وقال العلاّمه أبو عبد الله بن القويع فيما حدثني به: أن هذا السلطان لا يُعَلِّم على شيء يُكتب عنه، وإنما يُعلِّم عنه صاحب العلاَّمة الكبير. قال ابن القويع: وفي الغالب يكون صاحب العلاَّمة الكبرى كاتب السر، وهذا في الأمور الكبار، والعلاَّمه: «الحمد لله والشكر لله»، وأما ما دون هذا فإنما تكون الكتابة فيه عن وزير الجند يكتب عليه صاحب العلاَّمة الصغرى اسم وزير الجند، ومن خاصية كتب هذا السلطان أن يكتب في ورق أصفر، وأما ما يكتب عن وزير الجند ففي غير أصفر ومن عادة المغاربة كلهم أن لا تطول كتبهم، ولا تبعد بين سطورهم كما جرت بها العادة في مصر والشام وإيران(4).

(1). البيتان الأخيران في القلقشندي، صبح الأعشى: ١١١/٥.

(2). انظر القلقشندي. صبح الأعشى: ١٣٥/٥.

(3). الإشارة هنا إلى قسم افريقيا والمغرب من كتاب ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب. وهذا القسم من الأقسام المفقودة من الكتاب.

(4). قارن بالقلقشندي. صبح الأعشى: ١٤٣/٥.

وسألت الإمام أبا عبدالله بن القويع عن طبقات الجند في هذه المملكة ومبلغ أرزاقهم في ديوانه فقال: هؤلاء على ما قرره لهم المهدي[1] يعني مهديهم محمد بن تومرت هكذا[2]، كان عبدالمؤمن وأبناؤه لما كان المغرب ليس لهم أمراء ولا أتباع يطلب بعدتهم كعدة الأمراء بمصر وإنما فيه أشياخ من أعيانهم لا عدة لهم ولا جند ولا المرء منهم إلا بنفسه، وإنما هم أعيان الجماعة ممن يحضر عند سلطانهم الرأي والمشورة. قلت: وقد تقدم القول عليهم[3].

قال: ولكل طائفة مزوار وهو كبير لهم يتولى النظر في أحوالهم. وأما الجند فهم من الموحدين والأندلسيين ومن قبائل العرب وقليل ممن هرب وأقام عندهم من مصر والفرنج هم خاصة السلطان يقال لهم العلوج، لا يطمئن إلا إليهم. واما أرزاقهم فإن أعظم بركاتهم يعني أرزاقهم التي بمعنى الإقطاعات بمصر وهو لجماعة الموحدين. والسلطان يأخذ معهم كواحد معهم سواء بسواء وهذه البركات تفرق أربع مرات في كل سنة في عيد الفطر تفرقه، وفي عيد الأضحى تفرقه، وفي ربيع الأول المبارك تفرقه، وفي رجب تفرقه، ولا يصيب كل واحد من الموحدين في كل تفرقه من هذه التفرقات الأربع إلا أربعون ديناراً المسماة فتكون بثلاث مائة درهم عتيقه، والأكابر هؤلاء مع هذه التفرقات أراضٍ مطلقة تحرث وتزرع لهم أو تحكر ويكون لهم عشر ما يطلع منها[4].

قال القاضي أبو القاسم بن بنون: طبقات الجند بافريقيه أشياخ كبار وأشياخ صغار ثم الوقافون ثم عامة الجند، فأما البركات فهي ما ذكر، وأما مقدار ما لكل واحد فحرث عشرة

---

(1). محمد بن تومرت واسمه محمد بن عبدالله من قبيلة هرغة من مصمودة. ولد في الربع الأخير من القرن الخامس الهجري رحل إلى الأندلس والمشرق لتلقي العلم وعاد بحراً من بحوره. وأخذ يدعو للأمر بالمعروف. والتقى بعبد المؤمن بن علي القيسي وأخذ يدعو للخروج على الدولة المرابطيه والتف حوله الأتباع الموحدين واستقر في مدينة تينملل وتلقب بالمهدي وتوفي سنة ٥٢٤هـ/ ١١٣٠م وخلفه عبد المؤمن في زعامة الموحدين. انظر: المراكشي. المعجب:٤٥-٦٦ عنان. تراجم إسلاميه: ٢٣٣-٢٥٤.

(2). رتب محمد بن تومرت أنصاره على طبقات حسب إخلاصهم له وحاول الإقتداء برسول الله ﷺ واعتبر عاصمته تينملل داراً للهجرة. وقسم أصحابه إلى طائفتين كأنهم «المهاجرين والأنصار» من الصحابة. وأصحاب محمد بن تومرت الأوائل هم طبقة العشرة. وهم أول من بايعه وآمن بأنه المهدي المنتظر والأنصار هم طبقة الخمسين وهم الطبقة الثانية من أتباعه ومن ثم طبقة السبعين. وبعدها طبقة الطلبة وطبقة الحفاظ وطبقة أهل الدار. أما الطبقات الأخرى من السابعة إلى الثالثة عشرة فهي طبقات القبائل. انظر: السامرائي. تاريخ المغرب: ٢٨٧.

(3). قارن بالقلقشندي. صبح الأعشى: ٥/ ١٢٣.

(4). قارن بالقلقشندي. صبح الأعشى: ٥/ ١٢٦.

أزواج بقراً والزوج هو محرث أربع من البقر لأن الزوج بشعبتين، والشعبه رأسان من البقر. قلت: وهذه الشعبة هي المسماة في بلد دمشق بالفدان. فتكون جملة ما لكل واحد من أهل هذه الطبقة العاليه في كل سنة مائة وعشرون ديناراً أسماه عنها ألف ومائتا درهم مغربية عنها من تفضيل مصر والشام ستمائة وخمسة وسبعين درهماً وما يتحصل من مغل عشرون فداناً لعله لا يكون بأكثر من مثلها فيكون تقدير جملة ما لهذا الرجل الكبير في الدولة في كل سنة ألف وثلاثمائة وعشرة دراهم، وهذا بمنزلة أحد الأمراء الألوف بمصر والشام والنوين أمير التومان بإيران(١). قال: وأما الأشياخ الصغار فلهم مع ذلك البركات لكل محرث خمسة أزواج من البقر.

قال: ولعامة الأشياخ الكبار والصغار والوقافين والجند، شيء آخر يفرقه السلطان عليهم يُسمى: المواساة، وشيء آخر يُسمى: الإحسان. فأما المواساة: فهي غلة تفرق عليهم عند تحصيل الغلات التي تتحصل في المخازن. وأما الإحسان: فمبلغ يفرق عليهم، وكلاهما من السنة إلى السنة.

قال: وهذه المواساة والإحسان ليست بمضبوطة بقدر مخصوص. بل على قدر ما يراه السلطان وبحسب أقدار الناس، وإنما هو شيء يجمل الجميع وتتفاوت مقدار العطايا بينهم(٢). قال: وأما القبائل ومزاويرهم فمما يناسب هذا ولكني لا أحرره، قال ابن القويع: والجند الغرباء يتميزون في العطيات على الموحدين(٣).

وسألته عن حقيقة معنى الوقافين ما هم؟ فقال: هؤلاء لهم خاصية بالسلطان يسكنون معه في القصبة يعني القلعة، وهم طبقتان. وقافين صغار هؤلاء كلهم يقفون بين يديه في أوقات جلوسه، إذا جلس للناس وهم بمنزلة الأمراء الخاصكيه بمصر(٤).

وقال لي القاضي ابن بنون: أن سلاطين أفريقيه ليس يخلعون من يولونه وظيفة مثل ما يعمل في مصر، وإنما إذا أرادوا أن يخلعوا على أحدٍ لأمر ما يكسونه. والكسوة هو قماش يُعطى للإنسان تفاصيل غير مفصله يتصرف فيها كيف أراد(٥).

---

(١). قارن بالقلقشندي. صبح الأعشى: ٥/ ١٣٦.

(٢). قارن بالقلقشندي. صبح الأعشى: ١٣٦/٥.

(٣). القلقشندي. صبح الأعشى: ١٣٧/٥.

(٤). القلقشندي. صبح الأعشى: ٥/ ١٣٤.

(٥). القلقشندي. صبح الأعشى: ١٤٤/٥.

وسألت الإمام أبا عبدالله بن القويع عن أرزاق القضاة والوزراء والكتاب؟ فقال: ليست بطائلة. وأما وزيرالجند فهو مثل واحدٍ من الأشياخ. قال ابن بنون: ومبلغ ما لقاضي الجماعة فهو خمسة عشر ديناراً مسماة في كل شهر، وكان له معها عليق لبغلته فقطع العليق، وما أعرف غير هذا وعلى هذا فقس(١).

وسألت ابن القويع عن أرباب الوظائف، ما هم؟ فقال: شيخ الموحدين كأنه نائب ويُسمى الشيخ المعظم وهو يتولى عرض الموحدين وأمورهم، وأما الوزير: فَلَيْس له كثير أمر ولا وضع ولا لسائر الوظائف إلا الأسماء(٢).

قال أبو عبدالله بن القويع: وعدة العسكر لعلها لا تبلغ عشرة آلاف فارس، وأما العرب أهل البادية فعدد جم ولهم إقطاعات كثيرة وشوكتهم قوية. ومنهم من يخرج مع السلطان، إذا استدعاهم القائم بسلطنتها الآن. فأما ما قبله، فقل ما كان يسكن شغبهم أو يسكت أبيَّهم لانتظام أمر هذا السلطان وما طبع عليه من الشجاعة ولاعتضاده بالسلطان أبي الحسن المريني صاحب بر العدوة منذ تزوج ابنته أبو الحسن فثبت بنيانه، ونفذ أمر سلطانه، وسيأتي ذكره في موضعه بما فيه دلالة.

وأما زي صاحب افريقية القائم الآن في لبسه فهو عمامة ليست بمفرطة في الكبر بحنك وعذبة صغيرة وجباب، ولا يلبس ولا عامة أشياخه وجنده خفاً إلا في السفر، وغالب لبسه ولبس أكابر أشياخه من قماش يسمى السّفْساري يُعمل عندهم من حرير وقُطن أو حرير وصوف إمَّا أبيض أو أحمر أو أخضر، وقماش يعرف بالحريري وهو صوف رفيع جداً، وقماش يعرف بالتلمساني مما يعمل بتلمسان، وهو نوعان مختم وغير مختم، منها صوف خالص ومنها صوف وحرير(٣).

قال ابن بنون: والسلطان يمتاز بلبس الخز ولونه لون الخضرة والسواد. قال: وهذا اللون هو المسمى بالجوزي وبالغبار وبالنفطي. قال ابن سعيد: وهو مما يخرج من البحر بصفاقس المغرب وأنا رأيته كيف يخرج، يغوص الغواصوة، في البحر فيخرجون كمائم شبيه بالبصل باعناق. في أعلاها زوبرة، فتنشر في الشمس فتتفتح تلك الكمائم الشبيهة بالبصل عن وبر فيسمط ويخرج صفوه ويغزل ويعمل منه طعمه لقيَّام حرير، وينسج منه ثياب مختمة وغير

---

(١). القلقشندي، صبح الأعشى: ١٣٦/٥.

(٢). القلقشندي، صبح الأعشى: ٥/ ١٢٤.

(٣). القلقشندي، صبح الأعشى: ١٢٧/٥.

مختمة، وهو أفخر ثياب السلطنة بتونس، ويبلغ ثمن الثوب مائتي دينار من دنانيرهم المسماة، فيكون ألف درهم من نقد مصر والشام[١].

قلت: وقد رأيت من هذا القماش على بعض أكابر الكتاب بدمشق ثم رأيته على بعض سفلة الكتاب بمصر وهو المسمى بمصر والشام بوبر السمك[٢].

وأما لبس الاشياخ والدواوين والوقاقين والجند والقضاة والوزراء والكتاب وعامة الناس، فعلى زي واحد لا يكاد يتفاوت. العمائم والجباب، ولا يمتاز الأشياخ والوقافون والجند إلا بشيء واحد لا يكاد يظهر ولا يبين وهو صغر العمائم وضيق القماش، ولباس أهل افريقية من الجوخ ومن الثياب الصوف. ومن الأكسية ومن الثياب القطن. فمن لبس غير هذا كان مما يجلب من طرائف الاسكندرية والعراق كان نادراً شاذاً[٣].

قلت: وقد ذكر ابن سعيد في المغرب، جملة من ترتيب سلاطين أفريقية زمان سلطانها عبدالواحد بن أبي حفص[٤] مما أذكره هنا لأنه ليس بالعهد من قدم، والسلطان القائم الآن من أبناء ذلك السلطان، ولو تغيرت الأحوال ما تغيرت، ما زالت بالجملة فلهذا نذكر ما ذكره ابن سعيد. قال، وقد ذكر عبدالواحد ابن أبي حفص، ما معناه أنه: كان يجلس في يوم السبت[٥] لمطالعة ما يُقرأ عليه من قصص المتظلمين والسائلين حتى من شكا فيه الغربة، ساءل عنه فإن كان مشكور السيرة، أطلق له الصداق، وأجرى عليه رزقاً. وذكر في ترجمة ولده أبي زكريا ابن عبدالواحد[٦]: أنه يلبس الثياب الصوف الرفيعة، ذوات الألوان البديعة، وأكثر ما يلبس المختم الممتزج من الحرير والصوف، وكمّاه طويلان من غير كثرة طول، ضيقتان من غير أن يكونا مزندان، وثيابه دون شد وطاق إلا أن يكون في الحرب. فإنه يشد المنطقة، ويلبس الأقبية، وله طيلسان من صوف، في غاية اللطافة، كأنه شرب يتردى به ولا يضعه على رأسه، وله عمامة كبيرة من صوف أو كتان، وفيها طراز من حرير ولا يعمم أحد

---

(١). القلقشندي، صبح الأعشى: ٥/١٢٧-١٢٨.

(٢). القلقشندي، صبح الأعشى: ٥/١٢٨.

(٣). القلقشندي، صبح الأعشى: ٥/١٢٨.

(٤). أبو محمد عبدالواحد ابن الشيخ أبي حفص (٦٠٣-٦١٨هـ/١٢٠٧-١٢٢١م) كان حبراً فاضلاً عالماً ذكياً. انظر: ابن أبي الضياف، اتحاف: ١/١٥٢.

(٥). ابن أبي الضياف: «كان يجلس يوم السبت من كل أسبوع للنظر في مصالح الناس، محتسباً على الولاة. لا قاضياً في الخصومات»: اتحاف: ٢/٥٠.

(٦). أبو زكريا يحيى بن أبي محمد عبدالواحد بن حفص (٦٢٥-٦٤٧هـ/١٢٢٨-١٢٤٩م). انظر: ابن أبي الضياف. اتحاف: ١/١٥٤.

ن مثل دولته على قدرها في الكبر، قد اختصت به وبأقاربه وليس له أخفاف في الحاضرة
كنه يلبسها في السفر، وله عذبة خلف اذنه اليسرى، وهذه العذبة مخصوصة به وبأقاربه،
جند مختلفو الأجناس فمنه الموحدون الذين أسسوا له دولته يعني من أصحاب مهديهم
ن تومرت.

قال: ومن قبائل زناتة المنضافين إليهم أصناف مشهورون بالفروسية، وجموع من الغز
قدماء الذين هاجروا إلى المغرب في مدة بني عبدالمؤمن نحو ألف فارس من المماليك
ترك ابتيعوا له من مصر وجميع الجموع من الأندلس والغرب.

وقاعدته في مدينة مملكته يعني تونس أنه يخرج كل يوم إلى موضع يعرف بالمدرسة(١)،
يبعث خادماً صغيراً يستدعي وزير الجند من موضعه المعين له، فيدخل عليه رافعاً صوته
سلام عليكم من بُعْد منْ غير أن يومي برأسه ولا يقوم له السلطان، ويجلس بين يديه،
يسأله السلطان عما يتعلق بأمور الجنود والحروب، ويأمره باستدعاء من يريده من أشياخ
جند أو العرب أو من له تعلق بوزير الجند، ثم يأمر باستدعاء وزير المال وهو المعروف
صاحب الأشغال فيأتي معه، ويُسلمان جميعاً من بُعْد على السلطان، وإن كان قد تقدم
سلام وزير الجند ولكنه عادة الدخول إليه فيتقدم وزير المال إلى بين يدين السلطان ويتأخر
زير الجند إلى مكان لا يسمع فيه حديثهما، ثم يخرج وزير المال ويستدعي من يتعلق به، ثم
حضر صاحب الطعام بطعام الجند ويعرضه على وزيرهم لئلا يكون فيه تقصير، ثم يقوم
سلطان من المدرسة، إلى موضع مخصوص. ويستدعي وزير الفضل يعني كاتب السر،
يسأله عن الكتب الواردة من البلاد، وعما تحتاج إليه خزانة الكتب، وعما تجدد في
حضرة وفي البلاد، مما يتعلق بأرباب العلم وسائر الفنون الفضل والقضاة، ويأمره
ستدعاء من يخصه من الكتاب ويملي عليهم وزير الفضل ما أمر بكتابته، ويعلم عليه وزير
فضل بخطه، والعلامة هي أن يكتب بعد: بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على نبيه
محمد وآله، اسم السلطان.

وفي ذلك المجلس يستدعي السلطان من شاء من العلماء والفضلاء يتحاضرون محاضرة
خفيفة، وإن كان وزير الفضل قد رفع قصيدة لشاعر وافد أو مرتب في معنى استجد، أمر

---

(١) المدرسة: ربما هي المدرسة الشماعية التي سبق أن أشار إليها ابن فضل الله، وهي أول مدرسة أسست في الشمال الافريقي على يد أبي زكريا الحفصي في سوق الشماعين. وما زالت تحتفظ بعمارتها إلى الآن. انظر: الدولاتي، تونس: ٢٧١.

السلطان بقرآتها عليه إن لم يأمر بحضور الشاعر وينشدها قائماً أو قاعداً على ما يؤهل له ويتكلم السلطان مع وزير الفضل ومن يحضر في ذلك، ويوقع على كل قصيدة بما يراه[1].

قال ابن سعيد: وقواعد الشعراء أن ينشدوا بين يديه في الأعياد، والخروج إلى الأسفار أو القدوم منها.

قلت: ومواضع مما ذكره ابن سعيد قد تقدم شيء منه وانما ذكرناه هنا لاتصاله شيئاً بشيء، وليؤكد بعضه بعضاً، ولنعلم في بعض ما بينها مقدار التفاوت مما تغير مع قرب الزمان واقتفاء الولد لآثار الوالد وكيف يكون مقدار التفاوت في مدة يغير بدخول دول الأعداء بعد الأعداء وبعد الزمان.

قلت: وهؤلاء ملوك الموحدين لم يزالوا منذ ملكوا ممدحين تصغي إلى المديح مسامعهم، وتهتز به أنديتهم ومجامعهم، ومنهم من له النظم الفائق والنثر الفائت.

ولأهل افريقية لطف أخلاق وشمائل. بالنسبة إلى أهل بر العدوة وسائر بلاد المغرب، وما ذاك إلا بمجاورتهم لمصر وقربهم من أهلها ومخالطتهم لهم، ولمن سكنها من أهل اشبيلية، وهم من هم خفة روح وحلاوة نادرة، وهم على كل حال أهل انطباع وكرم طباع وسأذكر لهم عنوان قولهم[2].

وأما اتصال الأخبار بين السلطان ونوابه فإنه إذا كتب الكتاب يجهز مع من يقع الاختيار على تجهيزه من نوع النقباء أو الوصفان وهم عبيد السلطان ويركب ذلك المجهز على بغل إما أن يكون ملكاً له أو يستعيره من أصحابه ويسافر عليه إلى الجهة المجهز إليها فإذا أعيا بغله في مكان تركه عند الوالي بذلك المكان، وأخذ منه بغلاً عوضه يعيره الوالي له أو يسخره من الرعايا لركوبه إلى أن يبلغ جهة قصده إلى أن يعود. ووالي المدينة هو المسمى عندهم بالحافظ والمحتسب بها فإذا تجدد عندهم أمر أعلموا به وزير الجند[3].

ومن عجائب إفريقية ما حدثني به القاضي أبو الروح عيسى الزواوي وأبو عبدالله السلالجي، قال: إن بين توزر قاعدة بلاد الجريد[4] وبين بشرى[5] من بلاد نفزاوة

(١). قارن بالقلقشندي. صبح الأعشى: ٥/١٣٩.

(٢). قارن بالقلقشندي. صبح الأعشى: ٥/١١٠.

(٣). قارن بالقلقشندي. صبح الأعشى: ٥/١٤٣.

(٤). بلاد الجريد: سميت بذلك لكثرة النخيل بها. وهي بلاد واسعة وعمائر متصلة. كثيرة الخصب والفواكه وجميع الخيرات. وبها عيون وأنهار كثيرة. تبدأ من جهة الساحل في مدينة قابس إلى آخر بلاد افريقية على طرف الصحراء. مجهول. الاستبصار: ١٥٠.

(٥). بشرى: من مدن نفزاوة وهي مدينة مسورة قديمة، لها غابة كبيرة، وهي كثيرة النخل والزيتون والفواكه. انظر: مجهول. الاستبصار: ١٥٧: الحميري. الروض المعطار: ١١٤.

سبخة[1] عظيمة آخذة في الجنوب إلى الصحراء المجهولة المسالك في وسط هذه السبخة مع طرفها الشمالي طريق سائكة للمارة يسلكها من يطلب السرعة لقريب مداها مع المخاطرة في سلوكها لأنها طريق قليلة العرض، ضربها الله طريقاً يبساً في وسط تلك السبخة، من خرجت رجله عنها ولو قيد شبر واحد نزلت به قدمه وهوى في تلك السبخة وغاص فيها إلى ان يذهب فلا يبين له أثر، ولا يعرف له خبر ورفيقه إلى جانبه يراه وهو نازل ولا يقدر ينفعه بشيء ولا يمد يده إليه خوفاً أن يغوص معه، وهي مهلك عظيم سباخ من ملح لا ماء فيه كم خرج فيها عن تلك الجادة إنسان وفرس وجمل فهلك. قالا: وعلى جنبتي هذه الطريق أعلام منصوبة من الخشب يمنة ويسرة والطريق بينهما، ولولاهما لهلكت المارة من الجهال بها.

قال السلالجي: وسمعت أن هذه الأعلام نصبها هناك أبو إبراهيم إسحاق بن غانية الميورقي[2] الثائر على الموحدين بافريقية.

وقال لي الزواوي: وفي هذه الطريق ضرر آخر على السفار وهو أنه أي من وضع إناء ماء حلو على الأرض صار مراً زعافاً لوقته وساعته، وإنما احتاج المسافر في ذلك الطريق أن يضع إناءه يعمل تحته شيئاً يحول بينه وبين الأرض. قال: وطول هذه المسافة أكثر من نصف نهار مقداره من الطريق الأخرى السالكة في العمران يوم وليلة. قال الزواوي: في وسط هذه الطريق الآخذة في السبخة فرجة يستريح فيها بالقعود السفار. قال: وانا سلكتها ورأيت هذا كله بالمشاهدة والعيان. قال السلالجي: نحن جئنا إلى أطراف هذه السبخة ولم ندخلها خوفاً منها.

قال الزواوي: والمشهور بين أهل تلك البلاد كلها أن الصحراء التي في جنوب هذه السبخة ما سُلكت ولا تسلك ولا يقدر أحد على سلوكها. وحكى لي السلالجي: أن أهل الجريد يتحدثون فيما بينهم أن رفقة كبيرة وقع أهلها في هذه السبخة فلم يطلع أحد منهم ولا عاد منهم ولا عنهم مخبر.

(١). هذه السبخة ذكرها مجهول. الاستبصار: ١٥٨-١٥٩.

(٢). أبو إبراهيم إسحاق بن غانية الميورقي (ت٥٧٩هـ/١١٨٤م) بنو غانية أسرة بربرية حكمت الجزائر الشرقية وبدأ أمرها بمحمد بن غانية ثم خلف إسحاق ابن غانية أبيه وهادن الموحدين ثم ثار بنو غانية على الموحدين. واستمروا في الثورة وتمكنوا من السيطرة على كثير من مدن افريقية إلى أن تمكن الناصر الموحدي (٥٩٥-٦١٠هـ) من إخراجهم منها. انظر: السامرائي. تاريخ المغرب: ٢٠٢-٢٠٩.

قال أبو عبدالله السلالجي: ووقفت في تونس على شرح القصيدة الشقراطيسية(1) الشهيرة البديعة وتخميسها وشارحها القاضي الإمام أبو عبدالله محمد بن علي التوزري المصري ورأيته قد تكلم في أوائلها عند ذكر ناظم هذه القصيدة وتعرضه لموطنه ومسقط رأسه شقراطس وهي في غالب ظني على ما ذكر من إقليم الجريد ثم آخر كلامه إلى ذكر توزر ومدحها وأثنى عليها، وذكر هذه السبخة والصحراء التي تليها وقال إن مدينة نحاس بها مما يلي هذه السبخة.

قال السلالجي: وقفت على أول مجلدة من هذا الشرح وهو يكون في أربع مجلدات كبار بمدينة تونس استعرته من بعض فضلاء أهل توزر لمطالعته وشارح هذه القصيدة نقل هذه الحكاية أيضاً، وهو مشهور ثقة مأمون معروف من أهل العلم المشاركين في كل علم وله تصانيف كثيرة في الفقه والأدب.

قلت: وهذه القصيدة الشقراطيسة في المديح الشريف النبوي زاده الله شرفاً، وأولها:

الحمد لله منا باعث الرسل　　　هدى بأحمد منا أحمد السبل

(1). الشرح الوحيد الذي وجدناه في المصادر تذكرة للشقراطيسية هو شرح محمد بن عبدالرحمن بن الطفيل العبدي المعروف بابن عظيمة المتوفى سنة ٥٤٠هـ. انظر: البغدادي. إيضاح المكنون: ٢/ ٢٣١.



الباب الثالث عشر
الممالك الإسلامية
بر العدوة

الباب الثالث عشر
في مملكة بر العدوة

هو الآن مجموع لسلطان واحد، وفيه ثلاث ممالك: فاس وهي أعظمها، ومملكة تلمسان، ومملكة سبتة مع ما اضيف إليه من الأندلس على ما يأتي ذكره.

وبلاد بر العدوة بلاد خصيبة ذات زرع وضرع وفواكه، قال ابن سعيد[1]: وبر العدوة في الثالث والرابع، ثم قال: والاقليم الثالث صاحب سفك الدماء والحسد والحقد والغل وما يتبع ذلك[2]، ثم قال: وأنا أقول إن الاقليم الثالث وإن كثر فيه الأحكام المرعية على زعمهم فإن للغرب الاقصى من ذلك الحظ الوافر، ولا سيما في جهة سوس وجبال درن فما قتل الإنسان عندهم الا كعصفور، وكم قتل قتيل على كلمة، وبالقتل يفتخرون[3].

ثم قال ابن سعيد: وأنا أقول إن الغالب على أهل المغرب الأقصى كثرة التنافس المفرط والمحاققة وقلة التغاضي والتهور والمفاتنة، وليس البخل إلا في أراذلهم، وفي كثير من أغنيائهم سماحة مفرطة ومفاخرة بإطعام الطعام، والاعتناء بالمؤمل والقاصد، ولكن الأوقاف عندهم على عظمة سلطنة بني عبد المؤمن والمرابطين قبلهم، قليلة لا يتولون بها ولا يرون الصدقة على صحيح سوي ولا بنيان المدارس وقد بنى المتأخرون بها ما قل[4].

قال أبو عبدالله محمد بن محمد السلالجي: إن بمدينة فاس[5] أربع مدارس وخانقاه واحدة، قلت: وكان الأليق بهمة أهل تلك الممالك مع أصالتهم في الدين وتمسكهم بسببه المتين لو عمروا

---

(١) . النقل من كتاب ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب. قسم أفريقيا وهو مفقود من الكتاب. وتتعدد مواضع نقل العمري من ابن سعيد.

(٢) . القلقشندي، صبح الأعشى: ج/ ١٤٧. ١٧٣.

(٣) . قارن بالقلقشندي، صبح الأعشى: ١٧٣/٥.

(٤) . قارن بالقلقشندي، صبح الأعشى: ١٧٣/٥.

(٥) . مدينة فاس: عاصمة دولة الأدارسة (١٧٢-٣٧٥هـ / ٧٨٨ - ٩٨٥م) وهي مدينتان إحداهما للأندلسيين الذين قدموا إليهم من الأندلس وعمروها والأخرى للقرويين أصحاب بر العدوة وقد تم بناء المدينة في سنة ١٩٢-١٩٣هـ / ٨٠٨-٨٠٩م. في ولاية إدريس بن إدريس الفاطمي (ت ٢١٣هـ / ٨٣٠م). انظر: البكري، المسالك: ٧٩٥/٢-٧٩٨: مجهول. الاستبصار: ١٨٠؛ الحميري، الروض: ٤٢٤-٤٢٥؛ الإدريسي، نزهة المشتاق: ٢٤٢/١. ٢٤٦.

المدارس لينتشر العلم ويتوفر الطالب على النفقة ولا تنقسم أفكاره وتتشعب في طلب المعاش والاكتساب، فيقل تحصيلهم.

وأقول: فالأمر على ما ذكره ابن سعيد الآن في قلة الأوقاف والمدارس عندهم وفي جمهورهم البخل وسوء الخلق إلاّ الرؤساء فإن الرئيس في كل أُفق مطبوع على الرئاسة او منطبع بها له أتباع يحتاج (أن) (١) يبسط لهم خلقه ويده وأن لا يتجنبه من لا يعرفه وينفر عنه من يعرفه.

قال ابن سعيد: والمغرب الاقصى قليل الصواعق والزلازل. قلت: ومكان السلطان من بر العدوة هو بفاس الجديدة المسماة بالبيضاء، في دار لا يختص فيها بزيادة رفعة على نشز ولا ربوةٍ وتسمى القصر وهو عالي البناء ذو قباب علّية ضخمة لائقة بالملوك وغرف مرتفعة. وزخارف علوية ومجالس سلطانية[٢] وبداخله القبة المعروفة بقبة الرضا، وهي قبة عظيمة الارتفاع خارقة الاتساع وقدامها بركة ممتدة بها مركب لاتساعها وكبرها، وخلفها بركة أُخرى مثلها في مركب آخر لاتساعها وكبرها ومساحة المركبين واحدة والقبة العُظمى بينهما، وفي نهاية كل بركة قبة لطيفة المقدار، وفي جميع جدر القباب شبابيك مطلة، وإليه بستان كافٍ بالجميع وهو بستان جليل منوع بصنوف الأشجار والغراس على اختلافها، ويجري الماء إلى قصر السلطان من مكان يعرف بأساليس على بعد نصف نهار أو أقل مرفوعاً في قناة على قناطر مبنيةٍ اليها[٣]، واصطبلاته الى جوانب قصيرة لا يسكن معه في قصوره إلاّ حريمه وفتيانه وهم الخدم الخصيان ويبيت حوله في ظاهر قصره طائفة من الفرنج وأناس يعرفون بالعدويين بمنزلة النقباء ووصفان السلطان والبوابين[٤].

ولا ينازله في قصره أحد من الاشياخ ولا الجند ولا الغرباء، ومرجع ملوك بني مرين سلاطين بر العدوة في زناتة وكذلك مرجع بني عبد الواد سلاطين تلمسان.

فأما بنو مرين[٥] فملوكهم في بني عبد الحق ومن قبائلهم: بنو عسكر، وبنو وطاس، وبنو

---

(١) . إضافة يقتضيها السياق. (٢) . الوزاني. وصف أفريقيا: ٢٨٣.

(٣) . انظر الوزاني. وصف أفريقيا: ٢٨٢، ٢٨٥. (٤) . قارن بالوزاني. وصف أفريقيا: ٢٨٣.

(٥) . بنو مرين: سموا بذلك على اسم جدهم مرين الذي ينسب إلى قبيلة زناتة البربرية، ونشأت دولتهم في المغرب في ظل الدولة الموحدية. وخاضوا حروباً كثيرة معها إلى أن تمكنوا سنة ٦٦٨هـ / ١٢٦٩م من السيطرة على مدينة مراكش بقيادة أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق ويمكن اعتبار هذا التاريخ هو تاريخ قيام دولة بني مرين التي استطاعت أن تتوسع وتسيطر على المغرب العربي بأكمله من الأطلس غرباً حتى برقة شرقاً. إضافة إلى الأندلس، إلى أن أخذ الضعف يدب في جسم الدولة شيئاً فشيئاً وأخذت تتقلص رقعة الدولة حتى اقتصرت آخر الأمر على مدينة فاس التي سقطت بيد الأشراف السعديين سنة ٩٥٦هـ/١٥٤٩م، وانتهت بذلك الدولة المرينية. انظر سوادي عبد الحميد. دراسات: ٢٨٣-٢٩٣.

اتكاسن، وبنو يابان، وبنو اتنالفت، وبنو يزنت، وبنو برلمان، وأمَّا اتباعهم فهم: الحشم، وبنو فودود مع ما ينضاف إلى هؤلاء من الأفراد الأنجاد ممن له فروسية وشجاعة وهم كثير جداً. فيدخلون في سلك وصفات السلطان أو وصفات أشياخ هذه القبائل المذكورة، وهم بنو مرين غير هؤلاء الأفراد والذين كانوا مع بني عبد الواد مغراوة وهم أفخاذ كثيره وبنو راشد، وبنو يوجين. وبنو مليكس، وبنو سدويكش. ومن بني يوجين: بنو عبد القوي، ومن بني عبد القوي من كان قد تغلب وملك حتى قهرهم بنو عبد الواد وملكوا عليهم واتخذوهم أعواناً، وقد صار الكل لهذا السلطان جنداً مع من كان معه من قبائله. ومن جملة عساكره قبائل من العرب كثيرة منهم: بنو حسان، والعاصم، وبنو جابر، والحلوط، ورياح، وسويد، السبانات، وبنو عامر. وبنو سالم وغيرهم.

إنه في عسكره من الغز مقدار ألف وخمسمائة فارس، ومن الفرنج مقدار أربعة الآف فارس أو أزيد وهم يركبون خاصة خلف ظهره، وله علوج مماليك مسلمون مقدار خمسمائة فارس فرسان رماة، ومن الجند رماة هم الأندلسيون يرمرن بقوس الرجل أزيد من ألفي فارس، وطائفة كبيرة يقال لهم الوصفان خاصون بالسلطان يسكنون حواليه وينزلون في السفر إلى جوانب محلته دائرين في جملة نواحيه يقال لهم أهل الدوار وكل جيوشه فرسان أبطال نقاوه لا يطاق هياج أسدهم ومصالتة سيوفهم.

قال لي أقضى القضاة أبو الروح عيسى الزواوي: إن بعض أبطال الغرب قال إنه اذا كان منا مائة ولاقاهم زناتي واحد هربوا قدامه ولم يتجاسروا على إقدامه ولا ملاقاته. قال: وقال لي: اذا جاء الزناتي مغيراً فلا يعتقد أن أحداً يهجم عليه، وأما اذا طمع وأخذ الاخيذة وولى فربما ينال منه غرض.

وقال لي شيخنا حجة الأدب ولسان العرب أثير الدين أبو حيان: إن بني مرين يعد منهم كل فارس شجاع مثل عنترة وأمثاله. قال لي السلالجي: مثل أولاد إدريس: عامر، وحسين. ومحمد، ومثل ريان ابن أبي يعلى، وعامر بن عبد الله، وعبد الحق بن كندون. وعبد الحق بن عثمان أو أبي رزين ثابت بن أُحيه وهما اللذان قُتلا مع أبي تاشفين عبد الرحمن العبد الوادي حين دخلت عليه تلمسان. ومثل عثمان بن أبي العلي وأولاده وبني عمه أولاد سوط النساء، ومنيف المغراوي الباقي في قيد الحياة الآن وغيرهم من المشاهير. قال: ويقال إن كل واحد من هؤلاء يعد بخمسمائة فارس، وقد صورهم الفرنج عندهم في كنائسهم لعظم ما لاقوا منهم.

وقال الإمام أبو عبد الله محمد بن عبد الواحد العقيلي: إن أبا يعقوب أراد إنهاد ألف فارس لجهة من جهة أعدائه فعين خمسمائة فارس، فقيل له: وأين تكملة الألف، فقال: يوسف بن محمد بن أبي عباد بن عبد الحق يقوم مقام الخمسمائة الأخرى، فكان كذلك، قال: ولقد خالف هذا يوسف ابن محمد علي أبي ثابت بمراكش، وخرج في نحو أحد عشر فارساً ثم حمل بمفرده على سبعمائة فارس من العساكره ففرقها.

قال: ومن هولاء يعيش بن يعقوب بن عبد الحق تعرض له مرة نحو خمسمائة فارس وهو مرتحل بأهله وعياله من بلاد بسكورية إلى مراكش، فلما رأى عياله حذاق الفرسان دهشوا، فقال لهم: ما عليكم سيروا أنتم ثم أنه دفع فيهم ففرق جمعهم ونجا بجميع أهله وما معه، وقد كانوا أول خروجهم جهلة لا تخطم أنوفهم، حتى قال رجل منهم إسمه ابو عامر عبد الله المعروف بالعجب: ما أسفي الا كوني لم أكن في زمان علي بن أبي طالب حتى ألقاه وعلى هذا، فقس ما كان في رجال هؤلاء من الشجاعة والجهل[1]. قال السلالجي: وهم على شجاعتهم وأزيد وأما جهلهم فزال من أكثرهم لسكناهم بالحاضرة ومداخلتهم الناس. قال: وهذا عثمان بن أبي العلي، وسيف المغراوي، وعبدالرحمن ابن يعقوب، وأخوه الوطاسيين لم يزالوا في الأندلس تشر على الفرنج حملاتهم وتعد على قلتهم في كثرتهم فتكاً بهم.

قال: ولقد أنشأ هذا السلطان من فرسان هذا الزمان ورجالات الدهر من أخمل كل مذكور، وغلب على كل مشهور مع ما هم عليه من العلم والتُّقى لا يقدر أحد منهم لمهابته على ارتضاع كأس ولا إهمال صلاة يناقشهم على هذا ويؤاخذهم به،حتى اذا كانوا في السفر وأذّن المؤذنون نزل ونزلوا حتى تقام الصلاة ويصلون جماعة.

وحدثني أبو عبد الله محمد بن محمد السلالجي[2]: إن هذه المملكة طولها يوم او أزيد وعرضها ثلاثون يوماً بالسير المعتاد وطولها من جزائر بني مزغانة[3] وهي بلد حسنة على ساحل البحر الشامي، واقفه قبالة جزيرة ميورقه بانحراف يسير وبعدها عن بجاية ستة

(١) . وردت تعليقة على الحاشية هنا بخط مختلف ما نصه: «... أبو عامر في قوله ما أسفي إلاّ كوني لم أكن زمن علي بن أبي طالب في لحيته الخبيثة ما أمل وأدبر وأخس وأنجس».

(٢) . قارن بالقلقشندي، صبح الأعشى: ١٤٧/٥.

(٣) . انظر: البكري، المسالك: ٧٣٢/٢، مجهول، الاستبصار: ١٣٢، الحميري، الروض: ١٦٣.

أيام إلى البحر المحيط، وعرضها من ساحل الزقاق من سبته إلى نهاية بلاد البربر المتصلة بالصحراء الكبيرة الفاصلة بين بر العدوة وبين بلاد السودان لم يخرج عن مملكة هذا السلطان من بر العدوة الأندلس وأعمالها خرج سلطان بر العدوة الآن عنها للموحدين أصحاب إفريقية، وهبها إحساناً منه لكونها كانت قديماً لهم وانتزعها بنو عبد الواد أصحاب تلمسان منهم.

وحدّ هذه المملكة من الجنوب الصحراء الكبيرة الآخذه طولاً من بلاد البربر إلى جنوب إفريقية ومن الشرق الصحراء الكبيره، ومن الشمال البحر الشامي. ومن الغرب المحيط[1].

وقاعدة الملك بها مدينة فاس، ثم مراكش وهي التي كانت قديماً في زمان بني عبد المؤمن قاعدة الملك العظمى، فلما انتقل الملك إلى بني مرين وتحلى جيده بعقدهم الثمين أبوا إلاّ أن يتخذوا لهم مدينة فاس دار ملك فاستوطنوها وبنوا معها ثلاث مدن موازية لها على ضفة الوادي المعروف بوادي الجوهر غرباً بقبلة فأولها المدينة البيضاء وتعرف بالبلد الجديدة بناها أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق وهو أول من استقل بالملك بعد الموحدين لأن أخاه يحيى أبا بكر ثار عليهم ومات وما استقل له سلطان. ولا استقر له من عز الملك أوطان.

ثم مدينة حمص ويعرف موضعها بالملاح، بناها ولده أبو سعيد عثمان بن أبي يوسف والد سلطانها القائم الآن بناها إلى جانب البيضاء، وربض النصارى المتخذ لسكنى الطائفة الفرنجية المختصة بخدمة السلطان، ويطلق على هذه الثلاث المتخذات اسم فاس الجديدة[2]، وهذه المتخذات كلها على ضفة الوادي الغربية على ترتيب ما نذكره، فربض النصارى يقع قبالة فاس القديمة على بعدٍ من ضفة الوادي من غير مسامتة ولا مد، والبيضاء وهي المسماة بفاس الجديدة آخذة من شمالي ربض النصارى إلى ضفة النهر، ويقع أول عمارة فاس الجديدة قبالة آخر عمالة فاس الجديدة آخذه إلى ربض النصارى، عُقد على الوادي قناطر وبنيت حمص على ضفته وهي فوق الجميع لأن الوادي منها ينحدر على ما بينته، وهو أن هذا النهر ينصب من الجنوب إلى الشمال ثم ينعطف على زاوية،

---

(١) . قارن بالقلقشندي. صبح الأعشى: ١٤٧/٥، وذكر الوزاني، وصف أفريقيا: ١٩٩ أن حدودها تبدأ من نهر أم الربيع غرباً وتنتهي شرقاً على نهر الملوية. وتنتهي جزئياً في الشمال على المحيط وعلى البحر المتوسط بالنسبة للأجزاء الأخرى. وذكر أنها تتكون في زمانه من سبعة أقاليم فاس، وازغار، والهبط، والريف، وغارت، والحوز.

(٢) . قارن بالقلقشندي، صبح الأعشى: ١٤٩/٥، الوزاني، وصف أفريقيا: ٢٨٣.

آخذاً من الغرب إلى الشرق كأنه ينحدر من الغرب، وحمص على مجراه هناك ثم يمر آخذاً إلى الشرق على حاله فوق فاس الجديدة، ثم ينعطف عليها زاوية إلى الجنوب، ثم ينعطف إلى الشرق جائزاً بها، وهناك فاس العتيقة على الضفة الشمالية. والقصبة بها في غربيها مرجلة على الأرض لا تتميز على المدينة برفعة ولا ببناء عال. وتلك المتخذات كلها على الضفة الغربية. ويبقى النهر مستديراً بفاس الجديدة من جانبي الشمال على المجرى المركب عليه حمص، ومن الشرق حيث انعطف النهر حيث فاس العتيقة(1). وهذا الوادي هو متوسط المقدار يكون عرضه في المكان المتسع قريب أربعين ذراعاً، وفي المضائق دون هذا وربما تضايق إلى خمسة عشر ذراعاً وأقل من ذلك، وعمقه في الغالب يقارب قامة رجل وعليه الناعورة المشهورة. برفع الماء إلى بستان السلطان المعروف بالمصارة(2)، وهو بستان جليل له فيه قصر جليل جميل، وهذا البستان خارج المدينة الجديدة. وهذه الناعورة مشهورة الذكر يضرب بها المثل ويتحدث بها الرفاق وفاس العتيقة ذات عيون جارية يقال إن فيها أربعمائة عين سارحة(3). قال الإمام أبو عبد الله العقيلي: إنها ثلاثمائة وستون عيناً معدودة. والماء مسلط على دياراتها ومساكنها(4).

وأما المتخذات فإنها على علو لا عيون بها ولا يحكم الوادي عليها وجميع أرض فاس العتيقة مجبلة غير مستوية(5)، وأما المتخذات فمستوية وعلى كل من عتيقها وجديدها أسوار دائرة محصنة ذوات بروج وبدنات(6)، وجميع أبنيتها من الحجر والآجر والكلس مؤنقة مشيدة الأركان، وتزيد فاس الجديدة على فاس العتيقة في الحصانة والمنعة، والعتيقة بسور واحد من الحجارة، والجديدة بسورين من الطين المفرغ بالقالب من التراب والرمل والكلس المضروب وهو أشد من الحجر ولا تعمل فيه المجانيق ولا تؤثر فيه(7).

ويلي القصبة القديمة مخازن الغلال داخلها المطامير، وهي مجموعة في مكان واحد

(1) . قارن بالقلقشندي، صبح الأعشى: 5/149.

(2) . قارن بالقلقشندي، صبح الأعشى: 5/150.

(3) . ذكر الوزاني . وصف أفريقيا: 251 وجود 600 عين، وذكر ابن سعيد: الجغرافيا: 1:1 وجود 265 عين ماء بها.

(4) .قارن بالقلقشندي، صبح الأعشى: 5/148.

(5) . قارن بالقلقشندي، صبح الأعشى: 5/148، الوزاني، وصف أفريقية: 227.

(6) . قارن بالقلقشندي، صبح الأعشى. 5/150، الوزاني، وصف أفريقية: 282.

(7) . قارن بالقلقشندي، صبح الأعشى: 5/150.

يستدير بها سور منيع عليه باب وغلق، ويُسمى هذا الموضوع بالمرس القديم وأبنية فاس ومتخذاتها جميعها جليلة فخمة، وإن كانت لا تلحق بمراكش فيما كانت عليه من عظمة مبانيها وفخامة مغانيها. وهو باقٍ منه دليل على ما كان، وسيأتي ذكرها في موضعه.

وبفاس العتيقة داخل سورها جبائن ورياض ذوات أشجار ورياحين في دار الكبراء وبيوت الأعيان، وبها أرحاء كثيرة دائرة على الماء. قال السلالجي: تقارب أربعمائة رحى(1) وبكل من فاس القديمة وفاس المجددة المسماة بالبيضاء وحمص الجوامع والمساجد والمواذن والحمامات والأسواق. فأما المدارس والخوانق والربط فما خلت صحائف حسنات أهل المغرب من أجودها إلا النذر اليسير جداً وبفاس العتيقة مارستان (2)، وعمائر العتيقة كما قدمنا القول فيه بالآجر(3)، فأما المتخذات فغالبها بالقالب من نسبة أسوارها وسقوفها بالاخشاب وربما قُرنصت بعض السقوف بالقصدير والأصباغ الملونة، وتفرش بالرخام دياراتهم، وبالزيلخ وهو نوع من الآجر كالقاشاني بأنواع الألوان البيض والسود والأزرق والأصفر والأخضر وما تتركب هذه الألوان وغالبه بالأزرق الكحلي ومنهم من يتخذ منه وزرات لحيطان الدور(4). وأما دور هؤلاء فتفرش بآجر يسمى المزهري ولأهل فاس ولعٌ ببناء القباب فلا تخلو دار كبير في الغالب من قبتين او أزيد، وصورة تفسير أبنية دورهم مجالس مقابلة على عمد من حجر او آجر ورفارف مطلة على صحن الدار وقدامها طفافير يجرى اليها الماء ثم يخرج إلى بركة في وسط الصحن وتسمى البركة عندهم صهريجاً، وغالب أعيانهم يعملون لهم حمامات في بيوتهم أنفةً من الدخول مع عامة الناس لأن حمامتهم صحن واحد لا خلوة فيها تستر بعض الناس من بعض. ولهم تأنق في البناء وهم لا تقصير لهم عن الغاية فيه(5).

قلت: وثم فائدة لا بأس بذكرها والتنبيه عليها ذكرها ابن سعيد في المغرب، وهي أن فاساً القديمة هي أيضاً مدينتان أقدمهما المعروفة بمدينة الأندلسيين بنيت في زمان إدريس بن

---

(1) . ذكر الحميري أن بفاس أرحاء للماء نحو ثلاثمائة وستين وهي يضمها السور. سوى الأرحاء التي خلف السور وهي في التزايد وربما وصلت أربعمائة: الحميري، الروض المعطار: ٤٣٤؛ وكانت الأرحاء زمن الوزاني، وصف أفريقيا: ٢٣٨. ١٠٠٠ رحى.

(2) . الوزاني: وصف أفريقيا: ٢٣٤.

(3) . انظر وصف بناء البيوت في الوزاني، وصف أفريقيا: ٢٢٨. وقارن بالقلقشندي، صبح الأعشى: ٥/ ١٥٠.

(4) . قارن بالقلقشندي، صبح الأعشى: ٥/ ١٥٠.

(5) . انظر: وصف ذلك الوزاني، وصف أفريقيا: ٢٢٨.

عبد الله الحسني أحد خلفاء المغرب ثم المعروفة بمدينة القرويين بنيت بعدها[1]. قلت: وهاتان المدينتان هما المعبر عنهما الآن بفاس العتيقة. فجملة فاس الآن ما يذكر مدينة الاندلسيين، ومدينة القرويين، ومدينة البيضاء، ومدينة حمص، وربض النصارى، والقصبة. والذي يطلق على الجميع فاس القديمة، لجميع الأندلسيين والقرويين. وفاس الجديدة لجميع البقية وهي البيضاء وحمص والربض، ويطلق على جميع اسم فاس. وقد ذكر ابن سعيد: أنها إنما سميت لأنهم لما شرعوا في بناء أساسها وجدوا فاساً فسموها به[2].

وقد ذكر ابن سعيد فاساً فقال: هي متوسطة بين مدن الغرب يعني الداخلة من مراكش وسبته وسجلماسة وتلمسان عشرة أيام[3]، قلت: ولتوسطها صلحت أن تكون قاعدة الملك ليقرب الملك من جميع نواحيه[4].

قال ابن سعيد: ولها جنات كثيرة وزروع وضرع وخيرات، وعلى نهرها الأعظم الغربي نحو ثلاثة الآلف رحى وعلى حافته القرى والضياع والمدن الجليلة وهي تُشبه بدمشق وبغرناطة، والجبال تكتنفها وهي ممتدة بنفسها. ونهرها يلاقي نهر وادي سبو وهو من أعظم أنهار المغرب يصب في المحيط بين سلا وقصر عبد الكريم وفوهته هناك متسعة وأمواجه مضطربة وهي أكثر مياهاً من دمشق ومن غرناطة[5].

قال ابن سعيد: ولم أر قط حمامات في داخلها عين تنبع إلاَّ بها[6]. واثنى الشريف الإدريسي[7] في أخباره على مالكها ومآكلها ومطاعمها، ولأهلها اليد الطولى في صناعة المخروطات من الخشب والنحاس، وهي تشبه بدمشق في البساتين، وأهلها يشبهون بأهل إسكندرية في المحافظة على علوم الشريعة وتغيير المنكر والقيام بالناموس وفي عامتها الزعارة والمفاخرة بالقتل[8].

---

(١) انظر: الإدريسي، نزهة المشتاق: ٢٤٢/١؛ مجهول، الاستبصار ١٨٠؛ الحميري، الروض: ٤٣٤. وقارن بالقلقشندي، صبح الأعشى: ١٤٨/٥.

(٢) . ابن أبي زرع، الأنيس المطرب: ١/ ٣٠-٤٠، الجزنائي، زهرة الآس: ٢٣-٢٤، وقارن بالقلقشندي، صبح الأعشى: ١٤٨/٥.

(٣) .الحميري، الروض المعطار: ٤٣٥، وقارن بالقلقشندي، صبح الأعشى: ١٥١/٥.

(٤) . قارن بالقلقشندي، صبح الأعشى: ١٥١/٥.

(٥) . انظر الوزاني، وصف أفريقيا: ٢٨٣، البكري، المسالك: ٧٩٦/٢، وقارن بالقلقشندي، صبح الأعشى: ١٥٠/٥.

(٦) . انظر وصف حماماتها الوزاني، وصف أفريقيا: ٢٣٥، القلقشندي، صبح الأعشى: ١٥٠/٥.

(٧) . الإدريسي، نزهة المشتاق: ٢٤٢/١-٢٤٣.

(٨) . قارن بالقلقشندي، صبح الأعشى: ١٥١/٥.

وبها بستان ابن خيدن يشقه نهر فاس. قال ابن سعيد: وما رأى أحد ما أنفق فيه من الأموال بين بنيان ونجاده وزخرفة وغرس، ثم قال: وفي فاس وظاهر من هذه الإيوان ما يفوق به غيرها من البلدان.

وقد قال ابن منقذ رسول الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب إلى المنصور بن عبدالمؤمن رحمهما الله في رسالته المغربية: ولقد أخرجوني إلى بستان بفاس يقال له البحيرة انفرج فيه ضمانه خمسة وأربعون ألف دينار، وفيه بركة دعت كل جانب منها مائتين وستة عشر ذراعاً بالمرفق ويكون دور البركة، ثمانمائة ذراع وأربعة وستين ذراعاً، وعندهم ما هو أكبر من ذلك[1]. والذي حكى لي السلالجي أن أكثر عمائر المتنزهات في البساتين بها خفيفة الآن لا مبالغة لها ولا كلفة فيها.

وقال: أما قول ابن سعيد أن على ضفة النهر ثلاثة آلاف رحى لا حقيقة لها ولا بعضها إلا ما تقدم ذكره.

وفاس وخيمة البقعة، ثقيلة الماء، تعلو وجوه سكانها صفرة يحدث لأجسادهم كسل وفترة[2].

وقواعد الملك بهذه المملكة ثلاثة هي فاس وهي قاعدة الملك الثالثة. فأما سبته فإنَّا وإن كما ذكرناها مملكة وصورنا بها في هذا الفصل بالممالك فإنه ليست لملوك بني مرين بقاعدة ولا ينظر إليها عندهم بعين الاحتفال، وأما كوننا ذكرنا هنا مراكش ولم نذكر في صدر هذا الفصل في الممالك فلأنها وفاس ذات مملكة واحدة وإنما التقدمة اليوم لفاس فلم يبق لذكرها معنى وأما ذكرها هنا فلأنها ملحوظة عند ملوكها يعدوها بعد فاس.

وأما تلمسان: فمملكة تمادى الأمر عليها وهي مستقلة بنفسها وقد استضافها هذا السلطان إليه فصارت له قاعدة ثالثة.

وأما المدن الكبار[3] بهذه المملكة فهي اثنتان وأربعون مدينة القائم فيها هذا السلطان عن أبائه ست وعشرون مدينة هي: فاس، ومراكش، وأغمات، وآسفي، وآنفا، وآزمور، وينظ، وسلا، وازيلا، والعرائش، وطنجة، والقصر الصغير، وسبته، وبادسن. وتيجانس، وعماصة وهي المسماة باللدية البيضاء، وقصر ابن عبد الكريم. وتازاوصا، وسجلماسة، وتطارين،

(١) . قارن بالقلقشندي. صبح الأعشى: ١٥١/٥.

(٢) . قارن بالقلقشندي. صبح الأعشى: ١٥٢/٥.

(٣) . انظر مدن هذه المملكة الوزاني، وصف أفريقيا: ١٩٩ وما بعدها، القلقشندي، صبح الأعشى: ١٦٢/٥.

ومليلة، والمزمة، وتازوطة، ومكناسة، والمستجد لهذا السلطان عند فتحه بسيفه لمدينة تلمسان وقتل ملكها أبي تاشفين عبد الرحمن ابن أبي حمو العبد الوادي فهو تسعة عشر مدينة وهي: تلمسان، ووجدة. ومديونه، وتدرومه، وهنين، ووهران، وتميز غران، وبرشك، وشرشال، وتونت مستغانم، وتنس، والجزائر، والقصبان ومازونه، وتاحجمت، وعليانه والمدية، وأما صفروي وهي مما ورثة عن أبيه فهي قرية كبيرة لا مدينة، وكذا الطحا وتميزوعت مما فتحه فمن عدّها في المدن جعل جملة العدة خمسة وأربعين مدينة وإلاّ فالصحيح ما بيناه، هذا ما تملكه هذا السلطان مما على جنوب البحر الشامي من أول مخرج بحر الزقاق المحيط إلى آخر عمالة جزائر بني مزغانة مع طول البحر وما يليه في الجنوب إلى الصحراء الكبيرة، وله بالأندلس الجزيرة الخضراء ورنده ومربله وما فتحه بجيوشه المجهزة بها فهو بلد طريف، وجبل الفتح. فتكون جملة المدن الكبار المنتظمة في مملكته ثماني وأربعين مدينة بما لها من المعاملات والرساتيق والقرى والضياع والقلاع والحصون والبوادي كل هذا بيد سلطانها القائم الآن يتصرف تصرف الاستقلال فيه، وبقية الأندلس لولا جيوشه مع الله تعالى لما بقيت. وقد كان على ملكها للفرنج في كل سنة أربعون ألف دينار، فمذ أجال بالأندلس خيله، قطع تلك القطيعة وأنعش بها رمق الإسلام.

فاما إفريقية: فقد نبهنا فيها على أنه لولا إنجاد هذا السلطان لصحابها على بني عبد الواد وعلى ذعار العرب وثوار أهل بيته لما ثبتت له قدم، وقد ذكرنا أنه أعاد عليهم مدينة تدلس وبلادها، وكان قد أخذها بنو عبد الواد منهم.

وحدثني غير واحد من أهل أفريقية: أن صاحبها ما بعث بنته إلى السلطان أبي الحسن المريني صاحب بر العدوة إلا ليبقى عليه ملكه، وقد كان بعث بمفاتيح بجاية، وأشهد على نفسه أنه خرج عنها للسلطان المريني ومن وفائه أن ردها عليهم وصرفها إليهم ولم يطمع لهم في شيء من بلادهم بل أعاد لطارفهم وتلادهم مع المساعدة بالإنجاد حتى استولى على عدوهم بالقتل وتملك جميع بلاده كما قدمنا ونحن وإن كنا ذكرنا أفريقية بذاتها مفردة بسلطان فإنها في الحقيقة جزءٌ من مملكة صاحب أفريقية فيها كالنائب له دائما صاحب بر العدوة ينظر اليه بعين الاجلال لكونه بقية الموحدين وهم أهل بيت ملك ولهم أصالة السلطنة، وصاحب افريقية إنما اشتد بمصاهرته له، وبهذا تم له في إفريقية سلطانه وانكفت أطماع العرب عنه بعد ان استخفوا في إفريقية بالسلاطين وهان عليهم أمر الامراء

وكانوا بأيديهم تتولى الملوك وتعزل، وتسمن السلطنة وتهزل.

وأما السبب الباعث لصاحب إفريقية على إرسال بعثة إلى هذا سلطان أبي الحسن المريني فهو أن سلطان بني عبد الواد صاحب تلمسان كان قد حاصر بجاية ونزل عليها ونازلها وضايقها ولم يطق صاحب إفريقية دفعة فأراد تاكيد معاضدة المريني له فزوجه ابنته في أيام أبيه أبي سعيد عثمان وبعث إليه في البحر يستنجده فخرج لإنجاده ثم مات وأوصى ابنه أبي الحسن بإتمام النجدة لهم فلم يزل على محاصرة تلمسان حتى كان من فتوحه لها ما كان.

وحدثني من له اطلاع على ما حدثني به قال: وكان صاحب افريقية مع انقياده إلى المريني وعداوته لسلطان بني عبد الواد وقيام المريني على عدوه في هواه لا يؤثر في الباطن أن المريني يظفر بصاحب تلمسان عدوه ليكون له به شغل عن قصده وانتزاع افريقية منه لعلمه أن تلمسان حجاب بينهما وأنه لا طاقة له بالمريني ولا قبل له به ويحق له الخوف فإنه في قبضته متى أراد.

قلت: ومع ترامي صاحب إفريقية للمريني وإذعانه له. لا يخطب له على منابره ولا تضرب السكة باسمه. ومع اقتدار المريني عليه وكونه لا يعد إلا كأحد نوابه ما طلب هذا منه. ولقد قال أبو الحسن المريني في كتابه الوارد إلى حضرة السلطان بمصر مخبراً بفتوح تلمسان أن مملكته إتصلت من البحر المحيط إلى برقه وهذا يؤكد ما قلناه من أن افريقية كجزءٍ من بلاده وأنّ صاحبها كالنائب له لأنه قال: إن مملكته إلى برقه وافريقية هي داخلة في هذا الحد[1].

وهذه المملكة المجتمعة لهذا السلطان أبي الحسن فإنها هي الغرب بمجموعة منها ما هو بيده ومنها ما هو بيد ملوك في طاعته، وحيث يقال اليوم صاحب الغرب فهو المراد، ولقد كان الناس في زمان أبيه في جورٍ حتى ولي فبسط بساط العدل وحمل على محجة الإنصاف، وأبطل المظالم وأخذ على يد كل ظالم وأسقط المكوس ولم يدع إلا الخراج والزكاة والعشر وما يوجبه موجب الشرع وحل عقد الضمان وكانت سبباً للظلم والطلب المجحف، وكان يقال إنه: بعد أن حل البلاد من الضمان تنقص الأموال فزادت وأدل الله بالعدل من البركات أضعاف ما كان.

(١) . انظر عن المراسلات بين المماليك والمرينيين. الناصري. الاستقصا: ٣/١٢٧، الصفدي. أعيان العصر: ٣/٢٨٩.

قال أبو عبد الله السلالجي: أما ما ازداد وثمر فلا أعلم كم هو، وأما ما كان في عقدة الضمان في زمان السلطان أبي سعيد والد هذا السلطان خارجاً عما كان يؤخذ من أصحاب الماشية من الإبل والبقر والغنم فهو تفصيله:

فاس: مائة وخمسون ألف مثقال.

مراكش: مائة وخمسون ألف مثقال.

سبته: خمسون ألف مثقال.

آسفي: خمسة وعشرون ألف مثقال.

أغمات: خمسة وعشرون ألف مثقال.

آنفا: أربعون ألف مثقال.

أزَمَّورا: عشرون ألف مثقال.

طنجة: ثلاثون ألف مثقال.

بادس: عشرة آلاف مثقال.

مكناسة: ستون ألف مثقال.

صفروي: ستة آلاف مثقال.

سجلماسة ودرعة: مائة وخمسون ألف مثقال.

ثاري: ثلاثون ألف مثقال.

عصاصه ومليله والمزمة: ثلاثون ألف مثقال.

تينط: خمسة آلاف مثقال.

تيجبساس: خمسة الاف مثقال.

قال السلالجي :وهذا الضمان كان جارياً على جميع المجابي ما كان يُستأدى من وجوه الخراج والزكاة والموجبات والمكوس خارجاً عن عداد المواشي وغلات المجاسر والحصون والقلاع، والمجاسر وهي القرى. قال: وأما تطاوين والقصر الصغير فإنها كانت بكفلها لا تحصل شيء منها.

قال: هذا المبلغ هو الذي كان يجري عليه الضمان وقد كان يزيد وينقص باختلاف الأحوال والأوقات. وإنما هذا هو الغالب ولا كثير تفاوت فيما يزيد او ينقص منه.

قال: والذي استفتحه الآن لا يقصر عن نظر الثلثين فإنما ينقص شيئاً يسيراً لأن تلمسان

مملكة جليلة وسيعة المدى كثيرة الخير ذات حاضرة وبادية وبروبحر.

وسألت السلالجي عن عدة العسكر لاختلاف الأقوال فيهم، فمن مكثر إلى غاية ومن متقارب، وكان ابن جرار قد قال لي إنهم مائة ألف وأربعون ألف. قال السلالجي: الذي نعرفه قبل فتح تلمسان فما كانت تزيد جريدة جيشه المثبتين في الديوان على أربعين ألف فارس لا غير، غير حفظة المدن والسواحل. وكان يمكنه إذا إستجاش الحرب أن يخرج في جموع كثيرة جداً لا تنحصر بعدد ما. ويكون الآن قد زاد على ما أعرفه مثله لاستجداد تلمسان له. وهي مملكة كبيرة وسلطنة جليلة تكون قريب الثلثين مما كان بيده. ولطاعة أمم من أهل الجبال والأطراف، وقد كان يعصب رؤوسهم التيه ويجنح بهم العصيان، وقد تثعلبت له اليوم آسادهم. وأصحرت له وعولهم. قال العقيلي: أما جيشه الآن فيكون مائة وأربعين ألفاً غير من يستجيش به(١).

وسألت السلالجي عن مقدار عمارة فاس عتيقها وجديدها فقال: تكون قدر ثلث مصر والقاهرة وحواضرهما لكن عالمهما أقل(٢). وبالغ في وصف دياراتها وأوطانها وما اشتملت عليه بساتينها المنوعة الثمار المطرده الأنهار. وما بها من الرخاء الدائم والأمن والدعة فسألته عن معاملاتها وأسعارها فقال: المثقال الذهب بمائة وعشرين درهماً من الدراهم الصغار وهي ستون درهماً من الكبار لأن كل درهم من الكبار بدرهمين من الصغار، وكل درهم من هذه الدراهم الكبار يكون نظير درهم أسود في مصطلح أهل مصر، والدرهم الأسود بمصر هو ثلث درهم نقرة من معاملة مصر والشام.

قال السلالجي: وكل ثلاثة كبار بدرهم واحد نقره من معاملة مصر والشام هذا على جهة التقريب لا التحقيق. وأما الدراهم الصغار فكل درهم منها نصف درهم كبير وهو نصف درهم أسود يكون سدس درهم نقره من معاملة مصر الشام. وحيث يقال درهم ويسكت لا يراد به إلا الدرهم الصغير وهو سدس درهم، إلا بمراكش وما جاورها وقاربها حيث قيل درهم لا يراد به إلا الدرهم الكبير ينص على الصغير هذا في مراكش وعملها وما قاربها خاصة دون بقية بر العدوة على الاطلاق، والرطل هو نظير رطل إفريقية سواء. على ما تقدم ذكره(٣).

(١) . قارن بالقلقشندي، صبح الأعشى، ٢٠٣/٥.

(٢) . قارن بالقلقشندي، صبح الأعشى، ١٥١/٥.

(٣) . قارن بالقلقشندي، صبح الأعشى، ١٧٢/٥.

وأما الكيل: فأكبره الوسق ويسمى الصحفة وهو ستون صاعاً من الصاع النبوي محرراً. وأما الأسعار فإن أوسط الأسعار كل وسق قمح بأربعين درهماً من الصغار، والشعير دون ذلك. وكل رطل لحم بدرهم واحد من الصغار، وكل طائر من الدجاج بثلاثة دراهم من الصغار، وهذا كله من المتوسط بالسعر المتوسط في غالب الأوقات(١).

وبر العدوة به من أرباب الحبوب والقمح والشعير والفول والحمص والعدس والدخن والسلت وغير ذلك، إلا الأرز فانه قليل، وإن ازدرع في بعض الأماكن من بر العدوة، ولكنه يُجلب إليهم من بلاد الفرنج ومالهم نهمة في أكله ولا عناية به ويزرع به السمسم ولكنه ليس بكثير لا يعتصر منه بالغرب شيرج، ولا يأكل الشيرج منهم إلا من وصفه له الطبيب، وإنما أكلهم عوضه الزيت ومزورات الضعفاء، وهم يعملون الحلواء بالعسل والزيت، وبها أنواع من الفواكه المستطابه اللذيذه المتعددة الأنواع والأجناس. من النخل والعنب والتين والرمان والسفرجل والتفاح على أصناف: الكمثرى كذلك ويسمى ببر العدوة الانجاص كما يسمى بدمشق. والمشمش والعين والبرقوق والقراسيا والخوخ غالب ذلك على عدة أنواع. وأما التوت فقليل، وبها الجوز واللوز، ولا يوجد بها الفستق والبندق إلا إن جاء مجلوباً. وبها الأتراج والليمون والليم والنارنج والزنبوع وهو المسمى بمصر والشام الكباد، والبطيخ الأصفر. وأما الاخضر فهو يسمى عندهم بالدلاع وهو قليل، والموجود منه لا يستطاب. وبها الخيار والقثا واللفت والباذنجان والقرع والجزر واللوبيا والكرنب والشمار والصعتر وسائر البقول. وأما القلقاس فلا يزرع عندهم الا للفرجه على ورقه لا لأن يؤكل، ولا يوجد بها الموز إلاّ في بعض المواضع نادراً مما يهدى ويباع(٢).

وأما قصب السكر فهو بجزائر بني مزغنا وبالسوس وبنواحي مراكش وبسلا كثير. ولولا عدم استقامة أهل السوس وتلك الأطراف وكثرة التوائهم لكان كثيراً جداً. والموجود منه يعمل منه قند ويسبك منه السكر ولكنه متوسط المقدار. وقد سألت ابن جرار عما يعمل منه أنواع ويخلص منه مكرر تجيء في نهاية البياض والصلابة ولطافة الذوق يقارب مكرر مصر إن لم يكن مثله ولكن نوع السكر المعمول بالغرب غير كثير. قال: ولو أنهم أكثروا من نصب الأقصاب لكثر(٣).

---

(١) . قارن بالقلقشندي، صبح الأعشى. ٥/١٧٢.

(٢) . قارن بالقلقشندي، صبح الأعشى: ٥/١٧٠-١٧١.

(٣) . قارن بالقلقشندي، صبح الأعشى: ٥/١٧١.

قال العقيلي: إن بمراكش أربعين معصره للسكر أو أزيد، وزادت على سوس ومزارعه في أرض مراكش بوادي يعرف بوادي نفيس وإن حمل حمار من القصب يباع بثلاثة دراهم يكون بدرهم واحد كاملي، فسألته عن السبب المانع لهم عن الاستكثار منه. فقال: لكثرة وجود العسل النحل واعتياد المغاربه لأكله. ووصف العسل عندهم ولذاذة طعمه وكثرة ألوانه(١).

ولقد ساءلت كثيراً من المغاربة حتى ممن أقام بمصر وتمصر عن السكر فوجدتهم مائلين بالطباع إلى تفضيل العسل في الأكل عليه واستطابتهم له أكثر من السكر، واستعمالهم للعسل بدلاً منه في أطعمتهم وحلوائهم، وزعموا أن ما يعمل من العسل ألذ مما يعمل من السكر، وهذا مما لا نسلمه إليهم ولا يدّعي هذه الدعوة ذو ذوق سليم ولا نظر مستقيم، ولقد قال لي منهم إنه ما يستعمل السكر عندهم في الغالب إلا المرضى أو الغرباء أو الكبار من الناس في المواسم والضيافات. قالوا: كذلك الأرز لا يؤكل عندهم إلاّ في يوم حفل أو دعوةٍ أو مريض او غريب اعتاد أكل الرز في بلاده.

وقد طال ما جره الحديث في هذا ونعود إلى تكملة ما يوجد في بر العدوة.

قال السلالجي: بها من الرياحين الورد والبنفسج والياسمين والآس والنرجس والسوسن والبهار وغير ذلك(٢).

وبها من الدوابّ والخيل والبغال والحمير والإبل والبقر والغنم، ولا يعدم عندهم إلاّ الجاموس فإنه لا يوجد عندهم. وبها أنواع من الطير من الأوز والحمام والدجاج وغير ذلك، والكركي كثير عندهم على بعد الديار وغربة الأوطان وتسمى عندهم الغرانيق. وهي عندهم صيد الملوك كما هو بمصر والشام في صحاريها من أنواع الوحش الحمر والبقر والنعام والغزال والمها وغير ذلك(٣):

وأما مراكش فهي متوسطة بين المحيط إلى الصحراء إلى البحر أربعين ميلاً ومثله إلى الصحراء، وهي كما قدمنا ثانية قواعد الملك. حكى لي غير واحد عن سعة دورها وضخامة عمائرها وما فيها من قصور بني عبد المؤمن وأولادهم وأجنادهم حتى يقال إنه إذا كان الرجل في صدر الدار ونادى رفيقه وهو في صدرها الآخر بأعلى صوته لا يكاد يسمعه لاتساعها.

---

(١) . قارن بالقلقشندي. صبح الأعشى: ٥/١٧١.

(٢) . قارن بالقلقشندي. صبح الأعشى: ٥/١٧١.

(٣) . قارن بالقلقشندي. صبح الأعشى: ٥/١٧١.

قال ابن سعيد: ودورها سبعة أميال وهي بسيطة يمتد فيها البصر، بناها أمير المسلمين يوسف ابن تاشفين(1)، وأول ما بنى بها القصر المعروف بقصر الحجر ثم بنى الناس حوله، ثم أن يوسف العشري وهو ابن عبد المؤمن كبرّها وفخّمها ومصّرها وضخّمها وجلب إليها المياه والغراس ومنارة جامعها المعروف بالكتبيين طولها مائة وعشرة أذرع من الحجر. وعلى باب جامعها ساعات ارتفاعها في الهواء خمسون ذراعاً، ينزل عند انقضاء كل ساعة صنجة وزنها مائة درهم يتحرك بنزولها أجراس يسمع وقعها من بعد وتسمى عندهم المنجانة وهي الآن بطالة لا تدور(2).

وقال ابن سعيد: وحضرة مما سكنتها وعرفتها ظاهراً وباطناً، ولا أرى العبارة تفي بما تحتوي عليه ويكفي أن كل قصر من قصورها مستقل بالديار والبساتين والحمام والاصطبلانات والمياه وغير ذلك حتى يغلق الرئيس منهم بابه على جميع خوله وأقاربه وما يحتاج، ولا تخرج له امراة إلى خارج داره ولا يشتري شيئاً من السوق لمأكل ولا يقرئ أولاده في مكتب خارج، ويخرج هو من بيته راكباً لا تقع عليه العين راجلاً، وفيها قصور عظيمة وبها قصر الخلافة بناه المنصور يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن، وهو وسط المدينة اختطها خارج مراكش خاصة به وبخواصه وتعرف بتامراكشت(3).

قال ابن سعيد: ولا أدري كيف أصل إلي غاية من الوصف، أصف به ترتيب هذه المدينة المحدثة فإنها من عجائب همات السلاطين، ذات أسوار ضخمة وأبواب عالية، وبها قصر الخلافة(4) وبه ديار عظيمة منها دار البلور ودار الريحان، ودار الماء، وكل دار منها لا تخلو من المياه والبساتين العجيبة والمناظر المرتفعة المشرفة على بسائط مراكش، ولها ثلاثة أبواب مختصة بها، باب البستان وكان لا يراه إلاّ خواص بني عبد المؤمن يفضي إلى بستان يعرف بالبحيرة طوله اثناعشر ميلاً فيها العمائر الجليلة والمصانع العظيمة، والبركة التي لم يعمل مثلها(5).

قال العقيلي: وطولها ثلاثمائة وثمانون بأعاً على جانبها الواحد أربعمائة شجرة من

---

(1) . ابن سعيد، الجغرافيا: 125

(2) . الوزاني، وصف أفريقيا: 129. وقارن بالقلقشندي، صبح الأعشى: 5/156.

(3) . قارن بالقلقشندي، صبح الأعشى: 5/156-157.

(4) . قارن بالقلقشندي، صبح الأعشى: 5/157.

(5) . قارن بالقلقشندي، صبح الأعشى: 5/157.

النارنج، وبين كل اثنتين إما ليمونة وإما ريحانة[1]، والباب التالي: باب القراقين وهو في داخل المدينة مراكش يتصرف منه إلى ما يحتاج إليه بالمدينة، والباب الثالث: باب الرياض أمامه رحبة عظيمة تحمل طراد الخيل وكان بها أنواع من الوحوش في زمان بني عبد المؤمن وبها قبة الخلافة إلى جانب الباب كان يخرج اليها خليفتهم بكرة كل نهار وتكون بها الخدمة، وفي رحبة القصر دار الكرامة والأضياف[2]، وفيها يقول أبو بكر بن مجير المرسي رحمه الله:

ذاك داعي الهوى بمثوى إلمامة	موجب للأنام دار الكرامه
قد دعا دعوة العموم إليها معلناً	كالنداء او كالإقامه
فتباروا إلى نعيم عميم فتحوا	بابه وقضوا ختامه
خير قوم وعوا إلى خير دار	هي للملك نظرة وكمامه
عالم السبعة الأقاليم فيها	وهم في فنائها كالقلامه
ما توسمت قبل جمع أتاها	أن ذا الحشر قبل يوم القيامة
تسام الريح صيد تطوى مداها	وتجول العيون دون شآمه

وفي هذه الرحبة المدرسة، وهي مكان جليل به خزائن الكتب، وفيه كان خلفاء بني عبد المؤمن يجالسون العلماء[3]، وفيها دار مخصوصة للوزراء المحلاة بوزير الجند، وتفضي هذه الرحبه إلى باب السادة، وهو يقضي إلى خارج مراكش كان مخصوصاً ببني عبد المؤمن إليه ينتهون على خيلهم وعليه سلسلة منها ينزلون، وهناك مقابر أكابرهم وجنائز الأعيان في نهاية حسن المباني والغراس وفي الرحبة باب السقائف وهو باب كبير يخرج منه إلى سقائف أهل الجماعة، وهم ذرية العشرة أصحاب مهديهم ابن تومرت وسقائف أهل الخمسين، وسقائف الطلبة وهم أهل العلم والقراءة، وسقائف الحفاظ وهم المقدمون على الأعمال لحفظها، وسقائف أهل المدار وهم غلمان الخلافة ثم يخرج من هذه الرحبه إلى سقائف القبائل وأعيان الغز والجموع ثم يفضي إلى رحبة عظيمة فيها سقائف جنيفه

---

(١) . قارن بالقلقشندي، صبح الأعشى: ١٥٧/٥.

(٢) . قارن بالقلقشندي، صبح الأعشى: ١٥٧/٥ وفيه البيت الرابع والبيت الخامس من الشعر.

(٣) . الوزاني، وصف أفريقيا: ١٤٣.

وجدميوه والقبائل هسكوره وصنهاجة، وهؤلاء قبائل الموحدين وبها موضع صاحب الشرطة، وبإزائها الجامع المتبني في تامراكشت على صحنه شبك من الصفر الأندلسي وهو في غاية الزخرفة والإتقان ولا يبرح المنبر مستوراً في بيت المقصورة، وهو والمقصورة مستوران إلى يوم الجمعة، قريب الصلاة ترفع ستورها والنهر الذي جلبه المنصور إليها يخترق قصوره ثم يمر على السقائف والرحاب المقدمة الذكر، باب انكحل كان منه دخول الموحدين وأمامه فضاء عظيم يسع وقوف اخلائق وتصرفها، وباب الرب لا يدخل هذا النوع إلاَّ منه لاحتمال أن يدخل المدينة خمر، وبها الصهريج الكبير والصهريج في لغة أهل المغرب: البركة. وهي بركة عظيمة عليها سور، وباب يصب فيها النهر الثاني الداخل إلى مراكش، وفيها يوزع بقياس معلوم على قصور الناس ثم ينحدر بقية الماء في نهرٍ يشق المدينة من نهرٍ من جهة أخرى في وسط الأسواق وما بعد. وفيها برك تصب فيها المياه وفي هذه الرحبه باب الشريعة أمام مصلى العيدين وبينها فسيح عظيم به سوق الخيل والسلطان، به قصر مطل عليه ويليه باب نفيس يخرج منه إلى بلد نفيس المفضلة بالمياه والأعناب، وقدامه بركة أقنا يتعلم فيها الصبيان العوم، ويليه باب مخزن السلطان كان به والى جانبه قصر سعيد، وقصر أمة العزيز وقصر ابن جامع، لا يعلم كم غرم على كل واحد منها، حتى قال ابن سعيد في المغرب عن قصر ابن جامع وهو أحد وزراء بني عبد المؤمن، وأنه كان في داره ساحة يلعب فيها خمسمائة جارية على خيل الخشب وتتطاعن. ويلي ذلك باب مسوفة يفضي إلى المقابر. وباب دكاله وهو مفض إلى المتنزهات، ويليه باب الرجاء، ويليه باب باغورت، ويليه باب فاس وهو مفض إلى فضاءٍ يفضي إلى نهركبير لا يخاض إلاَّ في زمان الصيف وعليه بساتين جليله ومتنزهات، ويليه باب الدباغين، ويليه باب بيسان، ويليه باب إيلان، ويليه باب آغمات، وأمامه منازل المخدومين لا يمازجون الحضرة، ويليه باب الصالحية، وخارجه مقابر وبساتين. ولمراكش بوادٍ فسيحة، وما اختار ابن تاشفين بقعتها إلا لمراعي إبله حولها، وبها أرباب العمائر.

وأما تلمسان: وهي قاعدة الملك الذي فتحه هذا السلطان بسيفه، واستضافه إلى ملكه. قال الشريف في كتاب اجار[1]: وهي في سفح الجبل وبها آثار الأول وماؤها مجلوب من

(١) . وصفها بغير هذا. انظر: الإدريسي، نزهة المشتاق: ٢٤٨/١. انظر، البكري، المسالك: ٧٤٥/٢-٧٤٦. الحميري. الروض: ١٣٥، المجهول. الاستبصار: ١٧٦.

عيون على ستة أميال. ولها أسواق ضخمة ومساجد جامعة وأنهار وأشجار وشجر الجوز كثير بها، وفيها المشمش المقارب في حسنه لمشمش دمشق، وعلى نهرها[1] الأرحاء، ويصب نهرها في بركة عظيمة من آثار الأول ويسمع لوقعة خرير على مسافة. ثم يصب في نهر آخر بعدما يمر على البساتين، ويستدير بقبليها وشرقيها وتدخل فيه السفن اللطاف حيث يصب في البحر. وهي دار علم متوسطة في قبائل البربر ومقصد تجار الآفاق، زكية الأرض من الزرع والضرع. ولها حصون كثيرة، وقرص عديدة أشهرها قرصة هنين وهي قبالة المرية ووهران، وتلمسان على ما بلغ حد التواتر في غاية المنعة والحصانة. مع أنها في وطاةٍ ولكنها محصنة بالبناء، ولقد أقام أبو يعقوب يوسف عم هذا السلطان أبي الحسن نحو عشر سنين، وبنى عليها مدينة سماها تلمسان الجديدة ثم مات وسمى أهل تلمسان السنة سنة الفرج حتى كتبوا في سكتهم ونقشوا: ما أقرب فرج الله، وشرع حينئذ أبو حمو بعد إتمام سنة من الفرج من رحيل بني مرين عنها، وهو والد سلطانها أبي تاشفين المأخوة منه تحصيل موتها وتحصين أسوارها ولم يدع ما يحتاج إليه المحاصر لعدة سنين كثيرة حتى حصله من الأقوات والآلات حتى سليت الشحوم وتملئت بها الصهاريج وملئت أبراج المدينة بالملح والفحم والحطب، واختزن أرض كلها زرع، ومات أبو حمو وولي بعده أبو تشفين فزادها تحصيلاً من الأقوات وتحصيناً من الأسوار والآلات وبنى بها البناءات العجيبة الشكل، والباب الغريبة المثل. والبرك المتسعة والقصور المنيفة وغرس فيها بساتين غرس من سائر أنواع الثمار إلى أن حاصر بجاية ونازلها وبنى عليها فاستنجد الموحدون بالمرينى فأرسل إليه العلماء والصلحاء والأعيان، وندبوه إلى الصلح بينهم فأبى إلاّ عتواً وفساداً فنهض إليه أبو الحسن وحاصره أشد حصار، وبنى عليه مدينة سماها المنصورة، وبقي أربع سنين محاصراً لها مضيقاً عليها آخذاً بجانبها، ونصب عليها المجانيق. وأخذ عليها المسالك من كل جهة، ولم يدع طريقاً لداخل إليها أو لخارج عنها وسلطانها أبو تاشفين وجميع أهلها في ضيق الخناق معهم لا يفك لهم وثاق ولا يحل لهم خناق، ولا تبرق لديهم بارقة خلاص وكانوا مع هذا التشديد في غاية الامتناع لحصانة بلدهم وكثرة ما بها من الماء والاقوات.

وكان في المدينة عين ماء لا يقوم كفايتها، وكان يجري إليها الماء من عين خارجة عن البلد لم يعرف لها أحداً منبعاً أخفيت بكثرة البناء المحكم، ولم يظهر لها على علم إلى أن خرج

(١). يدعى نهر تلمسان بنهر سطفسيف. انظر البكري، المسالك: ٢/٧٤٦.

أحد من يعرفها من البنائيين المختصين بسلطانها الكائن عليها فقطعها عنهم وأبعدها منهم وصرفها إلى جهة أخرى فقنعوا بالعين الذي في داخل بلدهم واكتفوا بالبلالة، ولم يظهر منهم وهن ولا خور لانقطاع الميرة لما كان عندهم من المخزون حتى قدائد اللحوم ومسليات الشحوم ولم يتغير طعمها لأن بلاد الغرب مخصوصة بطول مكث المخزونات بها، فإنه ربما بقي الشعير في بعض أماكنها ستين سنة لا يتغير ولا يتسوس ثم يخرج بعد خزن هذه المدة الطويلة فيزرع وينبت وخصوصاً تلمسان في بر العدوة وطليطلة في الأندلس.

حكى ابن ظافر في كتابه المترجم بسياسة الملوك[1]: أن القمح يقيم بطليطلة ثمانين سنة مخزوناً في صهاريج ثم يخرج ويزرع، قال: ولا يزيدها مدة الخزن إلاَّ صفاءً ولا طول المكث إلاَّ جدة.

ونعود إلى ذكر تلمسان فنقول: إنها منحرفة إلى الجنوب الشرقي لفاس، ولها ثلاثة أسوار ومن جهة القصبة ستة أسوار بعضها داخل بعض ولم يهجس بخاطر أنها تؤخذ ولكنْ يسر الله لهذا السلطان أبي الحسن المريني صعبها وذلّل له إباءها حتى ملك ناصيتها وبلغ دانيتها وقاصيتها. وإذ قد ذكرنا قواعد الملك الثلاثة فلنذكر ما لا بأس بذكره من هذه البلاد.

وأول ما نبدأ بذكر سبته[2] لصيتها الطائر في الآفاق لمكان بحر الزقاق منها وهي على ضفة بحر الزقاق الداخل من البحر المحيط، وهي في طرف من الأرض شديد الضيق من جهة الغرب والبحر المحيط محيط بها شرقاً وغرباً وقبلة. ولو شاء أهلها أن يصلوها به من جهة الشمال فتكون جزيرة منقطعة ولها فاكهة كثيرة وبها قصب سكر ليس بالكثير، وعليها أبراج كثيرة. وأسوارها عظيمة من صخر محيط بها، وكذلك يحيط بجبل مينائها الذي بشرقيها وبربضها أسوار، وبها حمامات يُجلب إليها الماء على الظهر من البحر في الشواني، وطول المدينة من السور الغربي المحيط على ربضها إلى آخر الجزيرة خمسة أميال، ولم تزل دار علم وفقه[3].

(١) . هذا من كتب ابن ظافر المفقودة.

(٢) . انظر البكري، المسالك: ٧٧٨/٢، الإدريسي، نزهة المشتاق: ٥٢٧/٢، الحميري، الروض: ٣٠٣. مجهول الاستبصار: ١٣٧، القلقشندي، صبح الأعشى: ١٥٧/٥-١٥٨.

(٣) . يعتمد على البكري فيما ذكر: المسالك: ٧٧٩/٢-٧٨٠، وقارن بالقلقشندي، صبح الأعشى: ١٥٢/٥.

وقد ذكر الحجاري أول مصنفي كتاب المغرب[1]: أنها أول ما بنى في بر العدوة، وهي من فرض البحر العظيمة لكثرة ما يرد عليها من مراكب المسلمين والنصارى من كل جهة وجميع طرف الدنيا أو غالبها موجودة فيها، وهي مليحة نزهة، والبحر عندها ضيق، وإذا كان نصحو بصر أهلها منها الجزيرة الخضراء المسامتة لها من الأندلس[2]، وشرب أهلها من ماء مجلوب إليهم من البحر من بليونش[3] وغيرها من متنزهاتها، وفي داخلها صهاريج من ماء المطر، والأغنام تُجلب إليها. والقمح لا يزكو نباته في أرضها، وانما يُجلب إليها جلباً كثيراً، وبها الصخرة التي يقال لها إن موسى عليه السلام أوى اليها، ولا يصح. وبها سمك كثير منه نوع يُسمى سمك موسى نسبه إلى حوته الذي اتخذ سبيله في البحر سرباً[4] ولحمه نافع من الحصى مقوي للباه[5] وهو يوجد بالبحر قريب جبل سبته المعروف بجبل موسى عليه السلام[6]، وبه رمال تنبط منها الماء العذب. وتنبعث من أجرافٍ على ضفة البحر ولقرب سبته من الزقاق الذي منه البحر الشامي، يقال للبحر الشامي البحر السبتي، وكانت سبته دار ملك للعرقيين حتى أخذها بنو مرين تقرب بها صاحبها إبراهيم إلى السلطان أبي سعيد، وتغلب له عليه صاحبها محمد بن القائد علي العزقي وأخذها بالملاطفة بالسيف وسلمها إليه وعوضهم عنها بما أرضاهم من الإحسان والضياع والمرتبات العظيمة، وأقاموا معه بفاس ملحوظين بالإكرام والتقديم.

ثم نذكر طنجة[7] لأنها لا يخلو مصنف في هذا الشأن من ذكرها لأنها كانت دار ملك قديم وذكر شائع، وهي مدينة مسورة متقنة على ساحل بحر الزقاق، وهو محط السفن

---

(١) . إشارة إلى أول مصنفي كتاب المغرب في حلى المغرب، وكلامه هذا ضمن القسم المفقود من الكتاب.

(٢) . تبلغ المسافة التي تفصل سبتة عن الأندلس ١٨كم، وفي مواضع أخرى ١٢ كم. انظر. بني ياسين. بلدان الأندلس: ٣١٠.

(٣) . وردت في النص بلبوس. وأثبتناها كما وردت في المصادر وهي: قرية كبيرة تقع بالقرب من سبتة وكان يوسف بن عبد المؤمن قد أمر سنة ٥٨٠هـ بجلب الماء إلى سبتة من هذه القرية. انظر البكري. المسالك: ٧٨٣/٢، الحميري، الروض: ١٠٣، مجهول، الاستبصار: ١٣٧.

(٤) . الكهف: ٦١.

(٥) . انظر حول السمك وصيده: الإدريسي، نزهة: ٥٢٩/٢، الحميري. الروض: ٣٠٣.

(٦) . ذكر الإدريسي أن جهة الغرب من سبتة جبل موسى وهذا الجبل منسوب لموسى بن نصير الذي افتتح الأندلس. انظر الإدريسي، نزهة: ٥٢٨/٢.

(٧) . انظر: الإدريسي، نزهة المشتاق: ٥٢٨/٢، البكري، المسالك: ٧٨٠/٢: المجهول، الاستبصار: ١٢٨، الحميري. الروض: ٣٩٥.

اللطاف، وكانت قاعدة تلك الجهات قبل الإسلام، وجرى في الكتب القديمة المصنفة في هذا الشأن ذكرها. وهي كثيرة الفواكه وخصوصاً العنب والكمثرى[1] وأهلها مخصوصون ومشهورون بقلة العقل وسخف الرأي[2] على أن ابا الحسن ابن بيّاع الصنهاجي الطنجي منها. وقد اثنى عليه الفتح صاحب قلائد العقيان فقال: طود سكون ووقادٍ، وروضة نباهةٍ يانعةُ الأزهار. ووصفه بالعلم وبالبلاغة والطب[3]. أنشد له اشعاراً منها يصف روضة ممطورة[4]:

وقفت عليها السُحبُ وقفة راحمٍ	فبكت لها بعيونها وقلوبها
فعجبت للأزهار كيف تضاحكت	ببكائها وتباشرت بقطوبها

وقوله[5]:

لقد جَشَّمتَ بقلبك متلفات	بكل ثنية منها صريع
وقد تحمي الدُروع من العوالي	ولا تحمي من الحدق الدروع

ومن أهل طنجة أيضاً: أبو عبد الله محمد بن أحمد الحضرمي الطنجي القائل:

فؤادي وإن رموا الحمول حمول	ودمعي وإن بثوا الوصول وصول
ولم يروا بين كالقرام بدمعة	فافا سكتنا والدموع تقول
وقالوا رحيل كان قلنا فإنه	حياة لها عنى نوى ورحيل
وظنوا بتوديع وحادوا بتركه	ورب دواء مات منه عليل

وقد ذكرنا فيما ذكرنا فيما ذكره صاحب القلائد واخرجنا للتقليب هذه الفوائد لنعرف

(١) . الوزاني، وصف أفريقيا: ٣١٥، القلقشندي، صبح الأعشى: ٥/١٦٥.

(٢) . تنسب المصادر الحمق وقلة العقل لمن شرب من مياه عين ماء في طنجة تدعى برقان. يحدث الحمق لصاحبه ولذلك يعيرون بذلك فيقال لمن تهافت منهم: شربت ماء برقال لا جناح عليك وقال الشاعر:

بطنجة عين ماء وسط رمل	لذيذ ماؤه كالسلسبيل
خفيف وزنه عذب ولكن	يطير بشاربيه ألف ميل.

انظر: الحميري، الروض: ٢٩٦.

(٣) . ابن خاقان. قلائد العقيان: ٢/٦٩٥.

(٤) . ابن خاقان. قلائد العقيان: ٢/٦٩٦.

(٥) . ابن خاقان. قلائد العقيان: ٢/٧٠٣.

به أن من طنجة على ما نسب إلى أهلها من الحمق من هذا عنوان عقله وبيان فضله.

ثم نذكر سِجِلماسَة[1] لأنها من أجل مدن بر العدوة، وهي باب الصحراء إلى أرض السودان، وبلاده مفازة الذهب ولموقع عجيب في زرعها سنذكرها بمشئية الله تعالى فأول ما نقول: إن سجلماسة مدينة جليلة في جنوبي بر العدوة متصلة بالصحراء الكبيرة، من أكبر مدن الغرب، وأشهرها ذكراً في الآفاق عليها نهر كبير[2] ذات قصور مشيدة وأبنية عليه وأبواب رفيعة، صحيّحة الهواء لمجاورة للبيداء، وأرضها سهلة سبخية، ولها أرباض كثيرة مخصوصة بأن لا يجدوا أحداً من أهلها لكن يلحقهم رطوبة في أجفانهم وبها نخيل كثير تمره على أصناف يحمل منه إلى عامة الغرب، ويفضل ثمرها ما سواه حتى يضاهي به تمر العراق، وبتمرها يضرب في الغرب المثل. ولها بساتين خضرة نضرة على قشف مساكنها وجفاء سكانها.

قال ابن حوقل[3]: ونهرها يزيد في الصيف كزيادة النيل ويزرع بمائه مثل زرع مصر وربما زرعوا الزرع ثم حصدوه ويبقى جذره في الأرض إلى السنة الآتيه ثم يسقى فيطلع ويحصدها كذا سبع سنين يستغل سبع مغلات ببدار واحد.

قال ابن سعيد: قال الجدلي: مغل أول سنة هو القمح ثم المغلات الباقية. السلت وهو ما بين الحنطة والشعير، قال ابن سعيد: وأهلها مياسير ولهم متاجر إلى بلاد السودان، قال: ولقد رأيت صكاً فيه حق على رجل من سجلماسة لآخر من أهلها باثنين وأربعين ألف دينار[4].

ومدينة سجلماسة آخر العمران ليس قبليها عمران بل منها يدخل التجار إلى بلاد السودان بالملح والنحاس والودع. ويعودون بالذهب وليس بعدها إلاّ تابلبلت في البرية إلى أولاتن وبينهما المفازة العظمى وهي أربعة عشر يوماً لا يوجد بها ماء ولا يدخلها إلاّ الإبل المصبرة على الظمأ، وهي أرض موحشة الأقطار. مجهولة المسالك، لايحمل سالكها على ركوب خطرها إلا الفائدة العظيمة على السودان. فإنهم يتوجهون بما لا قيمة له. ويعودون

---

(١) . انظر: الحميري. الروض: ٣٠٥. الإدريسي. نزهة: ٢٢٥/١. مجهول. الاستبصار: ٢٠٠. البكري. المسالك: ٨٣٥/٢. ابن سعيد، الجغرافية: ١٢٤.

(٢) . نهر يقال له: نهر زيز.

(٣) . ابن حوقل، صورة الأرض: ٩٠. قارن: الإدريسي. نزهة: ٢٢٥/١. الحميري، الروض: ٣٠٥.

(٤) . قارن بالقلقشندي. صبح الأعشى: ١٥٩/٥.

بالذهب الصامت وقر ركائبهم(1).

وأما زي هذا السلطان وزي الأشياخ وعامة الجند، فهي عمائم طوال رقاق، قليلة العرض من كتان، ويعمل فوقها إحرامات يَلُفُّونها على أكتافهم من الجباب، ويتقلدون بالسيوف تقليداً بدوياً، والاخفاف في أرجلهم وتسمى الأنمقة والمهاميز، ولهم المضمات وهي المناطق، ولكنهم لا يشدونها إلاّ في يوم الحرب أو يوم التمييز، وهو يوم عرض سلطانهم لهم، وتعمل من فضة ومنهم من يعملها ذهباً ومنها ما يبلغ ألفي مثقال، ويختص سلطانهم بلبس البرنس الأبيض الرفيع، لا يلبسه ذو سيف سواه، فأما العلماء وأهل الصلاح واسمهم عندهم المرابطون، فإنهم لا حرج عليهم في لبسه. هذا ما في البرانس البيض، فأما سائر الألوان فلا حرج عليهم في لبسها كائناً من كان(2).

ولا يدق طبل لأحد في سفر ولا حضر إلاّ للسلطان خاصة لا غير، حكى لي السلالجي: إن بعض أرباب الحلق من مصر دخل إلى فاس، وعمل بها حلقة وبقي يدق بطبله له على عادته وعادات أرباب الحلق، فحصل عليه الإنكار وأمر بإبطاله، وضرب الطبول محفوظ لأهل بيت خاص بهم من أهل مراكش، هذا لبس ذوي السيوف.

فأما القضاة والعلماء والكتاب وعامة الناس فقريب من هذا الزي إلاّ أن عمائهم خضر ولا يلبس أحد منهم الأنمقة وهي الأخفاف في الحضر، فأما في السفر فلا جناح منهم على من لبسها وليس لهؤلاء سيوف(3).

ومن عادة هذا السلطان أن يعرض جنده في رأس كل ثلاثة أشهر ليعرف منهم الحاضر والغائب والقادر والعاجز، فيخرج إلى مكان معد لهذا بظاهر قصوره، ويجلس على علو في ذلك المكان ويجلس تحته الكتاب، ويستدعي عسكره بالأسماء اسماً اسماً، ويقابل على أسمائهم وحلاهم، ثم يصرف على كل واحد منهم راية. هذا للجند الأندلسيين الذين يرمون بقوس الرجل والفرنج، وأما سائر العسكر فلهم إقطاعات وبلاد وإحسان من رأس السنة إلى رأس السنة، والراتب يُسمى بإفريقية البركة ويسمى بمصر والشام النقد أو الإقطاع ولكن لا تقاس إفريقية بها في هذا، ولا يعرف في هذه المملكة ما هم الأمراء اسماً لامعنى كما هو بمصر وإيران بل الأشياخ الكبار والصغار كما تقدم القول فيه في افريقية

(1) . قارن القلقشندي، صبح الأعشى: 5/159.

(2) . القلقشندي، صبح الأعشى: 5/197-198.

(3) . قارن بالقلقشندي، صبح الأعشى: 5/198.

فإنه ليس في الغرب من يطلق عليه هذا الاسم كما يعرف في مصر والشام أن هذا الاسم يصدق على حقيقة رجل له عدة من الجند.

قال أبو عبد الله محمد بن محمد السلالجي: والذي للأشياخ الكبار على السلطان يكون لكل واحد منهم في كل سنة عشرون ألف مثقال من الذهب في كل سنة يأخذها من قبائل وقرى وضياع ويتحصل له من القمح والشعير والحبوب في تلك البلاد نحو عشرين ألف وسق. وفي كل سنة حصان بسرجة ولجامه وسيف ورمح مُحَلَّيان، وسَبنِيَّة وهي بقجة قماش فيها ثوب وحش طرد وحش مذهب اسكندري ويسمى عندهم الزردخانة، وثوبان بياض من الكتان عمل إفريقية وإحرام وشاش طوله ثمانون ذراعا. وقصبتان من ملف يعنى من الجوخ من أي لون كان وربما يزيد الأكابر وربما ينقص من لم يلحق بهذه الرتبة من أصاغر الأشياخ. وأما الأشياخ الصغار فيكون لهم من الراتب والمجاسر نصف ما للأشياخ الكبار والحصان المسرج الملجم والسيف والرمح والكسوة. ومنهم من لا يلحق بهذه الرتبة فيكون أنقص(١).

وأما ما للجند فأعلى طبقات الجند المقربين إلى السلطان فيكون للرجل منهم ستون مثقالاً من الذهب في كل شهر وقليل ما هم، وأما المعظم فأعلى طبقتهم من يكون له في الشهر ثلاثون ثم دونها إلى أن تتناهى إلى أقل الطبقات وهي ستة مثاقيل في كل شهرٍ هذا المستقر لهم وليس لأحد منهم بلد ولا مزدرع. قال: وجميع أرزاقهم ناضة إليهم، ميسرة عليهم(٢).

قال: ومن عادة هذا السلطان أن يجلس في بكرة كل يوم. ويدخل عليه الأشياخ الكبار وهم في دولته بمنزلة أمراء التوامين بإيران ومقدمي الألوف بمصر ليسلموا عليه ثم يمد لهم سماط ثرائد في جفان وحولها طوامير، وهي المخافي فيها أطعمة ملونة منوعة ومعها الحلواء منها ما هو السكر قليل وجمهور ما يعمل من العسل من الحلوى بالزيت فإذا أكلوا الطعام تفرقوا إلى أماكنهم، وربما ركب السلطان بعد هذا فأما أُخريات كل نهار فقل أنٍ لا يركب إلى نهر هناك بعد العصر ويخرج إلى مكان فسيح من الصحراء فيقف به على نشز ويركب العسكر حوله وتتطارد قدامه الخيل، فتتطاعن الفرسان. وتتداعى الأقران وتمثل الحرب

(١) . قارن بالقلقشندي، صبح الأعشى: ١٩٨/٥.

(٢) . قارن بالقلقشندي، صبح الأعشى: ١٩٩/٥.

لديه، وتقام صفوفها المرصوصة بين يديه كأنه حقيقة يوم الحرب واللقاء على سبيل التمرين ثم يعود في موكبه إلى أماكنهم ويحضر العلماء والفضلاء والأعيان إلى مسامرته، ويمد لهم سماط بين يديه ويؤاكليهم في ذلك الوقت، لكاتب سره معه خصوصية اجتماع للأخذ في المهم وعرض القصص والرقاع. ويبيتون عنده أكثر الليالي إلاّ كاتب السر فإنه في بعض الليالي قد يأمره بالمبيت فيبيت بخاصته(١).

وأما هيئة جلوسه للمظالم فإنه يجلس على فرش مرفوعة في قبة معلومة للجلوس له، بحضرته الأشياخ مقلدين لسيوفهم. فأما من ليس له هذه الرتبة. ولا له وضع من ذوي السيوف فإنهم إذا ادخلوا إلى مجلس السلطان. وقفوا بعيداً منه مصطفين متكئين على سيوفهم، واذا أراد صاحب الشكوى إبلاغ شكواه، وهذا إنما يكون حين ركوبه وظهوره، صاح من بُعدٍ: لا إله إلا الله انصرني نصرك الله، فيعلم أنه شاكٍ فتؤخذ قصته وتعطى لكاتب السر، فاذا رجع إلى مقره اجتمع مع كاتب سره وقرأ عليه تلك القصة وغيرها، فينظر في ذلك بما رآه(٢).

واذا سافر السلطان وخرج من قصره ونزل بظاهر بلده، وارتحل من هناك ضرب له طبل كبير قبيل الصبح إشعاراً بالسفر. فيتأهب الناس. ويشتغل كل أحد بالاستعداد للرحيل فاذا صليت صلاة الصبح ركب الناس على قبائلهم وطبقاتهم ومنازلهم المعلومة، ووقفوا في طريق سلطانهم صفاً بجانب صف ولكل قبيل وجند علم معروف به، ومكان في الترتيب لا يتعداه فإذا صلى السلطان الصبح قعد أمام الناس ودارت عليه ماله من العبيد والوصفان والعذبين الذين هم كالنقباء ويجلس حوله ناس يعرفون بالطلبة يجري عليهم ديوانه يقرؤون حزباً من القرآن الكريم، ويذكرون شيئاً من الحديث الشريف النبوي على قائله أفضل الصلاة والسلام، فاذا أسفر الصبح ركب وتقدم أمامه العلم الأبيض الذي هو سعد الدولة ويقال له المنصور وبين يديه الرجالة بالسلاح والخيل المجنوبة ببراقع الوشي، والبراقع من ثياب السروج وعندما يضع السلطان رجله في الركاب يضرب في طبل كبير ثلاث ضربات يقال له تريال إشعاراً بركوبه ثم يسير السلطان بين صفي الخيل ويُسلم كل صف عليه بأعلى صوته سلام عليكم ويكتفانه يميناً ويساراً وحينئذ تضرب جميع الطبول إلى تحت البنود

(١) . قارن بالقلقشندي، صبح الأعشى: ٥/ ٢٠٠.

(٢) . قارن بالقلقشندي: صبح الأعشى: ٥/ ٢٠٠.

الكبار الملونه خلف الوزير على بعد من السلطان، وربما ركب إلى جانبه ولا يتقدم راكب إلاّ عن بعد كبير أمام العلم الابيض إلاّ من يكون من خواص علوجه وربما يأمرهم بالجولان بعضهم على بعض ثم ينقطع ضرب الطبول إلى أن يقرب من المنزل فاذا قرب السلطان من المنزل، وضربت الطبول تتقدم الزمالة الى المنزل. وهؤلاء هم الفراشون وتضرب شقة من الكتان في قلبها جلود تقوم بها عصى وحبال من القنب في أوتاد وتستدير على كثير من أخبية وبيوت الشعر الخاصة به وبعياله وأولاده الصغار. وتكون هذه الشقة كالمدينة لها أربعة أبواب في كل جهةٍ باب ويحف به عبيده وعلوجه ووصفانه(١).

قال السلالجي: وهؤلاء بني مرين أكثر ميلهم إلى بيوت الشعر على عادتهم الاولى في البدواة مع أنهم اليوم أشياخهم من ضرب أخبية كثيرة مع البيوت ولهم في ذلك تنافس. قال: ويضرب السلطان أمام ذلك قبة كبيرة مرتفعة من كتان تُسمى قبة الساقة لجلوسه للناس فيها وحضورهم عنده بها، وإذا ركب هذا السلطان لا يسايره إلاّ بعض الأشياخ من بني مرين أو بعض عظماء العرب وكثيراً ما إذا استدعى أحداً لا يجيء إليه إلا بأشياء، فربما حدثه وهو ماش معه، وربما أكرمه فأمره أن يركب وإذا عاد السلطان إلى حضرة ملكه ضربت البشائر له سبعة أيام وأطعم الناس طعاماً شاملاً من موضع يسع الجماهير(٢).

وشعار هذه المملكة هو اللواء الابيض المقدم الذكر وهو المسمى عندهم العلم المنصور كما وصف وهو أبيض مكتوب بالذهب نسيجاً من الحرير أي من القرآن بدائر طرته وحوله أعلام مختلفة الألوان. ومن شعاره إذا ركب في سفره من مدينة أو يوم دخوله أو في عيد أن يركب الأشياخ حوله، وقدامه محمول سيف ورمح وترس وهي الدارتة عندهم يحملها ثلاثة من خاصته من الوصفان وهم من خدمة السلطان أو من أبناء خدم أسلافه وحوله من أهل الأندلس رجالة بأيديهم الضربيات وهي كالأطبار، وقواد النصارى الكبار بأيديهم ذلك، وهم خلفه وقدامه خمسون نفراً مشاة وأوساطهم مشدودة بأيديهم رماح طول. وهم خلفه وقدامه، وبأيديهم رماح طوال ورماح قصار بيد كل واحد منهم اثنان، طويل وقصير وكلٌّ منهم مقلّدٌ مع ذلك بسيف وامامه الجنائب وتُسمى عندهم المقادات يجرها أناس مشاه وهي مسرجة ملجمة وعلى السروج براقع حرير منسوجة بالذهب الذهب وهي ثياب

---

(١) . قارن بالوصف الدقيق الذي قدمه الوزاني في وصف أفريقيا: ٢٩٠-٢٩١ عن هيئة سفر السلطان. والقلقشندي، صبح الأعشى: ٢٠٢/٥.

(٢) . قارن بالقلقشندي، صبح الأعشى: ٢٠٢/٥-٢٠٣.

السروج، والسروج مخروزة بالذهب خرزاً شبيهاً بالزركش وركبها ذهب مسبول زنة ركابي السرج ألف مثقال ذهباً. فأما تحلية السروج بالأطواق وما يجري مجراها فإنه لا يعرف عندهم(١).

ومن عادته في العيدين أن لا تضرب الطبول خلفه إلاّ بعد أن يفرغ من الصلاة والخطبة. قال السلالجي: وفي ليلة العيدين أو ليلة ورود السلطان على حضرته ينادي والي البلد في أهلها بالميز ومعناه أن أهل كل سوق يخرجون ناحية ومع كل واحد منهم قوس أو آلة سلاح متجملين بأحسن الثياب ويبيت تلك الليلة الناس أهل كل سوق بذاتهم خارج البلد، ومع أهل كل سوق علم يختص بهم عليه رنك أهل تلك الصناعة بما يناسبهم فإذا ركب السلطان بكرة اصطفوا صفوفاً يمشون قدامه وركب هو والعسكر ميمنة وميسرة والعلوج خلفه ملتفين به والأعلام منشورة وراءه والطبول خلفها حتى يصلي ثم يعود فينصرف أرباب الأسواق إلى بيوتهم ولا يحضر طعام عيد السلطان إلا خواصه وأشياخه وله طعام عام يحضره الضعفاء والمساكين(٢).

وسألت أبا عبد الله السلالجي عن أرزاق القضاة والكتاب عنده فقال: أما قاضي القضاة فله في كل يوم مثقال من الذهب، وله أرض يسيرة بزرع فيها ما يجيء منه مؤنته وعليق دوابه، وأما كاتب السر وهو الفقيه الإمام العالم الفاضل أبو محمد عبد المهيمن بن الحضرمي فله كل يوم مثقالان من الذهب وله محيّران في قريتين يتحصل منهما متحصل جيد وله رسوم كثيرة على البلاد ومنافع وإرفاقات ولكل واحد منهما في كل سنة بغلة بسرجها ولجامها وسبينة قماش برسم الكسوة نظير ما للأشياخ الكبار إلاّ الثوب الزردخاناه يعني الطرد وحش. قال: وهذان هما المبينان والبقية لا أعرف ما لهم ولكن لا نسبة لأحد إلى هذين الرجلين، وإنما أعلم أنه تطلق الرواتب من المحارث والأرض للفقهاء والعلماء والفقراء والحساء وهم أرباب البيوت(٣).

وأما ما يكتب عن هذا السلطان فمن عادته أنه إذا كتب عنه كتاب يُكتبْ في أوله بخط الكاتب بعد بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم من أمير المسلمين المجاهد بهم في سبيل رب العالمين أبي سعيد عثمان بن أمير المسلمين المجاهد بهم

(١) . قارن بالوزاني، وصف أفريقيا: ٢٩٠، القلقشندي، صبح الأعشى: ٢٠٠/٥.

(٢) . قارن بالقلقشندي، صبح الأعشى: ٢٠١/٥.

(٣) . قارن بالقلقشندي، صبح الأعشى: ١٩٩/٥.

في سبيل رب العالمين أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق فإذا انتهى الكتاب إلى آخره وختمه الكاتب بالتاريخ كتب هذا السلطان بخطه في آخره ما صورته وكتب في التاريخ المؤرخ به[1].

قال أبو عبد الله السلالجي: ولم يكتب أحد من ملوك بيته هذا بيده بل كان كاتب السر هو الذي يكتب هذا، إلاّ هذا السلطان أبو الحسن وأخوه أبو حفص عمر حين حياته هذا مع وثوقه العظيم بكاتب السر الفقيه الفاضل أبي محمد عبد المهيمن ابن الحضرمي[2] واعتماده عليه ومشاركته في أمر له.

أما هذا السلطان أبو الحسن في ذاته فإنه ممن أصلح الله باطنه وظاهره، وعمّر بالتقوى قلبه وسائره العلماء ويواسي الفقراء، معدود في أبطال الرجال وشجعانه ترد علينا من أخباره ما يراوح النسيم ويفاوح التسنيم تدارك الله به أهل الأندلس وقد جاذبت معاقليم الكفار وثبت مدنهم وهي على شفا جرف هار، قد أجرى الله على يديه أجر بقائها في يد الإسلام واستوقف به طغانيها. وقد أذنت بسلام وهو في هذا الطرف ماسك بأوتاده سالك فيه سبيل جهاده راد لأعداء الله عن مُنى أطماعهم ما لاذ به خائف إلاّ أجاره ولا أمله آمل فخاب ظنه، قد وسع الخلق بخلقه وجمع أممهم على ما أطعمه الله من رزقه، ولقد حدثني غير واحد عن خلقه وخلائقه الرضية وآثاره الوضية وكمالاته التامة، وفضائله المنتقية المرضية ما لحق به من سَلف من السلف. وهو من لا يثنى له عن الجهاد عنان، ولا يغمد له سيف ولا سنان حتى يسترد باقي ضالته المفقودة، وما استولى عليه العدو من الأندلس من البلاد، وجدير بمن هذه نيته أن يسهل الله له بلوغ مرامه، واستكمال ما بقي في أيامه وهو رجل قتل الأيام وقتل غارب الأنام، وخالط العلماء وتأدب بآدابهم وخالل الشجعان وزاد عليهم، لو صدع الحجر لأنفذه أو صرف المزدي من السماك لأنقذه، لا يلتفت طرفه إلى ما نبذه ولا إلى ما تركه من الدنيا أو ما أخذه، فلو رمى البحر لما زخر زاخره أو قذف الزمان لما دارت دوائره، وقد أحيا حوله من صنع آبائه ومن أتبعهم بهم من صنائعه، أسود غيل وجنود صرير وصليل، لا يدرأهم مدى جبل إلى إجابه صريخ، ولا يخبرهم بألطاف المتجدد مسمع فرس يصيخ بهممٍ غطت على من تقدم وأنست عنتر، والرِماح كأنها أشطان بئر في لبان الأدهم.

---

(1) . قارن بالقلقشندي، صبح الأعشى: ٥/٢٣.

(2) . توفي سنة ٧٤٩هـ / ١٣٤٨م. انظر: أبن أبي الضياف، الإتحاف: ١/١٧٧.

وأما كيفية انتقال الملك إليه فنقول وبالله التوفيق: إن هذا السلطان ولد بفاس سنة ست وثمانين وستمائة وأخذ الملك عن أبيه أبي سعيد عثمان كان قد عهد إليه لما غضب على أخيه أبي علي عمر. وكان عمر المرشح عند أبيه أولاً حتى خرج عمر على أبيه وغلبه على فاس ثم أخذها أبوه منه وحاصره في المدينة البيضاء مقدار خمسة أشهر، وكان عمر في هذه المدة ضعيفاً، فدخل العلماء والصلحاء بينهما فأعطاه سجلماسة، وأصار ولاية العهد إلى هذا السلطان أبي الحسن علي ثم تغير عليه بسبب جرحه لقمر خادمه، وهي التي بيدها مفاتيح بيت المال، وذلك أن أباه أبا سعيد عثمان سافر لزيارة ضريح سلفه بشالة وهو موضع على مقربة من سلا، ونزل ولده علياً خلفاً منه بفاس فاحتاج إلى شيء هو في بيت المال فأراد أخذه، وطلب من قمر المهاجرة المفاتح فأبت أن تمكنه من ذلك، ولا أن تبلغه هنالك فاغتاظ عليها وجرد سيفاً كان معتقلاً به فجرحها فبلغ ذلك أباه فغاظه ما سمع فكتب كتاباً وأمر بعض الأشياخ بمسيهة إليه يأمره فيه بالخروج من البلد الجديدة وسكناه بقصبة البلد العتيقة برأسه ليس إلاّ على فرسه وأن لا يركب معه أحد من جيشه وسلبه عن كل شيء فلما بلغه الكتاب وهو في قصره حيث جلوسه للناس قرأه وعرف ما فيه فأخذه وألقاه على رأسه وقبله بفيه، وخرج من حينه إلى الموضع الذي رسم له فيه وبقي محجوراً مدة إلى أن دخل العلماء والصلحاء والخطباء والأعيان فشفعهم فيه ورضي عنه وأعاده إلى ولاية العهد ثم أن أباه توجه على قصد تلمسان بسبب وصول الأمير أبي زكريا يحيى صاحب بجاية إليه لاستنجاده لهم على ما تقدمت إليه الإشارة على عدوهم المحاصر لهم فعرض له المدخل وصده عن الوصول إلى تلمسان ضعف أصابه في طريقه فرجع إلى مدينة تازى وهناك وصله ابنه الأمير أبي بكر في الأسطول الذي بعثه إليها فرجع إلى فاس واشتد به المرض فمات بعقبة البقر قريب فاس وحين مات والده وقف أبو الحسن راكباً على فرسه حتى بايعه الناس ثم دخل فاساً ودفن أباه وجلس موضعه واستقل بالملك وكتب إلى أخيه عمر يعزيه بأبيه ويقره على حاله، فأبى عمر وخرج على أخيه أبي الحسن فجهز إليه أبو الحسن ولده يعقوب ثم أنه في آخر الأمر قصده بنفسه بالجيوش والعساكر وأراد أن يقبض عليه ثم دخل بينهما العلماء وأهل الصلاح فعفى عنه وأقره على حاله وكتبت بينه وبينه وثيقة مشهودة بذلك ثم بعد ذلك خرج أبو الحسن قاصداً إلى تلمسان فمال أخوه عمر إلى ممالأة أهل تلمسان عليه، فضرب أبو الحسن وجهه عن تلمسان إلى سجلماسة قاصداً لأخيه عمر فحاصره مدةً ثم

أنه دخل عليه سجلماسة وأمسكه قبضاً باليد ووجده قد ارتكب فظائع من المحرمات مثل قتل عمه أبي البقاء يعيش، وجمع بين حرائر ذات عقود أزيد مما أباحت الشريعة، فاستفتى أبو الحسن عليه العلماء فأفتى بقتله ففصده في يديه وتركه ينزف دمه حتى مات، واستقل حينئذٍ أبو الحسن ورست قواعد أركانه وانتشرت أعلام سلطانه ووالده أبو سعيد ورث الملك عن أمير المسلمين أبي الربيع سليمان بن عبد الله بن أمير المسلمين أبي يعقوب يوسف بن أمير المسلمين أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق، وأبو الربيع ورث الملك عن أخيه لأبيه أمير المسلمين أبي يوسف يعقوب وأبو يحيى ورث الملك عن أبي يعقوب يوسف أمير المسلمين، وأبو يعقوب ورث الملك عن أبيه أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق، وهو أول من استقل بالملك من ملوك بني مرين. وكان أصل انتقال الملك إليهم أن دولة الموحدين بمراكش كان قد انحل عقد نظامها، وأنشل عقد أيامها لإنهماك آخرهم على اللذات وتشاغلهم بها عن الأخذ بالحزم في الأمور، وكانت قبائل بني مرين رحالة نزالة أهل بادية، ذوي بأس ومنعة فثار فيهم أبو يحيى بن عبد الحق وجمع الجموع وتغلب على فاس فملكها وملك غيرها من البلاد ثم مات أبو يحيى بن عبد الحق فقام أخوه أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق، فقصد مراكش فخرج إليه أبو دبوس أبو العلي إدريس، فقتل أبو دبوس وهو آخر من كان قد انتهى إليه الملك من بني عبد المؤمن بن علي، ومن يومئذٍ ظهرت دولة بني مرين واستقل سلطانهم بالمغرب الأقصى(١).

---

(١) . قارن بالقلقشندي، صبح الأعشى: ٥/ ١٩٠-١٩٦.

الباب الرابع عشر
الممالك الإسلامية
الأندلس



الباب الرابع عشر
في مملكة الأندلس

المملكة الإسلامية حماها الله تعالى، طول مسافتها عشرة أيام وعرضها ثلاثة أيام[(١)] وسلطانها الآن أعنى عام ثمانية وثلاثين وسبعمائة هو يوسف بن إسماعيل بن فرج بن نصر[(٢)] مستقره غَرْنَاطَة، وهي الآن دار هذه المملكة، وأضخم بلادها. مدينة كبيرة مستديرة. رائقة المنظر. كثيرة الأشجار والأمطار والأنهار والبساتين والفواكة، قليلة مهب الريح لا تجري بها الرياح إلاَّ نادراً لاكتناف الجبال إياها[(٣)]، وأصل أنهارها نهران عظيمان شنيل وحَدَرَّة[(٤)].

أما شنيل فينحدر من جبل شُلَير[(٥)] بجنوبها وهو طود شامخ لا ينفك عنه الثلج شتاءً ولا صيفاً فهو لذلك شديد البرد[(٦)]، وغرناطة كذلك في الشتاء بسببه إذ ليس بينها وبينه سوى عشرة أميال. وفي برد غرناطة يقول ابن صدرة[(٧)]:

أَحَلَّ لنا تَرك الصلاة بأرضكم	وشرب الحميا وهو شيء محرم
فراراً إلى نار الجحيم أرق	علينا من شلير وأرحم[(٨)]
لئن كان ربي مدخلي في جهنم	ففي مثل هذا اليوم طابت جهنم

وفيه عيون ماء كثيرة وأشجار مختلف ألوانها وخصوصاً التفّاح والقراسيا البعلبكية التي

---

(١). اقتصرت مملكة الأندلس في القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي على مملكة بني نصر (الأحمر) في غرناطة، وهي تقع في الجنوب الشرقي لإسبانيا، وتعد الآن ولاية عاصمتها غرناادا. انظر عنها: يوسف بني ياسين. بلدان الأندلس: ٣٨٨.

(٢). يوسف الأول حكم مملكة غرناطة من سنة (٧٣٣-٧٥٥هـ/١٣٣٣-١٣٥٤م). انظر عنه: ابن الخطيب، الإحاطة:٤/٣١٨.

(٣). انظر وصف غرناطة المعاصر لابن فضل الله العمري في ابن بطوطة، الرحلة:٤/٢٢٠. وانظر عنها: الزهري. الجغرافيا:٩٤؛ ياقوت، معجم البلدان:٤/١٩٥.

(٤). ذكر ابن بطوطة، الرحلة:٤/٢٢٠ نهر شنيل فقط. وانظر عن النهرين شنيل وحدّرة، ياقوت، معجم:٤/١٩٥.

(٥). جبل يقع جنوب غرناطة ووادي آش على فرسخين منها. انظر عنه: ياقوت، معجم: ٣/٣٦٠؛ ابن الخطيب. الإحاطة: ١/٩٦.

(٦). ابن الخطيب، الإحاطة:١/٩٦؛ الإدريسي، نزهة المشتاق:٢/٥٦٩.

(٧). ورد الشعر في ياقوت. معجم:٣/٩٦. والقزويني. آثار البلاد:٥٠٥ دون نسبة لأحد، ونسبه هنري بيريس. الشعر الأندلسي:٢١١ للشاعر ابن سارة. وانظر ايضاً حوله يوسف بني ياسين. بلدان الأندلس:٣٥٢.

(٨). البيت مكسور الوزن وورد في المصادر السابقة هكذا:

فراراً إلى نار الجحيم فإنها   أخف علينا من شلير وأرحمُ

لا توجد في الدنيا منظراً وحلاوة حتى أنها ليعصر منها العسل، وبها الجوز والقسطل والتين والأعناب والخوخ والبلوط وغير ذلك[1]. وبذلك الجبل عقاقير كعقاقير الهند وعشب يستعمل في الأدوية يعرفها الشجاروت لا توجد في الهند ولا في غيره، ويمر شنيل على غربي غرناطة إلى فحصها يشق منها أربعين ميلاً بين بساتين وقرى وضياع كثيرة البيوت والعلالي وأبراج الحمام وغير ذلك من المباني[2]، وينتهي فحصها إلى لَوْشَة[3] حيث أصحاب الكهف على قول.

وأما حَدَرّه فينحدر من جبل بناحية مدينة وادي آش[4] شرقي شُلير فيمر بين بساتين ومزارع وكرمات إلى أن ينتهي إلى غرناطة فيدخلها على باب الزقاق بشرقيها يشق المدينة نصفين تُطحن به الأرحاء بداخلها وعليه بداخلها قناطر خمس، قنطرة ابن رشيق وقنطرة القاضي وقنطرة حمام جاش والقنطرة الجديدة وقنطرة العوذ، وعلى القناطر أسواق ومباني محكمة والماء يجري من هذا النهر في جميع البلد في أسواقه وقاعاته ومساجده يبرز في أماكن على وجه الأرض يخفي جداوله تحتها في الأكثر وحيث طلب الماء وجد، قلعتها حيث سلطانها تعرف بالحمراء وهي بديعة متسعة كبيرة المباني الضخمة والقصور وظريفة جداً يجري بها الماء تحت بلط كما يجري في المدينة فلا يخلو منه مسجد ولا بيت، وبأعلى البرج منها عين ماء وجامعها وجامع المدينة من أبدع الجوامع وأحسنها بناءً وتعلق بجامع الحمراء ثريات الفضة وبحائط محرابه أحجار ياقوت مرصوفة في جملة ما نُمِّقَ به الذهب والفضة ومنبره عاج وأبنوس، وبالمدينة جبلان يشقان وسطهما وبهما دور حسان وعلالي مشرفة على الفحص فترى منظراً بديعاً من مزدرعاته، وفروع الأنهار تشقها، وغير ذلك مما يقصر عنه التخيل والتشبيه يعرف أحد الجبلين بالجرة ومورور ويعرف الثاني بالقصبة القديمة وبالسند، وهنالك برج الديك عليه ديك نحاس رأسه رأس فرس وعليه صورة راكب

---

(١). انظر عن ثمار غرناطة. ابن الخطيب، الإحاطة:١/١٢٠؛ المقري. نفح الطيب: ١/١٧٧.

(٢). انظر حول ذلك: المقري. نفح الطيب:١/١٧٧.

(٣). لوشة: بلدة أندلسية تقع إلى الغرب من غرناطة. وإلى الجنوب الشرقي من قرطبة، وتبعد عن غرناطة نحو ٥٠كم. انظر: يوسف بني ياسين، بلدان الأندلس: ٤٥٦.

(٤). وادي آش: هي مدينة الآشات. وتقع على السفح الشمالي لجبل شلير. وهي اليوم مركز إداري في مديرية غرناطة تقع على بعد ٥٣كم شمال شرقي غرناطة. انظر: يوسف بني ياسين، بلدان الأندلس: ١٧٥.

بحربة ودرقة من حيث هبت الريح دار وجه الراكب[1] وباقي المدينة وطيء، ولها ثلاثة عشر باباً باب البيرة وهو أضخمها. وباب الكحل وهو باب الفخّارين، وباب الخندق، وباب الرضا، وباب المرضى، وباب المصرع، وباب الرملة، وباب الدباغين، وباب الطوابيت[2]. وباب الخندق، وباب الدفات، وباب البنود، وباب الأبندر، وحول اغرناطة أربعة أرباض: ربض الفخارين، وربض الأجل وهو كثير القصور والبساتين وكلا الربضين يلي شنيل، وربض الرملة، وربض البيازيين الذي بناحية باب الدفاق وهو كثير العمارة يخرج منه نحو من خمسة عشر ألف مقاتل كلهم شجعان مقاتلون، معتادون بالحروب، وهو ربض مستقل بحكامه وقضاته وغير ذلك.

وجامع غرناطة محكم البناء بديع جداً لا يلاصقه بناء تحف به دكاكين للشهود والعطارين وقد قام سقفه على أعمدة ظراف وبداخله الماء وبه أساتيذ منتصبون لإقراء العلوم، وهو معمور بالخير كل حين ومساجد المدينة ورباضاتها لا تكاد تُحصى لكثرتها ويقعد السلطان للناس بدار العدل بالسبيكة من الحمراء يوم الاثنين ويوم الخميس صباحاً فيقرأ بمجلسه عشر من القرآن وشيء من حديث رسول الله (ﷺ) ويأخذ الوزير القصص من الناس ويحضر معه المجلس الرؤساء من أقاربه ونحوهم.

وأهل الأندلس لا يتعممون بل يتعهدون شعورهم بالتنظيف والحناء ما لم يغلب الشيب ويتطيلسون فيلفون الطيلسان على الكتف أو الكتفين مطوياً طياً ظريفاً، ويلبسون الثياب الرفيعة الملونة من الصوف والكتان ونحو ذلك وأكثر لباسهم في الشتاء الجوخ وفي الصيف البياض، والمتعمم فيهم قليل[3].

وأرزاق الجند بها ذهب حسب مراتبهم وأكثرهم من بر العدوة من بني مرين وبني عبدالواد وغيرهم[4]، والسلطان يُسكنهم القصور الرفيعة بينهم وبين الافرنج حروب

---

(١). انظر: ابن رستة. الأعلاق:٧٩: ابن خرداذبة. المسالك:١٠٢: ابن الفقيه. البلدان:٧١. ومن أبواب غرناطة التي ذكرتها المصادر: باب البيرة: من أبواب غرناطة القديمة ما يزال قائماً حتى اليوم بعد سروحانية وهو الباب الوحيد الذي بقي كاملاً، الإحاطة:١/١٠٧ حاشية (٣). باب الفخارين: كان موقعه تجاه القرية المسماة بالفخارية وهي على أطراف غرناطة الشمالية وتسمى اليوم Alfacar الإحاطة:١/١٩٤ حاشية (٢).

(٢). ذكر بعد هذا الباب: باب الفخارين وهو مكرر يبدو أنه أورده سهواً خاصة وأنه ذكر بداية أنَّ الأبواب (١٣) بـ وبباب الفخارين المكرر يصبح عددها (١٤) باباً.

(٣). انظر عن لباس الأندلسيين: ابن الخطيب، الإحاطة:١/١٣٤: المقري. نفح الطيب:١/٢٢٢-٢٢٣.

(٤). انظر عن أصناف الأجناد في مملكة غرناطة. ابن الخطيب. الإحاطة: ١/١٣٦.

ووقائع جمة في كل سنة إلا أن يكون بينهم صلح إلى أمد، وحروبهم سجال تارة عليهم والنصر في الأغلب للمسلمين على قلتهم وكثرة عدوهم بقوة الله تعالى، وقد كانت لهم وقيعة في الإفرنج سنة تسع عشرة وسبعمائة على مرج غرناطة قتل فيها من الافرنج أكثر من ستين ألفاً وملكان بطره وجوان عمه، وبطره الآن معلق جسده في تابوت على باب الحمراء واقتربت جيفة جوبان[1] بأموال عظيمة وجاء المسلمون غنيمة من أموالهم قل ما يذكر مثلها في تاريخ[2] ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ الله العَزِيزِ الحكيم[3]﴾، والبلاد البحرية أسطول حراريق للغزو في البحر الشامي يركبها الأنجاد من الرماة والمغاورين والرؤساء المهرة فيقاتلون العدو على ظهر البحر وهم الظافرون في الغالب ويغيرون على بلاد النصارى بالساحل أو بالساحل فيستأصلون أهلها ذكورهم وإناثهم ويأتون بهم بلاد المسلمين فيبرزن لهم ويحملونهم إلى غرناطة إلى السلطان فيأخذ منهم ما يشاء ويهدي ما يشاء ويبيع.

والبلاد البحرية أولها من جهة المشرق المَرِيَّة[4] وهي ذات مرسى البحر على الشامي وهو أول مرسى البلاد الإسلامية بالأندلس وكانت العمارة قبل لبجانة[5] فانتقلت إلى الساحل لمنافع الناس وبجانة على وادي المرية وهي الآن قرية عظيمة جداً ذات زيتون وأعناب وفواكه مختلفة وبساتين ضخمة كثيرة الثمرات، ووادي المرية يقال فيه أنه أبدع الأودية على أنَّ الماء فيه يقل في فصل الصيف فيكون بالقسط للبساتين، ويبلغ متصلاً بمَرْشانَة[6] وقراها أربعين ميلاً والمرية ثلاث مدن، الأولى من جهة الغرب تعرف بالحوض الداخلي لها سور محفوظ من العدو بالسُمار والحراس ولا عمارة بها. ويليها إلى الشرق المدينة القديمة، ويليها المدينة الثالثة المعروفة بمصلى المرية وهي أكبر الثلاث وهي القلعة تحوز القديمة من جهة الشمال وتسمى القصبة في ألسنتهم وهما قصبتان في غاية الحسن والمنعة، وساحل

---

(١). كذا ورد رسمه بالمخطوط مرة جوان وجوبان ويبدو أن الصواب جوان.

(٢). انظر حول هذه الوقعة المقري، نفح الطيب:١/٤٤٩.

(٣). سورة آل عمران:١٢٦.

(٤). المرية: مدينة على ساحل البحر المتوسط بين مالقة ومرسية. انظر: يوسف بني ياسين، بلدان الأندلس:٤٧٥.

(٥). بجانة: وردت في الأصل بجاية وهو خطأ والصواب ما أثبت، وبجانة: مدينة تقع بالقرب من الساحل الأندلسي الجنوبي على مصب وادي أندرش شرق المرية، وهي الآن قرية صغيرة من أعمال مدينة المرية وتبعد عنه إلى الشمال الشرقي حوالي ١٢كم. انظر: يوسف بني ياسين، بلدان الأندلس:٢٢١.

(٦). مرشانة: بلدة تقع إلى الجنوب الشرقي من قرمونة وتبعد على إشبيلية بمسافة نحو ٦٠كم. انظر: يوسف بني ياسين، بلدان الأندلس:٢٢٧.

المرية أحسن السواحل وحولها حصون وقرى كثيرة وجبال شامخة وجامعها الكبير بالمدينة القديمة وهو بديع، والمرية كثيرة الفواكة، وأما الحنطة فبحسب السنين المطرة لأن أكثر زرعها بالمطر وترتفق بما يجلب إليها من الحنطة من بر العدوة، وبها دار الصناعة لإنشاء الحراريق لقتال العدو، ويليها الآن ولاة من صاحب غرناطة، وقد كانت فيما مضى مملكة مستقلة(١) وبينها وبين غرناطة مسيرة ثلاثة أيام(٢).

ويلي المرية من البلاد البحرية من جهة المغربين شلوبين(٣)، وهي معدة لإرسال من يغضب عليه السلطان من أقاربه ويرسل ويزرع بها السكر ويقاربها المُنَكَّب(٤)، وهي مدينة دون المرية وبها أيضاً دار صناعة لإنشاء السفن وبها قصب السكر والموز ولا يوجد في بلد من البلاد الإسلامية هنالك إلا فيها، إلا ما لا يعتبر ويحمل منها السكر إلى البلاد، وبها زبيب مشهور الاسم. ويلي المنكب قلش(٥) وهي كثيرة التين والعنب والفواكة قال أبو عبد الله ابن السديد: إنه ليس في الأندلس أكثر عنباً وتيناً يابساً منها.

وأما مَالَقة(٦) فمدينة بديعة كثيرة الفواكه لها ربضان عامران أحدهما من علوها والآخر من سفلها، وبها دار صناعة لإنشاء الحراريق وجامعها بديع وبصحنه نارنج ونخلة. وتختص بعمل صنائع الجلد كالأغشية والحزم والمدورات وبصنائع الحريز كالسكين والمقص والفخار المذهب الذي لا يوجد مثله في بلد، والتين الغزير الذي يُجلب منها إلى جميع البلاد الغربية بالأندلس وغيرها. فيعم البلاد شتاءً وصيفاً فلا يكاد يخلو منه دكان بياع. واللوز

---

(١). استقل بالمرية عقب سقوط الدولة الأموية خيران وزهير العامريان حتى سنة ٤٢٩هـ/١٠٣٧م ثم تبعت لبني صمادح حتى استولى عليها المرابطون سنة ٤٧٨هـ/١٠٨٥م. انظر: يوسف بني ياسين، بلدان الأندلس:٤٧٥.

(٢). انظر وصف المرية وما بها من قلاع وصناعات ومراسي وفواكه. المقري، نفح الطيب:١/١٦٢-١٦٣.

(٣). شلوبين: هي مدينة شلوبينية وهي حصن بالأندلس من أعمال كورة البيرة على شاطئ البحر وتقع إلى الجنوب الغربي من الطويل، واستخدمت كسجن للدولة أيام دولة بني نصر. انظر: يوسف بني ياسين. بلدان الأندلس:٣٤٩.

(٤). المنكب: مدينة من كورة البيرة من أقاليم غرناطة إلى الجنوب منها. وتتبع اليوم لمركز مطريل في مديرية غرناطة وتقع على بعد ٢٢كم إلى الغرب من مطريل. انظر: يوسف بني ياسين. بلدان الأندلس:٤٨٦.

(٥). هكذا أوردت في الأصل والأرجح أنها بَلِّش: بلش مالقة على الساحل الجنوبي تتبع لكورة المرية إلى الشرق من ثغر مالقة وعلى مقربة منها. انظر: يوسف بني ياسين، بلدان الأندلس:٢٤٠.

(٦). مالقة: مدينة تقع إلى الغرب من غرناطة وتبعد عنها ٨٠ ميلاً. وإلى الشرق من الجزيرة الخضراء وتبعد عنها ١٠٠ ميل. انظر: يوسف بني ياسين. بلدان الأندلس:٤٥٩.

مثله في الكثرة والحسن والطيب وكذلك الزبيب وهي خصيبة جداً[1]. وفي تينها يقول الشاعر[2]:

مـالقـة حُيِّيتَ يا تينَـها فـالفُلكُ مـن أجلك يـأتينـا
نهى طبيبي عنك في عِلَّتي مـا لِطبيبي عن حياتي نهى

قال ابن السديد: إنّ بها سوقاً ممتد الأطباق تعمل من الحوض إلى غير ذلك مما يعمل منه.

ويلي مالقة مدينة مَرْبلّة[3] وهي صغيرة كثيرة الفواكة والسمك، وتليها استبونة وهي مثلها ساحلية كثيرة الفواكه. ويلي استبونة جبل الفتح[4]، وهو طود شامخ يخرج في بحر الزقاق ستة أميال وبحر الزقاق أضيق مكان في البحر الغربي سعته ستة فرسخ وجريه الماء به قوية ولا يكاد يركد ويسمى بحر القنطرة والقنطرة جسر أخضر من شلش إلى آلش يراه المسافرون إذا سكن البحر، وشلش والش ما بين طريف والجزيرة وقد كان هذا الجبل تملكه الإفرنج منذ سنين ثم أعاده الله إلى الإسلام منذ قريب وعمّره السلطان أبو الحسن المريني واتخذه عتاداً لجنده إذا دخلوا الجزيرة لحرب الكفار. وقد كان أسكنه طائفة من عسكره وأخذ الجزيرة الخضراء[5] من السلطان يوسف بن الأحمر ملك الأندلس ليكون مستقراً لجيشه وأعاضة عنها زروعاً تؤدىّ إليه ومالاً يؤدى عنه. هكذا حدثني الثقات من بني مرين، والقاضي الفقيه إبراهيم بن أبي سالم ثم أخذت الفرنج الجزيرة الخضراء حين قتل أبو مالك ابن السلطان المريني وانهزم جيشه بعد النصرة العُظمى وحينئذ زادت الهمم المرينية في تشييد هذا الجبل وتحصينه وتعمير ما عمّر منه والله يحيى هذا الملك لإكمال ما شرع فيه من غزو الفرنج واستعادة ضوال الإسلام وينصره النصر المؤزر ويفتح عليه الفتح المبين، وهذا الجبل جبل منيع جداً يتمكن من حازه من الجزيرة وسبتة وما بينهما.

---

(1). انظر عن مالقة وفواكهها وصناعاتها. المقري. نفح الطيب:١/١٥٢.

(2). انظر الشعر في المقري، نفح الطيب:١/١٥١ ونسب الشعر لأبي الحجاج يوسف البلوي المالقي.

(3). مربلة: تقع إلى الجنوب الغربي من مالقة على ساحل البحر المتوسط في الطريق منها إلى الجزيرة الخضراء وتبعد عنها بمسافة ٤٠ ميلاً. وهي مدينة صغيرة. انظر: يوسف بني ياسين، بلدان الأندلس: ٤٦٨.

(4). جبل الفتح: هو جبل طارق.

(5). الجزيرة الخضراء: كورة صغيرة تقع في أقصى الطرف الجنوبي للأندلس وهي الآن مركز إداري في مديرية قادس وتبعد عن جبل طارق ١٨كم. انظر: يوسف بني ياسين، بلدان الأندلس:٢٧٢.

ويلي الجبل الجزيرة الخضراء المشار إليها وهي مدينة محكمة كثيرة الزرع والماشية وبها نهر يعرف بوادي العسل[1] عليه بساتين وأرحاء وغير ذلك، وبها دار صنعة لإنشاء الحراريق وهي آخر البلاد البحرية الإسلامية بالأندلس. وليس بعدها وهي بيد النصارى أعادها الله وقصمهم.

ومن البلاد الكبار غير البحرية رُنْدة[2] وهي والجزيرة الخضراء والجبل ومربلة وما والاهم تحت يد صاحب بر العدوة السلطان أبي الحسن أحسن الله إليه وأعانه، وبين رندة والجزيرة الخضراء مسيرة ثلاثة أيام وهي جليلة كثيرة الفواكة والمياه والحرث والماشية وأهلها موصوفون بالجمال ورقة البشرة واللطافة.

ويليها بلد أنْتقيرة[3] ثم أرحضونة[4] ثم لوشه[5] وبين المرية وغرناطة مدينة وادي أش[6] وهي بلدة حسنة بديعة منيعة جداً كثيرة المياه والفواكه والمزارع قريبة من شنيل فلذلك هي شديدة البرد بسبب الثلوج، وهي بلدة بمملكة، وأهلها موصوفون[7] بالشعر ويحكم بها الرؤساء وهم من قرابة السلطان أو من يستعمل بها السلطان أو من خلع من سلطان لنفسه. والمياه تشق أمام أبوابها كغرناطة ويليها مشرقاً بسطة[8] وهي كثيرة الزرع واختصت بالزعفران وبها منه ما يكفي أهل الملة الإسلامية بالأندلس على كثرة ما

---

(١). انظر وصف وادي العسل وبساتينه. الحميري. الروض: ٣٢٣-٣٢٤.

(٢). رندة: معقل حصين من أعمال تاكرنا، وهي الآن تتبع لمديرية مالقة وتبعد عنها إلى الشرق بمسافة ٩٦كم وإلى الشمال من جبل طارق بمسافة ١٠٨كم. انظر: يوسف بني ياسين، بلدان الأندلس:٢٠٦.

(٣). انتقيرة: مدينة تقع بين مالقة وقرطبة إلى الشمال من مالقة بمسافة ٦٠كم بالقرب من غرناطة. انظر:يوسف بني ياسين. بلدان الأندلس:١٩٦.

(٤). أرحضونة: هكذا رسمت في المخطوط، ورسمها في المصادر أرشذونة أو أرجذونة وهي مدينة تقع شمالي شرق مالقة وتبعد عنها حوالي ٣٥ ميلاً. انظر: يوسف بني ياسين. بلدان الأندلس: ١٦٥.

(٥). مدينة تبعد عن غرناطة ٥٠كم غرباً. يوسف بني ياسين. بلدان الأندلس: ٤٥٦.

(٦). وادي آش: مدينة تتبع لكورة البيرة، وتعد اليوم مركز إداري في مديرية غرناطة. يوسف بني ياسين، بلدان الأندلس: ١٧٥.

(٧). في الأصل: موصون.

(٨). بسطة: مدينة تقع إلى الشمال الشرقي من غرناطة، وتبعد عنها ١٢٣كم. انظر: يسوف بني ياسين، بلدان الأندلس: ٢٣١.

يستعملونه، وبهذه المملكة بُرْجَة[1] وبَيْرَة[2] وأندرش[3]، وهي مدينة ظريفة كثيرة الخصب وتختص بالفخار لجودة تربتها فلا يوجد في الدنيا مثل فخارها للطبخ، وحصونها كثيرة جداً فليس بها من بلد إلاَّ وحوله حصون كثيرة محفوظة بولاة من السلطان ورجال تحت أيديهم وببعضها فرسان مرتبون، وجند السلطان معظمهم بغرناطة ثم بمالقة وببيرة وبالثغور البرية.

وأما الثغور البحرية كالمرية فليس لها حاجة بالخيل إلا قليلاً، وحاجتها إلى الحراريق أكثر لأن بلاد البر تغزو وتغزى من البر وبلاد البحر بالعكس.

وأخبار الأندلس كثيرة مما سبق عليه الكتاب، وسلف حديثه في سلف هذه الأبواب مما فيه كفاية وإليه انتهت الغاية.

آخر الجزء الثاني من كتاب مسالك الأبصار في ممالك الأمصار يتلوه إن شاء الله تعالى في الجزء الثالث الباب الخامس عشر في ذكر العرب الموجودين في زماننا وأماكنهم والحمدلله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

---

(١). برجة: مدينة تقع غرب المرية في كورة البيرة على مقربة من ساحل البحر المتوسط على الوجه الجنوبي المطل على البحر لجبل شلير وهي الآن مركز في محافظة المرية. انظر: يوسف بني ياسين. بلدان الأندلس:٢٢٥.

(٢). بيرة: بلدة قريبة من ساحل البحر ما بين مرسية والمرية، وهي الآن بلدة صغيرة تقع شمال شرق المرية وتعد أحد مراكزها. انظر: يوسف بني ياسين، بلدان الأندلس: ٢٥٩.

(٣). أندرش: بلدة صغيرة من أعمال ولاية المرية تقع شمال برجة على نهر يسمى باسمها. كانت مقر أبي عبدالله الصغير آخر ملوك الأندلس عقب تسليمه لغرناطة إذ أقام بها سنتين. انظر: يوسف بني ياسين، بلدان الأندلس: ١٩٧.

الباب الخامس عشر

الممالك الإسلامية

العرب وما يتعلق بهم

الباب الخامس عشر

في ذكر العرب الموجودين[1] في زماننا وأماكنهم

ومضارب أحيائهم[2] ومساكنهم على افتراق فِرقهم، واختلاف طوائفهم، وأشتات قبائلهم، ومنازلهم من أطراف العراق إلى آخر المغرب دون من في اليمن وخراسان، فإنه لم يتحرّر لي شيئ من[3] أمرهم. وإنما ذكرت من عرفت منهم إذ لم يكن بدٌّ من ذكرهم. ومنهم[4] نُزّال حول الحاضرة. وذوو توغُّل في البادية، ومنهم[5] أسوار المدن، وحَفَظَة الطرق، ولم يزل منهم أئمة الطلائع. وجناح للجيوش[6]. ومنهم بممالكنا -بمصر[7] والشام- حَفَظة الدروب، والقَنَصَة بخَيْل البريد، والحَمَلة للسياق في غالب المملكة. ولم تزل الملوك تَهشّ لوِفادَتهم، وتَهَبُ لهم جزيل[8] الأموال، وتُقطِعهم جُلَّ البلاد هذا إلى[9] التنويه بأقدارهم، والتعويل على أخيارهم، ورفعهم في المجالس. وقد ذكرناهم على ما هم عليه الآن من النسب مع ما حصل من التداخل في الأنساب، والتباين في الأسباب، والتنقل في الديار، والتبدل بالأوطان[10]. واعتمدت في أكثر ذلك[11] على ما ذكره الأمير الثقة بدرالدين أبو المحاسن يوسف ابن أبي المعالي ابن زمّاخ[12] المعروف بابن سيف الدولة الحمدانيّ المهمندار[13]، وما حدثني به الشيخ الدليل النسّابة[14] محمود بن عرَّام[15] من أصحاب

---

(١). ت: الموجود.

(٢). د: أخبيتهم.

(٣). شيئاً من. ساقطة من د.

(٤). ت: وثم.

(٥). د: وهم.

(٦). ت: للجيش.

(٧). د: مصر.

(٨). د: جزائل.

(٩). ت: هدنا

(١٠). د: بالاقطار.

(١١). ت: في أكثر من ذلك.

(١٢). ت: زماح.

(١٣). ولد سنة ٦٠٢هـ/١٢٠٥م وتوفي بعد سنة ٦٨٠هـ/١٢٨١م. انظر: ابن حجر. الدرر الكامنة: ٢٣١-٢٣٢؛ البغدادي. هدية العارفين: ٢/٥٥٥.

(١٤). لم نهتد إلى ترجمة له، وما ذكره العمري هنا دليل على كبير معرفته الدقيقة بقبائل العرب.

(١٥). ت: غنام.

قناة بن حارث[1]. وهو من ذوي الثقة. والعلم بقبائل[2] العرب وأنسابها، وبلادها، وتفرُّق فِرَقها في أغوارها وأنجادها -وأبوه عزام بن كويب ابن خليل بن ماجد بن ثابت[3] بن ربيعة الذي يُنسب إليه آل ربيعة قاطبة- إلى ما كنت نقلته عن أحمد بن عبدالله الواصليّ وغيره من مشيخة العرب. وقد كان كلٌّ من الأمير فضل بن عيسى وموسى ابن مهنا[4] يحدثني بطُرَفٍ من أخبار العرب. وكذلك ما نقلته عن الشريف أبي عبدالله بن عمر[5] ابن الإدريسي[6] من أخبار عرب الغرب. وعن الشيخ زكريا المغربي. وقد صحَّحْت ذلك بحسب الجهد[7]، وما الأمُ في تقصير في هذا الباب الذي لم أتأنّس قبلي بداخل منه والطريق الذي لم أجد غيري سالكاً فيه ولا مستخبراً. على أنه يلزم من ذكر العربان الموجودين في زماننا الكلام على قبائل العرب البائدة[8]. والعاربة، والمستغربة لأن هؤلاء أغصان تلك الشجرة، وفروع تلك الأصول: فلنتكلم عليهم على مُقتضى ما ذكره المؤرخون ونسوقهم إلى أن بَزغَت شمس الإسلام وآن مولد النبي عليه الصلاة والسلام. وكان الأولى أن نذكر ذلك في جملة سكان الأرض لنلحق[9] بعضُه ببعض. وإنما أتينا به لمناسبة بينه وبين الأبواب السابقة في ذكر الممالك، إذ مساكن العربان متخللة لأكثر الممالك التي ذكرناها، أو مجاورة لها. وإذا تقدم شيء عن موضعه لمعنى اقتضاه[10] وأحيل على المتقدم في موضعه كان أولى من تأخيره، وإلفات النظر إليه.

فنقول[11]: قسّم المؤرخون العرب إلى ثلاثة أقسام؛ بائدة[12]، وعاربة ومستعربة. أما

---

(١). ت: حادث.

(٢). ت: لقبائل.

(٣). (في أغوارها... ثابت) ساقطة من ت.

(٤). انظر: الحياري، الإمارة الطائية: ١٥٠-١٥٢.

(٥). ت: عمير.

(٦). ذكر الإدريسي بأن أبو عمر عبدالعزيز الحسني الإدريسي وهو من أهل غرناطة. وله تعلق بخدمة السلطان أبي الحسن المريني (٧٣١-٧٤٩هـ/١٣٣١-١٣٤٨م). وقد التقى به العمري سنة (٧٤٩هـ/١٣٤٨م) وحدثه بذلك. انظر: العمري، مسالك: ت/٧٢-٧٥.

(٧). ت: الجهة.

(٨). ت: البادية.

(٩). د: ليلحق.

(١٠). ت: بلغني أقصاه.

(١١). ت: فيقول.

(١٢). ت: بادية.

البائدة(1) فهم العرب الأول الذين ذهبت عنا تفاصيل أخبارهم لتقادم عهدهم، وهم: عاد، وثمود، وجُرهم الأولى. وأما العرب العاربة فهم عرب اليمن من ولد قحطان. وأما العرب المستعربة فهم من ولَد إسماعيل بن إبراهيم - عليهما السلام.

فالعرب البائدة(2): طَسْمٌ، وجديس، وكانت مساكن هاتين القبيلتين باليمامة من جزيرة العرب، وكان المُلْك عليهم في طَسْم واستمروا على ذلك برهة من الزمان حتى انتهى المُلك إلى رجل ظَلوم، غَشوم (3)، قد جعل سُنّته أن لا تُهدى بِكر من جديس إلى بَعلها حتى تدخل عليه فيفترعها. ولما استمر ذلك على جديس أنِفوا منه واتفقوا على أن دفنوا سيوفهم في الرمل وعملوا طعاماً للملك ودعَوه إليه. فلما حضر في خواصّه من طسم عَمَدت جديس إلى سيوفهم فانتزعوها من الرمل، وقتلوا الملك وغالب طسم. فهرب رجل من طسم(4) وشكا إلى تَبّع بن حسّان ملك اليمن فسار ملك اليمن إلى جديس وأوقع بهم وأفناهم فلم يبقَ لطسم وجديس ذكر بعد ذلك.

والعرب العاربة: بنو قحطان بن عابر بن شالَخ بن أرْفَخْشَد بن سام. فمنهم بنو جُرهم بن قحطان. وكانت منازلهم بالحجاز، ولما أسكن إبراهيم الخليل ابنه إسماعيل -عليهما السلام- مكة وكانت جرهم نازلين بالقرب من مكة، واتصلوا بإسماعيل وزوّجوه منهم، وصار من ولد إسماعيل العرب المستعربة لأن أصل إسماعيل ولسانه كان عبرانياً: فلذلك قيل له ولولده العرب المستعربة(5).

ومن العرب العاربة: بنو سبأ، واسم سبأ عبدشمس، فلما أكثر الغزو والسبيَ سُمِّي سبأ. وهو ابن يشجب بن يعرب بن قحطان(6) -وسيأتي نسب قحطان. وكان لسبأ عدة أولاد، فمنهم حِمير، وكهْلان وغيرهم. وجميع قبائل اليمن وملوكها المتتابعة من ولد سبأ المذكور، وجميع تبابعة اليمن من ولد حِمير بن سبأ خلا عِمران وأخيه مُزَيْقيا، فإنهما ابنا عامر بن حارثة بن امرئ القيس بن ثعلبة بن مازن بن الأزد. والأزد من ولد كهلان بن سبأ. وفي ذلك

---

(1). ت: البادية.

(2). ت: البادية.

(3). انظر: المسعودي، مروج الذهب: 2/264-269؛ ابن سعيد، نشوة الطرب: 1/51-52.

(4). ذكر المسعودي أن اسمه رباح بن مرّة الطسمي: المسعودي، مروج الذهب: 2/270.

(5). قال ابن سعيد في نشوة الطرب: 1/207: «العرب المستعربة هم بنو إسماعيل بن إبراهيم... قيل لهم ذلك لأنهم تعلّموا من أخوالهم جرهم بن قحطان العاربة».

(6). انظر: ابن دريد، الاشتقاق: 217؛ الهمداني، الاكليل: 1/122-132.

خلاف فنذكر هنا أحياء[١] عرب اليمن وقبائلهم المنسوبين إلى سبأ المذكور، ونبدأ بذكر بني حمير بن سبأ، فإذا انتهوا ذَكَرنا كهلان بن سبأ حتى آخرهم إن شاء الله تعالى.

فمن بني حِمير بن سبأ التبابعة[٢]، ومنهم قُضاعة، وهو قُضاعة بن مالك بن حمير بن سبأ، وقيل[٣] قضاعة بن مالك بن عمرو بن زيد بن مالك بن حمير[٤]. وكان قضاعة مالكاً لبلاد الشِحر، وقبر قضاعة في جبل الشِحر.

ومن قضاعة كلب، وهم بنو كلب بن وَبْرة بن ثعلبة بن حُلْوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة. وكانت بنو كلب في الجاهلية ينزلون دومة الجندل، وتبوك، وأطراف الشام. ومن مشاهير كلب زهير بن جناب[٥] الكلبي وهو القائل[٦]:

ألا أصبحتْ أسماءُ في الخمْر تَعْذُلُ	وتَـزْعُـمُ أنّـي بـالسـفـاهِ مُـوَكَّـلُ
فقلتُ لها كُفّي عِتابَكِ نصْطَبِحْ	وإلاّ فبيـنـي فـالـتعـزُّبُ[٧] أمثـلُ

ومنهم حارثة الكلبي، وهو أبو زيد بن حارثة مولى رسول الله (ﷺ) وكان قد أصاب ابنه سبيٌّ في الجاهلية، فصار إلى خديجة زَوْج النبي (ﷺ) فوهبته للنبي[٨] (ﷺ) وأنشد ابن عبدالبر في كتاب الصحابة لحارثة المذكور يبكي ابنه زيداً لما فقده[٩]:

بكيت علـى زيدٍ ولم أدْرِ ما فعل	أحـيٌ يُـرَجَّـى أم أتـى دونـه الأجَـلْ
تُـذكّرنيـه الشمسُ عند طُلوعِها	وتَـعـرِضُ ذِكـراه إذا قـارب الـطَّفَـلْ
وإنْ هـبَّـتِ الأرواح هَـيَّـجْـنَ ذِكـرَهُ	فيا طولَ ما حُزْني عليه ويا وَجَلْ

---

(١). د: أخبار.

(٢). ت: المتتابعة.

(٣). «قضاعة بن... وقيل» ساقطة من ت.

(٤). اختلف النسابة في نسب قضاعة. انظر: ابن عبدالبر. الانباه: ٥٩-٦٤؛ الهمداني، الإكليل: ١/١٣٧-١٨٥؛ ابن حزم، الجمهرة: ٤٤٠.

(٥). ت: حناف.

(٦). انظر: ابن قتيبة، الشعر والشعراء: ١/٣٧٩؛ ابن سعيد، نشوة الطرب: ١/١٧٣.

(٧). ت: فبيتي فالتعزب.

(٨). د: النبي.

(٩). ابن عبدالبر، الاستيعاب: ٢/٥٤٤.

ثم اجتمع حارثة بزيد ولده عند رسول الله (ﷺ) فاختاره على أبيه وأهله.

ومن قُضاعة: بَهْراء[1].

ومن قُضاعة: جُهينة، وهي[2] قبيلة عظيمة يُنسب[3] إليها بطون كثيرة، وكانت منازلها بأطراف الحجاز الشماليّ من جهة بحر جُدَّة.

ومن قُضاعة: بَليٌّ.

ومن قُضاعة: تَنوخ، وكان بينهم وبين اللَخميين ملوك الحيرة حروب.

ومن قُضاعة: بنو سليح، وكان لهم بادية الشام، فغلبهم عليها ملوك غسان وأبادوهم.

ومن قُضاعة: بنو عُذرة، منهم عروة بن حِزام، وجميل صاحب بُثَينة.

ومن قُضاعة: بنو نَهْدٍ، منهم الصَقْعَب بن عمرو النهدي. وهو أبو خالد بن الصَقْعَب[4]. وكان رئيساً في الإسلام.

ومن بُطون حمير: شعبان، ومنهم عامر الشعبي الفقيه.انتهى الكلام في بني حِمير.

ومن بني كهلان بن سبأ المذكور أحياء كثيرة، والمشهور منها سبعة، وهي: الأزد، وطيّئ. ومَذْحِج. وهمْدان، وكِنْدة، ومراد، وأنْمار.

أما الأزد: فهم من ولد الأزد بن الغَوث بن نَبْت بن مالك بن أدَد بن مازن بن الأزد، ومنهم الأوس والخَزرَج أهل يثرب؛ وهم الأنصار رضي الله عنهم، ومن الأزد خُزاعة، وبارق، ودَوْس، والعَتيك، وغافِق. فهؤلاء بُطون الأزد.

أما خُزاعة فإنّها لما انخزعت عن غيرها من قبائل اليمن الذين تفرقوا من سيْل العَرِم وسكنت ببطن مَرٍّ على قرب من مكة وحصلت لهم سِدانة البيت، والرئاسة، ولمّا اصطلح رسول الله (ﷺ) مع قريش في عام الحديبية، دخلت خزاعة في عهد رسول الله(ﷺ)[5]. وقد اختُلف في نسب خُزاعة بين المعدّية واليمانية. والأكثر أنها يمانية. والذي تنتسب[6] إليه

(١). انظر: ابن عبدالبر، الأنباه: ١٢٢؛ ابن حزم، الجمهرة: ٤٤٠.

(٢). ت: وهو.

(٣). د: ينتسب.

(٤). ت: التصعب.

(٥). انظر: ابن هشام، السيرة: ٢/٢١٧-٢١٨.

(٦). ت: تنسب.

خزاعة هو كعب بن لُحَيّ بن حارثة بن عمرو[1] مزيقيا بن عامر بن حارثة بن امرئ القيس بن ثعلبة بن مازن بن الأزد وقد ذكر عمرو مُزيقيا[2]. وما زالت سِدانة البيت في خزاعة حتى انتهت إلى رجل منهم يقال له أبو غُبْشان. وكان في زمن قصي بن كلاب، فاجتمع مع قصي بالطائف في شَرْب فأسكره قُصي وخدعه واشترى منه مفاتيح الكعبة بزقّ خمر وأشهد عليه وتسلّم المفاتيح وأرسل ابنه عبدالدار بن قصي بها إلى مكة. فلما وصل إليها رفع صوته وقال: يا معاشر[3] قريش هذه مفاتيح بيت أبيكم إسماعيل، قد ردّها الله عليكم من غير عارٍ ولا ظلم. فلما صحا الخزاعي[4] ندم حيث لا تنفعه الندامة. فقيل: أخْسَر من أبي[5] غُبْشان[6]. وأكثرت الشعراء القول في ذلك: فمنه:

باعت خُزاعة بيت الله إذْ سكِرَتْ ... بِزقّ خمْرٍ فبئستْ صَفْقَةُ البادي
باعتْ سِدانَتَها بالنزْرِ وانصرفتْ ... عن المقام وظِلّ البيت والنـادي

وجمع قصي أشتات قريش وأخرج خزاعة من مكة.

ومن خزاعة: بنو المُصطلق الذين غزاهم رسول الله (ﷺ) [7].

وأما بارق: فهم من ولد عمرو مُزيقيا[8] الأزدي. نزلوا جبلاً بجانب اليمن يقال له بارق فسموا به[9]. ومنهم مُعَقّر بن حِمار البارقي. ذكره صاحب الأغاني[10]، وهو صاحب القصيدة التي من جملتها البيت المشهور:

وألقتْ عصاها واستقرَ بها النّوَى ... كما قَرَّ عَيْناً بالإياب المُسافِرُ

---

(1). تضيف ت: بن. وهو خطأ. انظر: ابن دريد، الاشتقاق: ٤٣٥؛ ابن حزم، جمهرة: ٤٧٣؛ ابن سعد، نشوة الطرب: ١/١٤٠.

(2). ت: عمرو بن مزيقيا. انظر التعليق السابق.

(3). د: معشر.

(4). ت: الخزا.

(5). ت: بني.

(6). انظر: الميداني، الأمثال: ١/١٤٦؛ العسكري، جمهرة الأمثال: ١/٢٨٧-٢٨٨.

(7). انظر عن الغزوة: ابن هشام، السيرة: ٢/٢٨٩-٢٩٦.

(8). ت: عمرو بن مزيقيا.

(9). انظر: ياقوت، معجم البلدان: ١/٤٦٣.

(10). الأصفهاني، الأغاني: ١١/١٦٠-١٦١.

وأما دوس[1]: فهو ابن عُدنان[2] بن عبدالله بن وهران[3] بن كعب بن الحارث بن كعب ابن مالك بن نصر بن الأزد. وسكنت بنو دوس إحدى السروات المطلة على تِهامة، وكانت لهم دولة بأطراف العراق. وأوّل مَن مَلَك منهم مالك بن فَهْم بن غَنْم بن دَوْس، وقد تقدم ذكر مالك بن فهم[4] ومن تملك[5] بعده ومن الدوس أبو هريرة، وقد اختُلف في اسمه، والصحيح عُمير بن عامر.

وأما العتيك وغافق: فقبيلتان مشهورتان في الإسلام. وهم من ولد الأزد ومن الأزد بنو الجُلَندى ملوك عُمان. والجُلندى لقب لكل مَن ملك عُمان منهم. وكان مُلك عُمان في أيام الإسلام قد[6] انتهى إلى جَيْفَر وعبد ابنَي الجُلندى، وأسلما مع أهل عُمان على يد عمرو بن العاص. انتهى الكلام في الأزد.

وأما طيّئ[7] فإنها نزلت بعد الخروج من اليمن بسبب سيل العرم بنجد الحجاز في جبلَي أجَأ وسلمى، فعُرفا بجبلَي طيّئ إلى يومنا هذا. وأما طيّئ فهو أدَدُ بن زيد بن كهلان. فمن بطون طيّئ جَديلة، ونبهان، وبَوْلان، وسلامان. وهَنيّ، وسُدُوس -بضم السين. وأمّا سَدوس التي في قبائل ربيعة ابن نزار فمفتوحة السين. ومن سلامان بنو بُحتر. ومَن هَنيّ إياس بن قبيصة[8] الذي ملك بعد النعمان. ومن طيّئ عمرو بن المسبِّح[9]، وهو من بني ثُعَل[10] الطائي، وكان عمرو أرمى الناس، وفيه يقول امرؤ القيس[11]:

رُبَّ رامٍ من بني ثُعلٍ   مُخرِجٌ كَفَّيهِ من سُتَرِهْ

ومن بني ثُعل الطائي زيد الخيل، وسمّاه رسول الله (ﷺ) زيد الخير ومن طيّئ حاتم طيّئ المشهور بالكرم.

---

(1). انظر: ابن حزم، الجمهرة: 379؛ ابن سعيد، نشوة الطرب: 1/216.

(2). د: عدثان.

(3). د: وهزان.

(4). لم يسبق للعمري أن ذكر مالك بن فهم.

(5). ت: ملك.

(6). ت: وقد.

(7). انظر: أبو الفداء، المختصر: 1/102-103.

(8). ت: قبينة.

(9). ت: المشيح.

(10). ت: بعل.

(11). انظر: البطليوسي، شرح الأشعار: 1/285.

وأما بنو مذحِج[1]: واسم مذحِج مالك بن أُدَد بن زيد بن كهلان، وهم بطون كثيرة، فمنها خولان وجَنْب[2]، ومنهم معاوية الخير الجَنْبي صاحب لواء مذحج في حرب بني وائل، وكان مع تغلب. ومن مذحج أود قبيلة الأفوَه الأوديّ الشاعر. ومن بني مذحج بنو سعد العشيرة، وسمي بذلك لأنه لم يمت حتى ركب معه من ولده، وولد ولده ثلاثمائة رجل، وكان إذا سُئل عنهم يقول: هؤلاء عشيرتي دفعاً للعين عنهم، فقيل له: سعد العشيرة لذلك[3]. ومن بطون سعد العشيرة جُعْف، وزبيد قبيلة عمرو بن معدي كرب الزبيدي. ومن بطون مذحج النخع، ومنهم الأشتر واسمه مالك بن الحارث صاحب رسول الله (ﷺ)، ثم عليّ بن أبي طالب -رضي الله عنه. ومن النخع سِنان بن أنس قاتل الحسين. ومنهم القاضي شريك. ومن مذحج عَنْسٌ بالنون. وهي قبيلة الأسود الكذاب العَنْسي. وعَنْسٌ أيضاً رهط عمَّار بن ياسر صاحب رسول الله (ﷺ).

وأما همدان: فهم من ولد ربيعة بن حيَّان بن مالك بن زيد بن كهلان، ولهم صيت في الجاهلية والإسلام.

وأما كِندة[4]: فهم بنو ثَوْر، وثَور هو كِندة بن عُفير بن الحارث، من ولد زيد بن كهلان، وسمي كِنْدة لأنه كَنَدَ أباه أي كفَرَ نعمته. وبلاد كِندة باليمن تلي حضرموت، وقد تقدّم ذكر ملوكهم. ومن كندة حُجْر بن عديّ صاحب علي بن أبي طالب -رضي الله عنه. قتله معاوية صبراً. ومنهم شريح القاضي. ومن بطون كندة السكاسك والسَكون بنو أشرس بن كندة. فمن السكون معاوية بن خديج قاتل محمد بن أبي بكر الصديق -رضي الله عنهما- ومنهم حصين بن نُمير السكوني، الذي صار صاحب جيش يزيد بن معاوية بعد مسلم بن عقبة نوبة الحرّة بظاهر مدينة الرسول (ﷺ).

وأما مراد[5]: فبلادهم إلى جانب زبيد من جبال اليمن، وإليه ينتسب كل مراديّ من عرب اليمن.

---

(١). انظر: ابن حزم. الجمهرة: ٤٧؛ ابن سعيد. نشوة الطرب: ٢٢٨/١.

(٢). ت: حلب.

(٣). انظر: ابن سعيد. نشوة الطرب: ١/ ٢٤٠-٢٤١؛ أبو الفداء. المختصر: ١٠٢/١.

(٤). انظر: أبو الفداء. المختصر: ١٠٢/١؛ ابن عبدربه. العقد: ٢٩٢/٢.

(٥). انظر: ابن سعيد. نشوة الطرب: ٢٦٥/١؛ أبو الفداء. المختصر: ١٠٣/١.

وأما أنمار[1]: وهما بجيلة، وخثْعم. وبجيلة رَهْط جرير بن عبدالله صاحب رسول (ﷺ). وكان يقال لهذا جرير يوسف الأمة لحُسنه. وفيه قيل:

لولا جريرٌ هلكتْ بَجِيلهْ   نِعْمَ الفَتى وبئست القَبيلهْ

وأما القبائل المنتسبة إلى عمرو بن سبأ[2]: فمنهم لَخمْ بن عدي بن عمرو بن سبأ. ومن لخْم بنو الدار، رهط تميم الداري. ومن لخم المناذِرة ملوك الحيرة. وهم بنو عمرو بن عديّ بن نصر اللخمي، وكانت دولتهم من أعظم دُول[3] العرب، وقد ذكرناهم ومنهم سبأ، وهو أخو لخم. وجميع جُذام من ابنيه حرام وحِسْم. وكان في بني حرام الشرف[4]. ومن بطون حِسْم بن جُذام عُتيب بن أسلم.

وأما بنو الأشعر بن سبأ: فهم الأشعريون، وهم رهط أبي موسى، واسمه عبدالله بن قيس.

وأما بنو عاملة بن سبأ: فمن القبائل اليمانية[5] التي خرجت إلى الشام زمن سيل العَرِم ونزلوا قرب دمشق في جبل عاملة. فمن عامِلة عديٌّ بن الرقاع الشاعر.

وأما العرب المستعربة[6] فهم ولد إسماعيل. وَقيل لهم المستعربة لأن إسماعيل لم تكن لغته عربية بل عبرانية ودخل في العربية فلذلك سُمي ولده المستعربة.

سبَب سُكنى إسماعيل وأمه مكة[7]، وأن ذلك كان بسبب سارة -رضي الله عنها- وأنّ الله تعالى أمر إبراهيم أن يطيع سارة، وأن يُخرج إسماعيل عنها. فخرج إبراهيم من الشام ومعه إسماعيل، وقدم بهما مكة، وقال: ﴿ربِ إنّي أسكنتُ من ذُريّتي بوادٍ غير ذي زرع عند بيتك المحرّم[8]﴾. فأنزلهما إبراهيم هناك وعاد إلى الشام، وكان عمر إسماعيل أربع عشرة سنة، وذلك لمضي مائة سنة من عمر إبراهيم. فمن سُكنى إسماعيل -عليه السلام- مكة إلى الهجرة ألفان وسبعمائة وثلاث وتسعون سنة، وكان هناك قبائل جُرهم فتزوج

---

(١). انظر: ابن سعيد، نشوة الطرب: ١/٢٦٥-٢٦٩.

(٢). انظر: ابن قتيبة، المعارف: ١٠١؛ ابن سعيد، نشوة الطرب: ١/٢٦٩؛ أبو الفداء، المختصر: ١/١٠٣.

(٣). ت: دولة.

(٤). ت: حذام.

(٥). ت: الثمانية.

(٦). انظر: أبو الفداء، المختصر: ١/١٠٤-١٠٩.

(٧). انظر: الطبري، تاريخ: ١/٢٧٤؛ البخاري، صحيح: ٤/١٧٢.

(٨). سورة إبراهيم: ١٤:٣٧.

إسماعيل منهم امرأة، وولدت له اثني عشر ولداً ذكراً، فمنهم قَيْدار. وماتت هاجر. ودُفنت بالحِجر، ومات إسماعيل ودُفن معها. وقد اختلف المؤرّخون اختلافاً[1] كثيراً في أمر مُلْكِ جُرهم على الحجازيين وبني إسماعيل؛ فمن قائل: المُلك على الحجازيين في جرهم ومفتاح الكعبة في ولد إسماعيل؛ ومن قائل: إنّ قيدار توّجَتْه أخوالُه وعقدوا له المُلك عليهم بالحجاز. وأما سدانة البيت ومفاتيحه فكانت مع بني إسماعيل بغير خلاف حتى انتهى ذلك إلى نابت من بني إسماعيل فصارت السِدانة بعده لجُرهم، ويدل على ذلك قول عامر بن الحارث الجرهميّ من قصيدته؛ منها:

وكنا ولاة البيت من بعد نابت	نَطوف بذاك البيت والأمرُ ظاهرُ
كأنْ لم يكنْ بين الحَجُونِ إلى الصَفا	أنيسٌ ولم يَسْمُرْ بمكّةَ سامرْ
بَلَى نحن كنّا أهلَها فأبادَنا	صُروفُ الليالي والجُدودُ العَواثِرُ

ثم وُلد لقيدار ابنه حمل، ثم ولد لحمَل نبت، ويقال نابت، وقيل هو ابن قيدار. وقيل ابن إسماعيل، وفي ذلك خلاف. ثم ولد لنبت سلامان؛ ثم ولد لسلامان الهَمَيْسع. ثم ولد للهَمَيْسع اليَسَع. ثم ولد لليسَع أُدَد؛ ثم ولد لأُدد أدّ، ثم ولد لأدّ ابنُه عدنان. ثم ولد لعدنان لودان وهما عكّ -ومنه بنو عكٍّ- ومَعَدّ. ثم ولد لمَعَدّ قُضاعة، ومنه بنو قُضاعة ونزار.

ثم وُلد لنزار أربعة فمِنْهم[2] مُضر على عمود النسب النبويّ، وثلاثة خارجون عن النسب، أوّلهم إياد، وكان أكبر من مضر، وإليه يرجع كل إياديٍّ من بني معَدّ. وفارق إياد الحجاز وسار بأهله إلى أطراف العراق. فمن بني إياد كعب بن مامَة الإيادي، وكان يُضرب بجُوده المثَل. والثاني ربيعة، ويُعرف بربيعة الفرس، لأنه ورث الخيل من أبيه، وولد لربيعة أسد وضُبيعة. فوُلد لأسد جديلة، وغيره، ومن جديلة وائل. ومن وائل بكر، وتغلب، فمن تغلب كُليب، ملكُ بني وائل، وقتله جسّاس[3]. ومن بكر بن وائل بنو شيبان. ومن رجالهم مُرَّة، وابنه جسّاس قاتل كُليب، وطَرَفة بن العبد الشاعر. ومن بكرٍ المُرَقِّشان، الأكبر والأصغر. ومن بكر بنو حنيفة، ومنهم مسيلمة الكذاب. وأما عَنَزَة بن أسد بن ربيعة فمنه بنو عنزة،

---

(١). ساقطة من ت.

(٢). انظر: ابن سعيد، نشوة الطرب: ٢/٦٠١-٦٠٣، ٦٦٥.

(٣). انظر: ابن عبد ربه، العقد: ٥/٢١٣-٢٢٣؛ ابن الأثير، الكامل: ١/٥٢٣-٥٢٩.

وهم أهل خيبر. ومن بني عَنَزَة القارظان. وأمّا ضُبيعة بن ربيعة، فمن ولده المُتَلمِّس(١) الضُبيعي الشاعر. ومن قبائل ربيعة النَمِر، ولُجيم. والعِجل. وبنو عبدالقيس -وهم من ولد أسد بن ربيعة. ومن ولد ربيعة سَدوس- بفتح السين، واللَهَازم(٢). والثالث أنمار. ومضى أنمار إلى اليمن، فتناسل بنوه(٣) بتلك الجهات(٤) وحُسبوا من اليمن.

لما حضرت نزار الوفاة(٥) دعا إياداً وعنده جارية شمطاء. وقال: هذه الجارية الشمطاء وما أشبهها لك، ودعا أنماراً، وهو في مجلس له، وقال: هذه البدرة والمجلس وما أشبهها لك(٦). ودعا ربيعة فأعطاه حبالاً سوداً من شعر، وقال: هذا وما أشبهه لك. وأعطى مُضر قبَّة حمراء. وقال: هذه وما أشبهَها لك، ثم قال: وإنْ أشكل عليكم شيء، فأْتوا الأفعى بن الأفعى الجُرهُمي -وكان ملِك نَجران.

فلمّا مات نزار ركبوا رواحلَهم آمين الأفعى. فلمّا كانوا من نَجران على يوم، إذا هم بأثر بعير. فقال إياد: بعير أعوَرُ! فقال أنمار: وإنّه لأبترُ! فقال ربيعة: وإنه لأزورُ! وقال مضر: شارد لا يستقرُّ! فلم ينشبوا أنْ وقع لهم راكب. فلما غشيهم قال: هل رأيتم من بعير ضالٍّ؟ فوصفوه له فقال: إنَّ هذه لصفته عيناً، فأين بعيري؟ قالوا: ما رأيناه! قال: أنتم أصحاب بعيري، ما(٧) أخطأتم من نعته شيئاً! فلما أناخوا بباب الأفعى واستأذنوه، وأذِن لهم. صاح الرجل بالباب. فدعا به الأفعى، وقال: ما تقول؟ قال: أيها الملك ذهب هؤلاء ببعيري! فسألهم الأفعى عن شأنه، فأخبروه. فقال لإياد: ما يُدريك أنه أعور؟ قال: رأيته قد لَحَسَ الكَلأ من شِقٍّ(٨) والشق الآخر وافر. وقال أنمار:(٩) رأيته يرمي بعره مجتمعاً ولو كان أهلب لَمَصَعَ به. فعلمت أنه أبْتر. وقال ربيعة: أثر إحدى يديه ثابت. وأثر الأخرى فاسد(١٠). فعلمت أنه أزْور. وقال مضر: رأيتُه يرعى الشِقَّة من الأرض ثم يتعدَّاها فيمرّ بالكلأ الغَضّ فلا

(١). ت: الملتمس.

(٢). ت: الملهزم.

(٣). ت: أبوه.

(٤). ت: الحباب.

(٥). انظر: البلاذري، أنساب: ١/٢٩-٣٠: الطبري، تاريخ: ١/١١٠٨-١١١٠: المسعودي، مروج، ٢ /٢٢٨-٢٤٣.

(٦). الجملة من «ودعا أنمار... لك» ساقطة من ت.

(٧). ت: وما.

(٨). ساقطة من ت.

(٩). تضيف ت: إنما.

(١٠). د: وأما الآخر فاسد.

يَنْهَش منه شيئاً، فعلمتُ أنّه شَرُودٌ. فقال الأَفْعَى: صدقتم! ونسوا بأصحابك فالتمِسْ بعيرك. ثم سألهم الأَفْعَى عن نَسَبهم، فأعلموه، فرَحَّبَ بهم وحيّاهم، ثم قَصُّوا عليه قصَّةَ أبيهم فقال لهم: كيف تحتاجون إليَّ وأنتم على ما أرى؟ قالوا: أمرنا بذلك أبونا. فأمر خادمَ دار ضيافته أنْ يُحْسِنَ إليهم، ويُكرم مثواهم. وأمر وصيفاً له أن يلزمهم ويتفقد كلامهم، فأتاهم القهرمان بشهد فأكلوه، وقالوا: ما رأينا شهداً أعذب، ولا أحسن منه. فقال إياد: صدقتم لولا أنّ نحلَه في هامة جبّار. ثم جاءهم بشاة مشوية فأكلوها، واستطابوها، فقال أنمار: صدقتم ولولا أنها غُذِيت بلبن كلبة. ثم جاءهم بالشراب

فاستحسنوه، فقال ربيعة: صدقتم لولا أنّ كَرْمته نبتتْ على قبر. ثم قالوا: ما رأينا منزلاً أكرم قِرىً ولا أخصب رَحْلاً[1] من هذا المَلك! فقال مُضر: صدقتم لولا أنه لغير أبيه. فذهب الغلام إلى الأفعى فأخبره. فدخل الأفعى على[2] أمه فقال: أقسمت عليك إلا ما أخبرتني مَن أبي. قالت: أنت الأفعى ابن الملك الأكبر. قال: حقاً لتصدقيني! فلما ألحّ عليها قالت: أيْ بنيَّ، إن الأفعى كان شيخاً قد أثقل، فخشيت أن يخرج هذا الأمر عنا أهل البيت، وكان عندنا شاب من أبناء الملوك اشتملت عليك منه. ثم بعث إلى القهرمان فقال: أخبرني عن الشهد الذي قدّمته إلى هؤلاء النفر ما خطبه؟ قال: أخبرنا بدَبْر[3] في كَهف فيه عظام نخرة، وإذا النحل قد عسلت في جمجمة من تلك العظام؛ فأمرت باشتياره، فأتوا بعسل لم يُرَ مثله قط، فقدّمته إليهم لجودته. ثم بعث إلى صاحب مائدته، فقال: ما هذه الشاة التي أطعمتها هؤلاء النفر؟ قال: إنّي بعثت إلى الراعي أن يبعث لي أسمن ما عنده. فبعث بها. فسألته عنها فقال: إنها أول ما وُلدت من غنمي، فماتت أمُّها، وأنِست السخلة بجراء الكلبة ترضع معهم فلم أجد في غنمي مثلها، فبعثت بها إليك. ثم بعث إلى صاحب الشراب وسأله[4] عن شأن الخمر، فقال: هي كرمة غرستها على قبر أبيك، فليس في بلاد العرب مثل شرابها. فعجب الأفعى من القوم وقال: ما هم إلاّ شياطين! ثم أحضرهم وسألهم عن وصية أبيهم، فقال إياد: جعل لي خادماً شمطاء[5] وما أشبهها. فقال الأفعى: إنه ترك غنماً بَرشاء فهي لك

(١). ت: رجلاً.

(٢). ت: إلى.

(٣). ت: اجتزنا بدير.

(٤). ت: فسأله.

(٥). ت: شمطأ.

ورعاؤها مع الخادم. وقال أنمار: جعل لي بدرة ومجلسه، وما أشبههما. فقال: لك ما ترك من الرقة، والأرض. وقال ربيعة: جعل لي حبالاً سوداً وما أشبهها. فقال: ترك أبوك خيلاً دهماء وسلاحاً فذلك لك وما فيها من عبيد؛ فقيل ربيعة الفرس. وقال مضر: جعل لي قبَّة حمراء وما أشبهها. قال: إن أباك ترك إبلاً حمراء[1]، فهي لك: فقيل مضر الحمراء. فكانوا كذلك حيناً من الدهر إلى أن أصابتهم سنة. فهلكت الشاء[2]. وعامة الإبل، وذهبت بالرقة. والمتاع، وكان ربيعة يغزو على خيله ويغير ويعول إخوته: وكان سبب تحوّل أنمار إلى اليمن أنه تعرّق عَظْماً في جُنْح الليل، ثم دحا به وهو لا يُبصر، ففقأ عين مُضر، فصاح مُضر، وتشاغل به إخوته، فاعرَوْرَى أنمار بعيراً من إبله فلحق بأرض اليمن.

ثم وُلد لمُضر المقدَّم ذكره إلياس، على عمود النسب، وولد له خارجاً عن عمود النسب: قيس عيلان بن مضر[3] -بالعين- وقيل: إنّ عيلان فرسه، وقيل كلبه، وقيل: عيلان أخو قيس، وهو إلياس[4] بن مضر. وقد جعل الله تعالى من الكثرة لقيس أمراً عظيماً. فمن ولده قبائل هوازن[5]، ومن هوازن بنو سعد بن بكر بن هوازن، الذين كان فيهم رسول الله (ﷺ) رضيعاً. ومن قبائل قيس بنو كلاب، وصار منهم أصحاب حلب. وكان أوّلهم صالح بن مرداس، ومن قبل قبائل عقيل[6] الذين كان منهم ملوك الموصل، المقلَّد، وقِرواش[7] وغيرهما. ومن[8] ولد قيس بنو عامر بن صعصعة[9]، وخفاجة. وما زالت لخفاجة إمرة العراق من قديم، وإلى الآن[10]. ومن هوازن أيضاً بنو ربيعة بن عامر ابن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن بن منصور بن عكرمة بن خصفة[11] بن قيس بن عيلان. ومن هوازن أيضاً جشم بن معاوية بن بكر بن هوازن، ومن جشم دريد بن الصمَّة. ومن قيس

---

(١). ت: حمر.

(٢). ت: الشاء.

(٣). انظر: الطبري، تاريخ: ١/١١٠٨: ابن عبدربه، العقد: ٢/٣٥٠.

(٤). د: الناس.

(٥). انظر: ابن عبدربه، العقد: ٣/٣٥٣-٣٥٥: ابن حزم، جمهرة: ٢٦٤-٢٧٣: ابن سعيد، نشوة الطرب: ٢/٥٠٠.

(٦). ت: فتي.

(٧). ت: الفرواش.

(٨). ت: من.

(٩). ت: بنو عامر وصعصعة.

(١٠). انظر: ابن سعيد، نشوة الطرب: ٢/٥٠٢-٥٠٤.

(١١). ت: حفصة.

أيضاً بكر وبنو هلال. وثقيف، واسم ثقيف عمرو بن منبِّه بن هوازن. وقد قيل: إنّ ثقيفاً من إياد، وقيل: من بقايا ثمود، وهم أهل الطائف. ومن قيس عيلان أيضاً بنو نمير، باهلة. ومازن، وغطفان، وهو ابن سعد بن قيس عيلان. ومن قيس أيضاً بنو عبس بن بغيض بن ريث بن غطفان بن سعد بن قيس عيلان. وكان بين عبس، وذُبْيان حروب داحس[1] المقدَّم ذكرها. ومن بني عبسٍ عنترة العبسيّ، وادَّعاه أبوه[2] شدَّاد بعد أن كبر. ومن قيس أشجع[3]، وهم أيضاً من ولد غطفان. ومن قيسٍ قبائل سليم؛ ومن قيس بنو ذبيان بن بغيض، ومن بني ذبيان المذكورين، بنو فزارة، فمنهم حصن بن حذيفة ابن بدر الذي يمدحه زهير بقوله[4]:

تَـراهُ إذا مـا جِئتَـه متهـلِّلاً كأنَّك تُعْطيه الذي أنت سائلُهُ

وأسلم حصنٌ ثم نافق. وكان بين بني ذبيان وبين عبس إحنٌ وحروب معروفة. ومن بني ذبيان النابغة الذبياني. ومن قيسٍ عدوان بن عمرو بن قيس عيلان، وكانوا ينزلون الطائف قبل ثقيف. ومنهم ذو الإصبع العدوانيّ الشاعر. إنتهى الكلام على قيس.

وولد لإلياس، مدركة، على عمود النسب، وولد له خارجاً عن العمود طابخة، وبعضهم ينسب مدركة، وطابخة إلى أمّهما خندف. واسمها ليلى بنت حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة. وجميع أولاد إلياس من خندف، وإليها ينسبون دون أبيهم فيقولون بني خندف، ولا يذكرون إلياس[5]. وصار من طابخة الخارج عن العمود قبائل، فمنهم بنو تميم بن طابخة والرباب، وبنو ضبَّة. وبنو مزينة، وهم بنو عمرو بن أدّ بن طابخة. نسبوا إلى أمّهم مزينة بنت كلب بن وبَرَة[6].

ثم ولد لمدركة بن إلياس خزيمة على عمود النسب، وولد له خارجاً عن العمود هذيل، وغالب، وسعد، وقيس. المنسوب إليهم أبناؤهم. ومن هذيل جميع قبائل الهذليين. فمنهم عبدالله بن مسعود صاحب رسول الله (ﷺ). وأبو ذُؤيب الهذلي الشاعر. وغيره[7].

(١). ت: كاحس، انظر: ابن عبدربه، العقد: ٥/١٥٠؛ أبو الفداء، المختصر: ١/٥٦٦.
(٢). ت: وادعا أبو شداد.
(٣). ت: أسجع.
(٤). ثعلب، شرح شعر زهير: ١١٢.
(٥). ت: الناس.
(٦). انظر: ابن الكلبي، جمهرة النسب: ٢٧٧؛ ابن حزم، جمهرة: ١٩٩.
(٧). انظر: ابن الكلبي، جمهرة النسب: ١٣٠، ١٣١، ١٣٣؛ ابن حزم، جمهرة: ١٩٦.

ثم ولد لخزيمة المذكور كنانة على عمود النسب، وولد له خارجاً عن العمود الهُون، وأسد ابنا خزيمة. فمن الهُون عضَل، وهي قبيلة أبيهم عضَل[1] بن الهون بن خزيمة. ومنه أيضاً الدِيْش بن الهون، وهو أخو عضَل. ويقال لهاتين القبيلتين، وهما عضَل وديش القارة[2]. وأما أسد بن خزيمة فمنه الكاهلية ودودان وغيرهما. وإليه يرجع كلُّ أسَديّ[3].

ثم ولد لكنانة المذكور النضر بن كنانة على عمود النسب، وكان[4] للنضر عدة إخوة ليسوا على العمود، وهم مِلكان، وعبدُمناة، وعمرو، وعامر، ومالك، أولاد كنانة. فصار من مِلكان بنو مِلْكان، وصار من عبدمَناة عدة بطون، وهم بنو غفار -رهط أبي ذَرّ. وبنو بكر، ومن بني بكر الدُئِل- رهط أبي الأسود الدُئلي. ومن بطون عبدمناة بنو ليْث. وبنو الحارث، وبنو مُدلِج وبنو ضمرة. وصار من عمرو بن كنانة العمريون، ومن أخيه عامر العامريون. ومن مالك بن كنانة بنو فراس[5]. ومن بطون كنانة الأحابيش، وليسوا من الحبشة، بل هم من عرب كنانة، فهؤلاء إخوة النضر، وولدهم. وأما النضر فقيل: إنه قريش. والصحيح أن قريشاً هم بنو فِهر[6].

وولد للنضر مالك على عمود النسب والصَلت، ويخلُد.

وولد لمالِك فِهر على عمود النسب، وفهر هو قريش، كل من كان من ولد فهر[7] فهو قرشي، وَسمي قريشاً لشدته تشبيهاً له بدابة من دواب البحر يقال لها القرش. وقيل إنّ قُصياً لمّا استوى على البيت وجمع أشتات بني فهر حول الحرم سُموا قريشاً لأنه قرَّشهم أي جمَعهم، كذا نقل ابن سعيد[8] المغربي[9]. فعلى هذا تكون لفظة قريش اسماً لبني فهر لا له. ولم يولد لمالك غير فِهر على عمود النسب.

---

(١). ت: عقيل.

(٢). ابن الكلبي، جمهرة النسب: ١٦٦.

(٣). ابن الكلبي، جمهرة النسب: ١٦٨.

(٤). ت: فكان.

(٥). ت: فراش.

(٦). الزبيري، نسب قريش: ١٢.

(٧). ت: وكل من كان من ولده فهو قرشي.

(٨). ت: ابن سعد.

(٩). ابن سعيد، نشوة الطرب: ١/٣٢٢.

وولد لفهر غالب على عمود النسب. وولد له خارجاً عن العمود ولدان: محارب، والحارث. فمن محارب بنو محارب -وهم شيْبان، ومن الحارث بنو الخُلَج[1]. ومنهم أبو عبيدة بن الجرّاح، أحد العشرة -رضي الله عنهم.

ثم ولد لغالب لؤي على عمود النسب. وولد له خارجاً عن العمود تيْم الأدرَم -والأدرم الناقص الذَقن. ومن تيْم بنو الأدرم. وكان لؤي سيد قومه، فاق شجاعة، وكرماً، وحلماً، وخطابة، وكان ذا مال وإبل كثيرة. وحُكي أنه ندَّ له بعير فخرج يردّه فاستصعب؛ فتناول حجراً، فضربه به في جبهته فأنفذه من الجانب الآخر، فعجب لذلك؛ ثم أخذ الحجر فوجده حديداً أخضر فأتى به قَيْناً من يهود، فقال له: إطبع هذا سيوفاً. ثم أتاه يتقاضاه نجازَها، وكانت قد نجزت. فأخذ القين سيفاً منها وهزّه بيده ثم قال:

سيوفٌ حِداد يا لُؤيَ بن غالبٍ حِدادٌ ولكنْ أين بالسيف ضاربُ

فتناوله لؤي بيده وضرب به عنقه.

ثم ولد للؤي أولاد: كعب على عمود النسب، وإخوته خارجون عن العمود، وهم: سعد، وخزيمة، والحارث. وجُشم. وعوف، وعمرو، وعامر، وسامة[2] أولاد لؤي بن غالب. ولكل منهم ولد ينتسبون إليه خلا الحارث. ومن ولد عامر بن لؤي عمرو بن عبدودّ[3]، فارس العرب، قتله[4] عليّ بن أبي طالب -رضي الله عنه.

ثم ولد لكعب مُرَّة على عمود النسب، وولد له خارجاً عن العمود هُصَيْص، وعديّ ابنا كعب. فمن هُصيص بنو جُمَح. ومن مشاهيرهم أمية بن خلف، عدوّ النبي (ﷺ). وأخوه أُبيّ بن خلف، وكان مثلَه في العداوة. ومن هصيص أيضاً بنو سهم. ومن بني سهم عمرو بن العاص السهمي. ومن عديّ بن كعب بنو عديّ، ومنهم عمر بن الخطاب، وسعيد بن زيد من العشرة -رضي الله عنهم.

ثم ولد لمرَّة على عمود النسب ابنه كلاب، وولد له خارجاً عن العمود تيْم، ويقظة[5]. فمن تيم بنو تيم، ومنهم أبو بكر الصديق، وطلحة من العشرة -رضي الله عنهم. ومن يقظة بنو

(١). ت: الحلج.

(٢). ت: أسامة.

(٣). ت: عندود.

(٤). ت: قبل.

(٥). ت: يقطه.

مخزوم. منهم خالد بن الوليد -رضي الله عنه، وأبو جهل بن هشام، واسمه عمرو المخزومي.

ثم ولد لكِلاب قصي على عمود النسب، وولد له خارجاً عن العمود زُهرة، ومنه بنو زُهرة. ومن بني زهرة[1] سعد بن أبي وقاص أحد العشرة، ونسب آمنة أمّ رسول الله (ﷺ)، ونسب عبدالرحمن ابن عوف -رضي الله عنهم. وقصي كان عظيماً في قريش، وهو الذي استعاد سِدانة البيت من خزاعة، وجمع قريشاً وأثّل مجدهم. وجاء الإسلام وهو على ذلك في التعظيم لشأنه، وكانوا لا يبرمون أمراً إلا بدار الندوة لأنها كانت داره. وبه اجتمعت قبائل قريش في الحرم. وفي ذلك يقول الشاعر[2]:

أبوكم قصيّ كان يُدعَى مجمِّعاً   به جَمَّعَ الله القبائلَ من فِهْرِ

ثم ولد لقصي عبدمناف، واسمه المغيرة، على عمود النسب. وولد له خارجاً عن العمود عبدالدار، وعبدالعزّى ابنا قصي. فمن بني عبدالدار بنو شيْبة الحَجَبَة. ومن ولد عبدالدار النضر بن الحارث، وكان شديد العداوة لرسول الله (ﷺ)، وقتله رسول الله (ﷺ) يوم بدر صبراً. ومن بني عبدالعُزّى ورقة بن نوفل بن اسد بن عبدالعزى. ولبني عبدمناف في قريش النسب الصميم، والحسب الكريم، وإلى هذا أشار أبو طالب عم النبي (ﷺ) بقوله[3]:

إذا افتخرتْ يوماً قُرَيشٌ بمَفْخرٍ   فَعَبْدُمَنافٍ أصلُها وصَميمُها

وولد عبدمناف أربعة أبناء، وهم نوفل، وعبدشمس، والمطّلب، وهاشم ويقال: إن عبدشمس، وهاشماً[4] ولدا لبطن، وجلداهما معتلقان، فلما فرَّقا سال بينهما الدم قالوا: إنه سيكون بينهما، وهكذا كان. وقد تظارف من قال[5]:

عبدُشمْس قد أوقدتْ لبني هـا   شم ناراً يشيب منها الوليدُ

فابنُ حَرْبٍ للمصطفى وابن هندٍ   لعلـيٍّ وللحسـين يزيـدُ

وكان عبدشمس ونوفل متألّفين بينهما، منافرين لهاشم[6] والمطلب، وكذلك كان هاشم والمطلب متألفين بينهما منافرين لنوفل وعبدشمس مذْ كانوا، ولم يفترق هاشم والمطلب في

(1). ليس في ت.

(2). ابن سعيد، نشوة الطرب: ١/٢٢٣.

(3). ديوان أبي طالب: ١٢٦.

(4). ت: عبدشمس وهاشم شق التوم.

(5). المقريزي، التنازع والتخاصم: ٣٣.

(6). ت: هاشم.

جاهلية ولا إسلام، وإلى هذا أشار النبي (ﷺ) بقوله[1]، ولهذا حُرِّمت الصَدَقة على بني هاشم مع بني المطلب ولم تُحرَّم على نوفل وعبدشمس، وكلّهم لأب. فأما عبدشمس فهو أبو أمية المنسوب إليه كلُّ أُمويّ، ومنه أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه، وهو عثمان بن عفان بن أمية بن عبدشمس بن عبدمناف. ومنه معاوية بن أبي سفيان صخر بن حرب بن أمية. ومنه مروان بن الحكَم بن ابي العاصي بن أمية. وسيأتي -إن شاء الله تعالى- ذكر معاوية. ومروان وأبنائهما فيما بعدُ لمكانهما هما[2] وأولادهما من الخلافة في موضعه. ومن ولد المطلب الإمام الشافعي محمد بن إدريس بن العباس بن شافع بن السائب ابن عبيد بن عبديزيد بن هاشم بن المطلب.

وأما الابن الرابع من بني عبدمناف. الذي علا قَدْره بأبنائه. فهو هاشم، وعليه عمود النسب. فإليه انتهت سيادة قومه، وكانت إليه الرفادة والسِقاية. وكان رجلاً موسراً. وكان إذا حضر الحج قام في قريش فقال: يا معشر قريش! إنكم جيران الله. وأهل بيته، وإنه يأتيكم في هذا الموسم زوّار الله، وحجاج بيته وهم ضيوف الله: وأحقُّ الضيف بالكرامة ضيفه. فاجمعوا لهم ما تصنعون لهم به طعاماً أيامهم هذه التي لابد لهم من الإقامة بها. فوالله لو كان مالي يسع ذلك ما كلّفتكموه، فيخرجون لذلك خرجاً من أموالهم[3]، كلُّ امرئ بقدر ما عنده فيصنع به للحاج طعاماً حتى يصدروا منها[4]. وكان هاشم أول مَن سنّ الرحلتين لقريش رحلة الشتاء والصيف. وأوّل من أطعم الثريد بمكة. وإنما كان اسمه عمراً فسُمي هاشماً لهشمه الثريد بمكة؛ فقال بعض العرب[5]:

عمرو الذي هَشَمَ الثَريدَ لقومه ... قومٍ بمكة مُسْنِتين عِجافِ
كانتْ إليه الرحلتان كلاهما ... سَفَرُ الشتاء ورحلة المصطافِ

وقبر هاشم بغزّة من الشام. ولد ولدين؛ أحدهما أسد، أبو فاطمة أمّ أمير المؤمنين علي

(١). إشارة إلى قول النبي: «إنهم -أي بنو المطلب- لم يفارقوني في جاهلية ولا إسلام وإنما هم بنو هاشم وبنو المطلب شيء واحد- ثم شبك بين أصابعه» مسند أحمد ٤/٨١).

(٢). ساقطة من ت.

(٣). ت: أموالكم.

(٤). ابن سعيد، الطبقات: ١/٤٥.

(٥). نسب ابن سعد: ١/٤٣ البيتين إلى عبدالله بن الزبعرى، وفي الطبري: ١/١٠٨٨ أنهما لمطرود بن كعب الخزاعي. وذكر ابن الكلبي البيت الأول دون نسبة (جمهرة النسب: ١/٩١-٩٢).

- عليه السلام، وعبدالمطلب، وعليه عمود النسب، وهو الذي[1] حفر بئر لرؤيا رآها -وكانت قد تتابعت على قريش سنون اقحلت الضَرْع، وأذهبت العظم، فرأتْ رُقيقة بنت أبي[2] صيفي بن هاشم في منامها هاتفاً يقول[3]:يامعشر قريش! إنّ هذا النبي المبعوث منكم قد أظلّتكم أيامه فحيَّ هلا بالخِصب!

فانظروا رجلاً منكم وسيطاً -ووصف صفة عبدالمطلب- فليَخلص هو وولده، وليهبط إليه من كل بطن رجل فليشُنُّوا[4] من الماء، وليمسُّوا[5] من الطيب، واستلِموا الركن، ثم ارتقوا أبا قُبَيس، وليَـتسق الرجل، وليؤمن القوم، فغِثتُم ما شئتم! فأصحبت رُقيقة مذعورة وقصّت رؤياهم، فقيل: هو شيبة الحمد، عبدالمطلب. ففعل، ومعه رسول الله (ﷺ) وهو غلام قد أيفع أو كرَب. فقال[6]: اللهم ساد الخلّة، وكاشف الكربة، أنت معلِّم غير معلَّم، ومسئول غير مبخَّل. وهذه عبدَّاؤك وإماؤك بعذِرات حَرَمِك، يشكون إليك سَنَتَهم: أذهبت الخُفَّ والظِلف. اللهم فأمطر غيثاً مغدقاً ضريعاً. قالت رقَيْقة: فَوَرَبِّ الكعبة! ما راحوا حتى تفجّرت السماء بمائها، واكتظَّ الوادي بثجيجه، فسمعت سادات قريش يقولون لعبدالمطلب: هنيئاً لك أبا البطحاء، أي عاش بك أهل البَطْحاء. وقالت رُقيقة[7]:

بشَيْبةِ الحَمدِ أسقَى الله بَلْدَتَنا ... لَمّا فـقـدنـا الحيَـا واجْـلَـوَّذَ المَطَـرْ
فـجـاد بـالماءِ جَـوْنيٌّ لـه سَـبَـلٌ[8] ... سَحَاً فعاشتْ به الأنعامُ والشَجَرُ[9]
مُبَاركُ الأمْر يُسْتَسْقَى الغمامُ بـه ... مـا في الأنـامِ لـه عِدْلٌ ولا خَطَـرْ

---

(١). ساقطة من ت.

(٢). ت: بنت.

(٣). ابن سعد. الطبقات: ١/٥٤.

(٤). فليسند.

(٥). ت: وليموا.

(٦). ت: قال.

(٧). الشعر في ابن سعد. الطبقات: ١/٥٤.

(٨). ت: حوى له سيل.

(٩). ت: السحر.

وولد عبد المطلب عشرة أولاد، الذين أعقب منهم ستة: حمزة، والعباس رض الله عنهما، وأبو طالب، وأبو لهب، والحارث، وعبد الله. فأما حمزة فانقرض عقبة. وأما العباس -رضي الله عنه- فكانت إليه السِقاية والرفادة(1) بعد أبيه عبد المطلب. وفي سُقيا الحجيج. والفخر بزمزم يقول القائل(2):

وَرِثْـنـا المجد(3) مـن آبـا	ئـنـا فسَـمـا بـنـا صُـعُـدا
ألم نَـسْـقِ الحجـيـجَ ونـنـ	حَـرِ الـدَلاَّفـةَ الـرُفـدا
فـإنْ نَـهْـلِـكْ فـلـم(4) نُمْلَكْ	ومَـن ذا خـالـد خُـلُـدا
فـزمْـزم في أرومَـتِـنـا	ونـفـقأُ عينَ مَـنْ حَـسَـدا

وهو أبو الخلفاء -قدّس الله أرواحهم- وسيأتي ذكرهم إن شاء الله تعالى في مكانه. وأمّا أبو لهب، والحارث فلهما عقب باقٍ. وأما أبو طالب فقد كثّر الله ببركات(5) البضعة الطاهرة النبوية أبناءه، ووصل نسبه وحسبه.

وكان عمر -رضي الله عنه- خطب أمّ كلثوم إلى علي -رضي الله عنه- فقال علي: إنها صغيرة! فقال عمر: زوِّجنيها يا أبا الحسن! فإن أرصُدُ من كرامتها ما لا يرصده أحد! فقال له علي: أنا أبعثها إليك فإن رضيتها فقد زوجتكها(6) فبعثها إليه ببرد؛ وقال لها: قولي له: هذا البرد الذي قلت لك! فقال ذلك لعمر. فقال: قولي له: قد رضيته! رضي الله عنك! ووضع يده على ساقها فكشفها فقالت له: أتفعل هذا! لولا أنّك أمير المؤمنين لكسرت أنفك! ثم خرجت حتى جاءت أباها وأخبرته الخبر وقالت: بعثتني إلى شيخ سوء! فقال مهلاً يا بنيّة فإنه زوجك! فجاء عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- إلى مجلس المهاجرين في الروضة كان يجلس فيه المهاجرون الأولون؛ فجلس إليهم وقال زفوني(7)! فقالوا: بماذا يا أمير المؤمنين؟

---

(1). ت: الرفادة.

(2). انظر الشعر في ابن هشام. السيرة: ١٥٨/١.

(3). د: الفخر.

(4). ت: ولم.

(5). ت: بركات.

(6). د: زوجتها.

(7). د: رفئوني.

فقال[١]: تزوجت أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب؛ سمعت رسول الله (ﷺ) يقول: كلّ نسب وسبب وصِهر منقطع يوم القيامة إلاّ نسبي وسببي وصِهري. فكان لي به (ﷺ) النسب والسبب، وأردت أن أجمع إليه الصِهر فزفوه[٢].

وولد أبو طالب أبناء ثلاثة، وهم: عقيل، وجعفر الطيار، وأمير المؤمنين وابن عم سيد المرسلين الواجب الحبّ أبو الحسن علي -عليه وعليهما السلام- ولكل من عقيل وجعفر وعلي أبناء. وسنذكر المشاهير من أبناء علي -رضي الله عنه[٣]- فعليهم عمود النسب المتصل بالنبي (ﷺ).

وأما عبدالله فعليه عمود نسب النبي (ﷺ). هو أبو سيدنا، ونبيّنا، وشفيعنا محمد خاتم الأنبياء (ﷺ). انتهى الكلام على طوائف العرب البائدة، والعاربة، والمستعربة بتوفيق الله تعالى سبحانه[٤].

وأما طوائف العرب الموجودين في زماننا فهم:

عرب الشام: ثعلبة الشام يلي مصر[٥] إلى الخرُّوبة[٦]، وهم من درما آل غيات الجواهرة[٧]، ومن الحنابلة، ومن بني وَهْم من الصُبيحيين. ومن أحلافهم فرقة من النعيميين ومن العار والجمان.

ثم جرْمٌ وهي بلاد غزة والداروم. مما يلي الساحل إلى الجبل، وبلد الخليل -عليه السلام. وفي العُرُوب جروم كثيرة: جرم قضاعة؛ ومنهم بنو جُشم، وبنو قدامة، وبنو عوف. وجرم بجيلة، وجرم عاملة، وجرم طيّئ -ومنها هؤلاء الذين نحن في ذكرهم[٨].

قال الحمداني: واسمه ثعلبة، واسم أمّه جرم، فحضنته فسمّي بها؛ وهو جرم بن الغوث[٩] بن طيّئ: وهو شمَجَى[١٠]. وقمران، وحيَّان[١١]. قال: وكانوا متفقين مع ثعلبة

---

(١). ت: قال.

(٢). د: فرفؤوه.

(٣). ت: رضي الله عنه إن شاء الله.

(٤). ت: بتوفيق الله سبحانه وتعالى.

(٥). ت: تلي مضر.

(٦). ت: الحروبة.

(٧). ت: إلى غياث الجواهر.

(٨). قارن بالقلقشندي. صبح الأعشى: ٢١١/٤.

(٩). ت: الغيث.

(١٠). ت: شمجان.

(١١). ت: حبان.

بالشام يدأ مع الإفرنج على المسلمين؛ فلمّا فتح السلطان صلاح الدين البلاد جاءت ثعلبة وطائفة من جرم مصر، وبقيت بقايا جرم مكانها. قال: والمشهور من جرم هذه الآن جذيمة. ويقال إن[1] لهم نسباً في قريش. وزعم بعضهم أنها ترجع إلى مخزوم. وقال آخرون: بل من جذيمة بن مالك بن حِسْل بن عامر بن لؤي بن غالب بن فِهر. قال: وجذيمة هذه آل عوسَجة، وآل أحمد، وآل محمود، وكلُّهم في إمارة شاوَر بن سِنان ثم في بنيه[2]. وكان لسِنان أخوان فيهما سؤدد. وهما غانم وخِضر. ومن هؤلاء جذيمة جمائع الرائدين[3]: جماعة منصور بن جابر، وجماعة عامر بن سلامة.

ومنهم[4] بنو أسلم. قال: وهذه أسلم من جذام لا من جذيمة. لكنها اختلطت مع جذيمة. ومنهم شبل ورضَيْعة جرم، ونيفور والقَدَرة، جماعة عُليم بن رميح في الأحامدة، والرفئة وكور من جرم، جماعة جابر بن سعيد وموقَّع؛ وكان كبيرهم مالك الموقَّعي، وكان مقدّماً عند السلطان صلاح الدين وأخيه العادل.

ومنهم بنو عوف[5]؛ قال: ويقال إنهم من جرم بن جِرمز من سِنْبس. ومن هؤلاء العاجلة، والضمان، والعبادلة، وبنو تمام، وبنو جميل. ومن بني جميل بنو مِقدام. ومن بني عوف[6] أيضاً آل نادر، وبنو غوث، وبنو بهيّ، وبنو خولة. وبنو هِرْماس، وبنو عيسى، وبنو سهيل، وأرضهم الداروم. وكانوا سفراء بين الملوك. وجاورهم قوم من زبيد تعرف ببني فُهيد، ثم اختلطوا بهم.

قال الحمداني: فهذه جرم الشام وحلفاؤهم[7] ومن جاورهم ولاذ بهم. وبنو جابر بدرمى[8] من غزّة، وتعرف بالحريث، جماعة فهد بن بدران.

وأما بنو صخر وهم الدعيجيون، والعطويون، والصُوَيتيون؛ وبلادهم ما حول الكرك - ومنهم طائفة بمصر. وبنو خصيب، وهم أشتات بمصر والشام. وبنو هوبر؛ ووفدت منهم

---

(١). ساقطة من ت.

(٢). ت: بيته.

(٣). ت: الرائد بين.

(٤). ت: وهم.

(٥). ت: بنو عور.

(٦). ت: بنو عور.

(٧). ت: وخلفاءهم.

(٨). ت: تدمري.

طائفة على المعزّ أيبك بمصر، وبقيتهم بالشام. وبنو مرة خُفراء القدس. وبنو فيض. وبنو شجاع بالقدس أيضاً، والعناترة[1] ببلد الخليل - عليه السلام، وبنو أيوب بجنين. وبنو نُمَير بن قيس خفراء غور الكفرين ونمرين. وبنو زهران بجبل عوف. وبنو عمرو[2] عرب الصلت، ومرجعها إلى جذام. بنو طريف من جذام: ومنهم مسهر، وعجرمة ومهدي[3].

وبنو مهدي منهم المشاطبة، ومنهم أولاد ابن عسكر. ومن الادعياء جماعة نُعيم. ومن بني مهدي أيضاً العناترة[4]، جماعة أولاد راشد، والسرات، واليعاقبة[5]، والمطارنة. والعفير[6]، والقطارنة، وأولاد الطابية[7]. وبنو دوس، وآل سيّار، والمخابرة[8]، والسماعة. والعجرمة من بني طريف؛ وكان شيخهم مسعود بن جرير ذا مكانة عند ولاة الأمور. وبنو خالد والسلمان، والفراسنة[9]، والدّرالات. والحمالات[10]، والمساهرة، والمغاورة[11]، وبنو عطا. وبنو مياد، وآل شبل، وآل رُوَيم، وهم غير الرُّويم المتقدم ذكرهم والمحارقة، وبنو عياض. وهؤلاء ديارهم البلقاء إلى باير إلى الصوّان إلى علم أعفر. وهؤلاء بالبلقاء طائفة من حارثة، ولهم نسب بقُرى بني عقبة[12].

ومن بني مهدي أيضاً بنو داود، وجماعة فضل بن عليم من المشاطية[13]. وجماعة زائد[14] بن بشير من العناترة، وجماعة قرسة بن جريان[15] من السماعة وجماعة غضبان بن عمرو بن جرير من العجابرة. وجماعة سلمان العبّادي من بني عبّاد. وجماعة

(١). ت: العناثرة.

(٢). ت: بنو عمر.

(٣). انظر عنهم: القلقشندي، قلائد: ٥٧.

(٤). ت: العناثرة.

(٥). ت: اليعاقبه.

(٦). ت: العفين.

(٧). ت: الطايته.

(٨). ت: المخامره.

(٩). د: الفرانسية.

(١٠). ت: الحمالان.

(١١). ت: المعاوره.

(١٢). انظر: القلقشندي، قلائد: ٦٦.

(١٣). ت: المشاطبه.

(١٤). ت: رائد.

(١٥). د: دون نقط.

عساكر بن حيّاش -وهؤلاء ديارهم حول الكرك. وبنو جوشن خفراء الموجب. وبنو يعجة[1] من هلبا خُفراء الزويرة. وبنو عجرمة خُفرا الرقطانة، والحَسَبَة من بني عقبة -وعقبة من جُذام، وديارهم من الشوبك إلى حِسمى إلى تبوك إلى تيماء إلى برد ورؤاف[2] إلى الحديد؛ وهو شرقي الحِجر. وآخر أُمرائهم كان شطَيّ بن عبيّة، وكان سلطاننا الملك الناصر قد أقبل عليه إقبالاً أحلَّهُ فوق السماكين، وألحقه بأمراء آل فضل وآل مِرا. وأقطعه الإقطاعات الجليلة، وألبسه التشريف الكبير، وأجزل له الحِباء، وعمّر له ولأهله البيت والخِباء.

وبنو زُهير عرب الشوبك أيضاً. والحُريث -وهم بالساحل الغزّاوي وغزوا عسقلان أيام الملك الصالح مع بيبرس الكنجي: فأقطعهم هناك.

وبنو سعيد عرب صَرخد -وهم من سعد جذام[3].

وزُبيد فِرقٌ شتّى بصرخد منهم. وبغوطة دمشق، وببلاد سِنجار. وبالحجاز، وباليمن. والذين بصرخد منهم آل مياس، وآل صيفي، وآل بَرّة، وآل محسن، وآل جَحّش، وآل رجاء[4]. وبغوطة دمشق آل رحال. وآل بدال، والدوس[5]. والحُريث -وهم جماعة نوفل الزبيدي.

وأمّا آل ربيعة - وهم ملوك البرّ، وأمراء الشام والعراق والحجاز. فهم آل فضل وآل مِرا. وآل عليّ من آل فضل.

قال الحمداني: وربيعة رجلٌ من سلسلة. نشأ في أيام أتابك زنكي وولده نور الدين - رحمهما الله- ونبغ بين العرب. قال: ويقال إنّ أباه رجل من عَلَقى. قال: وتقول بنو[6] ربيعة الآن إنه من ولد جعفر بن يحيى بن خالد بن برمك. قال: وهذا ليس بصحيح[7].

قلت: وأصلهم إذا نُسبوا إليه أشرف لهم لأنهم من سلسلة بن عُنين بن سلامان؛ من طيّئ. وهم كِرام العرب، وأهل البأس، والنجدة فيهم. والبرامكة، وإن كانوا قوماً كراماً فإنهم قوم عجم، وشتّان بين العجم والعرب وقد شرَّف الله العرب إذ بعث فيهم

---

(١). ت: نعجه.

(٢). ت: ترد

(٣). ت: من سعد حذام أو زبيد فرق شتى.

(٤). ت: آل رحا.

(٥). ت: واكروس.

(٦). ساقطة من ت.

(٧). القلقشندي، قلائد: ٧٣.

محمداً (ﷺ) نبيّه. وأنزل فيهم كتابه، وجعل فيهم الخلافة والمُلك، وابتزّ بهم مُلك فارس والروم، وقرع بأسنّتهم تاج كِسرى وقيصر. وكفى بهذا شرفاً لا يُطاوَل، وفخراً لا يُتَزَل.

قال المِهمندار الحمدانيّ: وزعموا أنّهم[1] من ولد جعفر من أخت الرشيد التي عقد له عليها -كما قالوا- لتخرج عليه على أنه لا يطؤها؛ فوطئها على حين غِرة، فحبلت بغلام كان هذا ربيعة من بنيه. قال: وهذا الخبر ليس بصحيح! وإن كان صحيحاً فقد دُفنت المرأة وولدها كما قيل في تمام الحكاية؛ ولم يُعلَم لهما أثر. قالوا: وكانت نكبة البرامكة بهذا السبب ومما يدل على بُطلان هذه الدعوة ما نُقل عن[2] ثِقات أنّ مَسْروراً الخادم سُئل عن سبب الإيقاع بالبرامكة فقال: كأنّك تظن حديث المرأة صحيحاً !؟ وأنّ الإيقاع بهم كان بسببه! فقلت: نعم! فقال: ما لهذا الخبر صحة، وإنما حسد موالينا وملكهم! قلت: ولا يبعد ذلك من ملك الملوك ولا سيّما البرامكة[3] قد علا صيتهم. وانتشر ذكرهم. وكثرت فيهم المدائح. وقصدتهم الشعراء، ووفدت عليهم الوفود حتى تضاءلت الخلافة بهم.

قال الحمداني: والأصح في نسب ربيعة هذا أنه ربيعة بن حازم بن علي بن مفرج بن دَغْفَل بن جراح بن شبيب بن مسعود بن سعيد بن حرب[4] بن السكن بن رفيع بن علقى بن حوط بن عمرو ابن خالد بن معبد بن عديّ بن أفْلَت بن سلسلة بن عمرو بن سلسلة بن غَنْم بن ثوب بن معن بن عتود بن عُنين بن سلامان بن ثعل بن عمرو بن الغوث بن طيّئ[5]. فهذا ما ذكره الحمداني. وأما نسب ربيعة إلى برمك فقالوا: ربيعة بن سالم بن شبيب بن حازم بن علي بن جعفر بن يحيى بن خالد ابن برمك.

قال الحمداني: ولَدَ ربيعة أربعة، وهم: فضل، ومِرا، وثابت، ودغفل؛ وسنذكرهم على ما هم في وقتنا، على ما ذكره لي محمود بن عرّام[6] من بني ثابت بن ربيعة. قال: فضْل منهم آل عيسى، وقد صاروا بيوتاً؛ بيت مهنا بن عيسى، وأميرهم وأمير سائر آل فضل أحمد بن مهنا. وبيت فضل بن عيسى؛ وأميرهم سيف بن فضل. وبيت حارث[7] بن عيسى. وأميرهم

(١). ساقطة من د.

(٢). ت: أنه.

(٣). د: من.

(٤). ت: حريث.

(٥). القلقشندي. قلائد: ٧٢.

(٦). ت: غرام.

(٧). ت: حادث

قناة بن حارث[1]. وأما أولاد محمد بن عيسى وأولاد حديثة بن عيسى، وآل هبة بن عيسى فتُبّاع[2] وهذا البيت أسعد بيت في العرب في[3] وقتنا الذي أشرقت فيه طوالع سعودهم، وأينع فيهم مخضر عودهم. وأما بقية بيوت آل فضل فمنهم آل فرج[4]؛ والأمير فيهم زيد بن طاهر، وغنام بن وُهيبة. وآل سُميط؛ والإمرة فيهم في صافية بن حُجَير بن الصُميد. وآل مسلم؛ والإمرة فيهم في ظامي بن عباس. وآل عامر؛ والإمرة فيهم في بني عامر بن درّاج[5].

وأما آل علي فهم وإن كانوا من ضِئضئ[6] آل فضل فقد انفردوا منهم واعتزلوا عنهم حتى صاروا طائفة أخرى وسيأتي ذكرهم. فهؤلاء آل فضل[7].

وأمّا من ينضاف إليهم ويدخل فيهم فمن يذكر وهم: زُغب[8]، والحُريث، وبنو كلب، وبعض بني كلاب. وآل بشّار -وهم موالٍ- وخالد حِمص، وطائفة من سِنْبس، وسعيدة، وطائفة من فرير[9]، وبنو خالد الحجاز، وبنو عقيل من كُرْز، وبنو رميم، وبنو حيّ، وقمران، والسراحين. ويأتيهم من عرب البريّة مَن نذكر[10]، فمن غزيَّة[11] : غالب. وآل أجود، والبطنين، وساعدة. ومن بني خالد آل جناح، والصبيات من عياس، والجبور، والدغم، والقرشة[12]، وآل مُنَيخر. وآل بيوت، والمعامرة[13]، والعلجات: وهؤلاء من خالد، وفرقة من عائذ، وهم آل يزيد وشيخهم ابن مغامس. والمزايدة[14]، وشيخهم كليب بن أبي محمد.

---

(1). ت: حادث.

(2). د: فاتباع.

(3). ت: وفي.

(4). ت: فرح.

(5). القلقشندي، قلائد: ٧٤-٧٧.

(6). ت: صيفي.

(7). القلقشندي، قلائد: ٨٣.

(8). ت: زعب.

(9). ت: فربر.

(10). د: يذكر.

(11). ت: غرية.

(12). د: القرسة.

(13). ت: والمعامن.

(14). ت: المرايدة.

وبنو سعيد، وشيخهم محمد العُليمي. والدواسر[١]، وشيخهم رواء بن بدران. هؤلاء غير من يحالفهم في بعض الأحايين، على أنّني لا أعرف في وقتنا مَن لا يؤثر صُحبتهم، ويظهر محبتهم. وأمير القوم -كما تقدم- أحمد بن مهنا، وهذا نسبه إلى ربيعة. أبوه مهنا بن عيسى بن مهنا بن مانع بن حديثة بن عصية بن فضل بن ربيعة[٢]. وديارهم من حمص إلى قلعة جعبر إلى الرحبة[٣]، آخذين على شقّي[٤] الفُرات، وأطراف العراق حتى ينتهي قبلةً بشرق إلى الوشم[٥]، وآخذين يساراً إلى البصرة. ولهم مياه كثيرة ومناهل مورُودة:

ولها مَنْهل على كلّ ماءٍ   وعلى كلّ دِمْنَةٍ آثارُ

قلت: وكان من خبر هذا البيت الذي رُفعت عُمُدُه، وشُدّ بطنب الجوزاء وتدُه؛ يد سلفت لعيسى بن مهنا عند الظاهر بيبرس حال تشريده، وتطريده احتاج فيها إلى فرس يركبه، فبالغ في إكرامه، وأركبه خيرَ خيله: فلما ملك قلّده الإمرة، ورقّاه، وأنهله ريّ الأمل ورَوّاه. ثم لم يزل[٦] يزداد سمواً. ويترقّى علواً حتى مات. وقُلِّد في الأيام المنصورية مهنا ولده الإمرة، وعظم بنفسه وبأبيه. وعرف بعلو الهمم. وبلغ المرجو من رعاية الذمم، وعفّ عن الفواحش إلاّ اللمَم؛ فزاد قدره ارتفاعاً وصدره اتساعاً.

قلت: هذا البيت أولُه رجل من طيّئ من بني سلسلة بن عُنَين بن سلامان. نشأ هذا الرجل في أيّام أتابك زنكي، وأيّام ولده نور الدين الشهيد -كما تقدم- وفَد عليه فأكرمه. وشاد بذكره. وإلى هذا عُنين ينتسب كلُّ عرب عُنين مَن كان من ولده أو من حلفائه[٧]. أو مَن استخدمه الأمراء الذين من ولده. وجدُّ[٨] مهنا هذا أبو أحمد الأمير الآن هو الأمير مانع بن حديثة بن فضل بن ربيعة الطائي الشامي التدمري، وكان أمير عرب الشام في دولة طُغتكين صاحب دمشق، ولم يُصرخ لأحد من هذا البيت بإمرة على العرب بتقليد من السلطان إلا من أيام العادل أبي بكر أخي السلطان صلاح الدين أمَّر منهم حديثة. ثم إنّ

---

(١). ت: الدواشر.

(٢). «أبوه مهنا... ربيعة» ساقطة من ت.

(٣). د: رحبة.

(٤). ت: سعة.

(٥). ت: الوسم.

(٦). ساقطة من ت.

(٧). ت: خلفائه.

(٨). ت: تضيف قبلها مهنا.

ابنه الكامل قسَّم الإمرة نصفين. نصفاً لمانع بن حديثة، ونصفاً لغنّام أبي ظاهر[1] بن غنام. ثم إنّ الإمرة انتقلت إلى أبي بكر بن علي[2] بن حديثة، وعلا فيها قدرُهُ، وبعد صيته. فلماً كان من البحرية ما كان ساقت تصاريف الدهر الملك الظاهر بيبرس إلى بيوتهم وهو طريد مشرّد، ولم يكن قد بقي معه سوى فرس واحد يعوّل عليه، فسأل أبا بكر بن[3] علي بن حديثة فرساً يركبه، فلم يُعطه شيئاً. وكان ذلك بحضر من عيسى بن مهنا، فأخذه عيسى. وضمّه إليه وآواه، وأكرمه، وقراه، وخيّره في رباط خيله، فاختار منها فرساً، فأعطاه ذاك الفرس، وزوّده، وبالغ في الإحسان إليه؛ فعرفها له الظاهر. فلما تملّك انتزع الإمرة من أبي بكر بن علي وجعلها لعيسى بن مهنا. وأتاه أحمد بن ظاهر[4] بن غنّام وسأله أن يشركه معه في الإمرة، فأرضاه أن يعطيه إمرة ببوق وعلم، وبقي أبو بكر بن علي شريداً طريداً، تارة بنجد وتارة بأطراف الشام إلى أن مات. وآمنه الملك الظاهر غير مرّة، وحلف له. فما وثق به، ولا اطمأن. ثم إنّ درجة عيسى بن مهنا علت عند الملك الظاهر ولم يزل معظّماً إلى أن مات. ثم إن الإمرة صارت لولده[5] الأمير حسام الدين مهنا بن عيسى في أيام الملك المنصور قلاوون، وعلت مكانته في أيام المنصور أكثر من مكانة أبيه.

حكى لي شيخنا شهاب الدين أبو الثناء محمود قال: حضرت طُرُنْطاي المنصوري -وهو مخيم بالخربة، وقد حضره أحمد بن حجّي أمير آل مِرا يدّعي بألف بعير أخذتها آل فضل لعربه: ومهنا حاضر، وكل منهما جالس إلى جانب من طُرنطاي. فألحّ أحمد بن حجّي في المطالبة، واحتدّ وارتفع صوته؛ ومهنا ساكت لا يتكلم. فلما طال تمادي أحمد في الضجيج وتمادي مهنا في السكوت أقبل طرنطاي على مهنا وقال: ما تقول يا ملك العرب؟ فقال: وما أقول!؟ نُعطيهم ما طلبوا، هم أولاد عمّنا، وإن كانت لهم عندنا هذه البُعيرات أعطيناهم حقّهم. وإن كان ما لهم شيء فما هو كثير إذا أعطينا بني عمّنا من مالنا! فقال له أحمد: لا! ألا قُلْ! إتكلّم! وزاد في هذا ومثله ومهنا ساكت. فلما زاد رفع مهنا رأسه إليه وقال له[6]:

---

(١). ت: طاهر.

(٢). ت: أحمد.

(٣). ساقطة من د.

(٤). ت: طاهر.

(٥). ساقطة من ت.

(٦). ساقطة من د.

يا أحمد! إن كان كلامك عليك هيّناً فكلامي عليَّ ما هو هيّن! وهذه الأباعر أقل من أن يحصل فيها كلام! وأنا معطيك إيّاها. ثم قام! فقال طرنطاي: هكذا -والله- يكون الأمير! ودام مهنا على هذا حتى جاءت الدولة الأشرفية. ولمّا خرج الأشرف لفتح قلعة الروم مرّت العساكر بسرمين إقطاع مهنا، فأكلت زُروعها وآذت أهلها فشكوا إلى منها أذيّة العساكر فشكا إلى الأشرف، فعزَّ عليه واستنقص همَّته: وقال: كم جهد ما آذوا حتى تواجهني بالشكوى، وما كان يُغتفر هذا الفِعل لهذا الجيش العظيم الخارج لأجل إذلال العدو وقصّ جناح الكفر!؟ وأسمعه من هذا ومثله.

ثم لمّا كان الفتح ركب الأشرف في الفرات في خواصّه ومعه جُلساؤه من بني مهدي، وكانوا يُضحكونه؛ فجاء مهنا بن عيسى فأمر بمدّ الإسقالة له ليدخل. فلما دخل عليها غُمِزَ عليه فحُرِّكت الإسقالة فوقع في الماء، وتلوّث بالطين، فهزئت به بنو مهدي، وضحك الأشرف ومَن حوله. وطوى مهنا جوانحه على ألمها ثم إنه استأذن في الانصراف إلى بيوته فأذن له وقال: إلى لعنة الله! فأسرّها مهنا في نفسه ولم يبدها. وركب من وقته وتوجّه إلى أهله. وأقام عندهم على حذر. ثم عاد الأشرف، ونزل بحماة، فبعث[1] إليه مهنا بخيل وجمال[2]: فقبلها، وخلع على رسوله وبعث له[3] خِلعة سنيّة ليُطمِّنه ثم يكبسه. فلما جاءت لبسها إظهاراً للطاعة وارتحل لوقته ضارباً في وجه البر. فلم يتمّ للأشرف ما أراده منه وعاد إلى مصر وفي نفسه من إمساك مهنا وبنيه وإخوته. وظنّ مهنا أن لا حقد عنده. فلم يلبث الأشرف أن خرج إلى الكرك، وخرج إلى دمشق. وخرج منها على أنه يصيد كِباش الجبل.

ثم إنّ مهنا عمل له ضيافة عظيمة؛ فحضرها الأشرف وأكل منها. ولمّا فرغ ذلك أمسك مهنا ومعه جماعة، وجهّزهم إلى مصر، وحبَسهم ببرج في القلعة، وضيّق عليهم إلا في الراتب لهم. وكان مهنا في الحبس لا يأكل إلا بعد المدّة[4]. وإذا أكل أكل ما يقيم رمقة، ويصلي الصبح، ويدير وجهه إلى الحائط[5]. ويصمت ولا يكلّم أحداً حتى تطلُع الشمس. ثم يقوم بعجلة وسرعة، ويأخذ كفاً من حصىً وتراب كان هناك، ثم يزمجر ويرمي به إلى

(١). ت: بعث.

(٢). د: بالخيل والجمال.

(٣). د: إليه.

(٤). ت: مدة.

(٥). د: للحائط.

الحائط كالأسد الصائل. فلما خرج الأشرف إلى الصيد ترك ذلك الفعل فقيل له في ذلك فقال: قضي الأمر! ولم يُرَ منبسطاً[1] إلا في ذلك الحين.

قال: وحدّثني مظفر الدين موسى، ولد مهنا قال: لمّا كنّا بالاعتقال كان عمّي محمد بن عيسى مغرىً بدخول المرتفق والتطويل فيه، وكان المرتفق مقارباً[2] لدور حريم السلطان وبعض الأمراء، فقلت له في ذلك، فقال[3]: يا ولد مهنا! لعلّي أسمع خبراً من النسوان فإنهنّ يتحدثن بما لا يتحدث به الرجال. فبينا نحن ذات يوم وإذا بمحمد قد خرج وقال: بُشراكم! قد سمعت صائحة النساء تقول: واسلطاناه! فقلنا له: دعْنا مما تقول! فقال: ما أقول لكم حقٌّ! وكان لنا صاحب من العرب تنكر وأقام بمصر فكان يقف قبالة مرمى البرج الذي نحن فيه، ويُومئ إلينا ونُومئ إليه غير أنه لا يسمعنا ولا نسمعه. فلما كنا في تلك الساعة، ومحمد يحدثنا وإذا بصاحبنا قد جاء وأومأ، ثم مدّ يده إلى التراب وصنعَ فيه هيئة قبر، ونصب عليه عوداً عليه خِرقة صفراء كأنها صَنجق السلطان ثم نكّسها وقعد كأنه يبكي، ثم وقف قائماً ورقص. فتأكد الخبر[4] عندنا بموت الأشرف. فلما فُتح علينا من الغد سألنا الفتّاح والسجانين فأنكرونا ثم اعترف لنا بعضهم، وكان ذلك أعظم سرور دخل على قلوبنا.

ولمّا خرجوا من السجن شكوا احتياجهم إلى النساء فأُطلق لهم جماعة من الجواري الأشرفيات، ولم يكن مرادهم بذلك إلاّ التشفي. وأعيد الجماعة إلى أهلهم إلا مهنا فإنه أُخّر مدة ثم جُهِّز. فلما خرج من دمشق لحقه البريد إلى ثنيّة العقاب بأن يعود، فامتنع وتوجّه[5] إلى أهله، وكانوا قد ندموا على إطلاقه. ثم إنه قدم مصر بعد ذلك مرات؛ وهو كالطائر الحذر الذي نُصب له الشرَك في كل[6] مكان. وآخر مدة قدمها في آخر الدولة الناصرية الأخيرة سنة عشر وسبعمائة، وكان برْلُغى الكبير مملوك مهنا، وهو الذي قدّمه؛ فلما وجده قد أُمسك تحدث فيه مع السلطان وقال: هذا مملوكي وقدَّمتُه ليُعطى إقطاعاً في

(١). د: متبسطاً.

(٢). د: قريباً.

(٣). ساقطة من ت.

(٤). د: الأمر.

(٥). ت: وقد توجه.

(٦). ت: بكل.

الحلقة أعطيتموه[1] فوق حقّه حتى صار[2] ملكاً من الملوك وأنا أريد أن تأخذ مالَه كلّه[3] ومماليكه وتعطيني إياه برقبته نيكون عندي إلى أن يموت! فوُعد بذلك. ثم إن بُرلُغى مات في ذلك الوقت فقيل له: قد مات! فعزّ ذلك عليه عدم قبول شفاعته مع ما كان يمتُّ به من سوابق الخِدم.

ولما كان السلطان في الكرك فخرج مهنا، وقد طار خوفاً ورعباً. ولما اجتمع بقراسُنقر، وكانت بينهما صداقة قديمة مؤكدة، وكل منهما مستوحش، فجدَّدا الأيمان والعهود على المضافرة وأن لا يسلم أحد منهما صاحبه. فلما توجه قراسنقر إلى حلب زاره مهنا. فخلا به مهنا فأراه[4] قراسنقر كتاباً من السلطان فيه إعمال الحيلة على إمساك مهنا، فقال له مهنا: ما أنت صانع؟ فقال: أنا أطيعه فيك وأجاهره، وهو يجعلني دأبه ووكْده فمن يحميني منه إذا قصدني؟ فقال له مهنا: تجيء إلينا! فتحالفا[5] على ذلك. ثم إن مهنا وفى[6] لقراسنقر لمّا توجه إليه على ما هو معروف في موضعه حتى أن زوجة مهنا عائشة بنت عسّاف بالغت في خدمة قراسنقر؛ وكانت تقول لمهنا: يا مُهنا! ذِكر الدهر لا تَدَعه! وكذلك محمد بن عيسى بن علي إلا[7] فضل بن عيسى، أخو مهنا. فما كان رأيه إلا التقرّب بإمساك قراسنقر والجماعة إلى السلطان! فكانت عائشة تقول: تعساً لأم ولدت الفضل بعد مهنا وعيسى!.

وكتب مهنا إلى السلطان يستعطفه ويقول: هؤلاء مماليكك ومماليك أبيك وكبار بيتكم؛ وقد هربوا من الموت وسألوا أن تكفّ عنهم وتجعل البيرة لقراسنقر، والرحبة للأفرم، وبهَسْنا للزردكاش. وإذا حضر منهم جامع للإسلام حضروا إليه وجاهدوا بين يديك. فأجابهم بإطابة القلب وأنه قد جعل الصُبَيبَة لقراسنقر، وعجلون للأفرم، والصلت للزردكاش أو إمريّة كما كان. فما اطمأنوا لذلك وزادهم نفوراً. فجهزهم إلى خربندا وقال له: متى حميت هؤلاء كنت أنا في طاعتك معهم، وأخفر الركب العراقي. وسيّرهم مع ابنه

---

(١). ت: فأعطى.

(٢). ت: جعلتموه.

(٣). ت: كل ماله.

(٤). د: فأقرأه.

(٥). ت: فتحالفنا.

(٦). ت: وافى.

(٧). ت: بن.

سليمان، وبعث معهم من جهته لخَرْبَندا ومَن حوله خيولاً مسوّمة؛ فقوبلوا بالإكرام، والرعاية، وخلعَ على سليمان وأطلق له أموالاً جمّة. وجُهزت لمهنا خلع وإنعامات وبرالغ بالبصرة له ولأهله، ومعها الحلة. والكوفة، وسائر البلاد الفراتية.

واشتدت الوحشة بينه وبين السلطان الملك الناصر وتأكدت، فأعطى الإمرة لأخيه فضل. وتظاهر مهنا بالمنافرة، والمباينة، والوحشة. وحضر إلى عند خرْبندا، فأكرمه غاية الإكرام، وأجلّه نهاية الإجلال، وقرر أمر الركب العراقي، وأعطى عصاه خِفارة لهم وتأميناً. وضاع[1] الزمان، وامتدت الأيام والليالي في المراوغة من مهنا وهو يعد السلطان أن يحضر إليه ويُمَنّيه، ويُسَوِّف به من وقت إلى وقت، والبريد يروح ويجيء والرسل تتردد. وجهز إليه أرسلان الدوادار والطُّنبغا الحاجب الذي عمل نيابة حلب، والشيخ صدر الدين ابن الوكيل؛ ولا ألوى ولا عاج. ثم كان أولاده وإخوته يتناوبون الحضور إلى السلطان وهو يُنعم عليهم بمئين ألوف، وبالإقطاعات[2] العظيمة والأملاك. وهم يُمنّونه حضوره ويعدونه بقدومه، ومهنا لا يزداد إلا حذراً. والسلطان لا يزداد إلا طمعاً. وإذا حضرت للمسلمين نصيحة أو مصلحة كان مهنا ينبِّه عليها ويشير بها؛ وكان السلطان يقبل نصحه ويعرف ديانته.

ثم لمّا كانت سنة أربع وثلاثين توجّه مهنا بنفسه إلى السلطان ودخل إلى مصر فأكرمه غاية الإكرام، وأنعم عليه إنعامات كثيرة إلى الغاية. وعاد مهنا[3] راجعاً إلى بلاده. ولم يزل إلى أن توفّي في ذي القعدة سنة خمس وثلاثين وسبعمائة بقرب سلَمية، وأقاموا عليه المآتم، ولبسوا السواد. وعاش نيّفاً وثمانين سنة. وكان وقوراً، متواضعاً لا يحتفل بملبس.

تتميم: وهؤلاء آل عيسى هم في وقتنا ملوك البرّ ما بعد واقترب، وسادات الناس، و «لا تصلح إلا عليهم العرب». قد ضربوا على الأرض نطاقاً وتفرقوا فجاجها حجازاً وشاماً وعِراقا. أنّى نزلوا خلّتَ الأرض قد رمت أفلاذها[4]، أو السماء قد مرت رذاذها، ترتجّ بخيولها صهيلاً وتحتج بسيوفها على الرقاب ضليلا. تجمع قنابل[5]، وتلمع مناصل، وتنبت

(1). ت: وصاع.

(2). د: والإقطاعات.

(3). د: منها.

(4). ت: أقلادها.

(5). ت: قبائل.

قناً، وتُميت[1] فتناً. قد نصبوا بمدرجة الطريق خيامهم، وأوقروا في علم[2] الأسماع أعلامهم؛ أنّ الكرمَ أعلا مهمّ[3]. وتقارعوا في قِرى الضيفان، وسارعوا إلى تقريب الجِفان. قد داروا على البلاد أسواراً حصينة، وسواراً على معصم كل نهر[4]، وعِقداً في جيد كلّ مدينة، وأحاطوا بالبرّ من جميع أقطاره. وحالوا بين الطير المحلّق وبين مطاره، وحفظوه من كل جهاته، وحرسوه من سائر مواضعه وآفاته، وصانوه من كل طارق يتطرق، وسارق يتسلّل أو يتسرّق. فلا تُبصر إلا مرسى خيام، ومسْرى هيام، ومورد كِرام، وموقد ضِرام، ومقعد هُمام، ومعقد[5] ذِمام، ومجال غَمام. وآجال رزقٍ أو حِمام، ومعهد أيادٍ جِسام، ومشهد يوم يرعف به أنف قناة أو حسام؛ وتكبير وتكثير صلات، ومكان مفزع، وأمان مَن من يجزع. وملجأ خائف، وملجَم حائف. وسجايا ملكية، وعطايا برمكية، ومواهب طائية، ومذاهب حاتمية، وبوادر ربيعية، ونوادر مرعية. وصوارم تنحس بذيلها الرقاب، ومكارم تتحسّس على آثارها السحاب. لا يُطرق لهم غاب، ولا يطرق لهم بذل رغاب. ولا يطرح لهم بيت مضيف، ولا يطيح إلا إليهم تابع مشتى ومصيف. لا يخلو ناديهم عن سيّد مُسَوَّد، وكريم مقدم، وشجاع بطل، وجواد كريم، وحليم وقور، ووافد آمل، وقاصد نائل[6]. وصارخ ملهوف، وهارب مستجير. لا تنفك لهم ناراً قِرىً وقراع، ومناراً منىً ومناع، يسرح عدد الرمل لهم إبل وشاء، ومدد البحر ما يريد المريد منهم ويشاء. تطل منهم على بيوت قد بُنيت بأعلى الرُبى وبلغت السحاب وعقدت عليها الحُبى. قد اتُّخذت من الشعر الأسود، وبُطِّنت بالديباج والحرير والوَشْي المرقوم، وفُرشت بالمفارش الروميّة، والقطائف الكرجية، ونُضِّدت بها الوسائد، وقامت حولها الولائد. وشدّت بوتد السماء أطنابُها وأُعدت لطوالع النجوم قِبابُها، وأُرخيت سجفها، وشرِّعت أبوابها إلى الهواء، واستُصرخت واستُغيث بها لدفع اللأواء، ورُفعت عُمُدُها، ووُضعت حَجَلاتها، وقُرِّر في الأرض وتدها، وطلعت البدور في أكِلّتها. ورتعت الظباء في مشارق أهلّتها. وحولهم خيول تحمي حُجُبَها، وترمي إزاء البيوت سُحُبَها، وتعرف

(١). ت: تعنيت.

(٢). د: عالم.

(٣). ت: أعلامهم.

(٤). ت: نهد.

(٥). ت: مقعد.

(٦). ت: بنائل.

بين العرب الأتراب عُرُبها. وتعرض في الشُّهُب الحِسان نُخَبها من كرائم الخيل المخبورة(١)، وعظائم السيل معنى وصورة. قد تمايلت ألواناً. وتقابلت في مناسب الخيل إخواناً، وتنوَّعت شِياتها فبرزت بستاناً. وتسرَّعت أعْوَجيَّاتُها السوابق فقصر مدى لاحق؛ وتقدَّمت قُدّامه ميداناً. وتفرّعت من أصول

العرب في ربيعة ومضر، وتبرّعت بما لا يلزمها فمنها ما انتظر ما خلفه، ومنها ما فات النظر. وتقدّمت وأمهلت وراءها الرياح. وأقدمت وأنهلت ظمأها مورد الصباح. ومرّ كل طِرفٍ منها وطَرَف البرق حائر، ومدَّ في جوار المجرة ما فيها طريق لسائر. وحُفّت والطير في وكُناتها لم تبرح. ووقّت والوحوش في مكان بياتها لم تسرح. تمّت كأنها كُثبان، وهمّت كأنها عِقبان. قد صلدَت حوافرها كأنها قَعْب حالب، وصَلَدَت مشاعرها كأنها وجه عاتب. واتسع مِنْخرُها كأنه وِجار ثعالب. وارتفع مؤخرُها كأنه رَبوة مُراقب. وطال غُرّتُها كأنّه انتظار غائب. ومالت نواصيها كأنها عقود ترائب. ودقّ مِنخرُها كأنه طرف قاضب. ورقّ أديمُها كأنه حديث حبائب. واتّسع ذيلها كأنه ذيل راهب وتلبّد(٢) مِغرزها كأنه إقعاء أرانب. وقصر عجب ذنبها كأنه بقاء ذاهب ونهد موضع لبَبَها كأنه نهد كاعب. ونتأ صدرها كأنه نهضة واثب. ووَلْوَلَت آذانها كأنها أقلام(٣) كاتب. ولانت شعرتُها كأنما(٤) عليها لوف سليط ذائب. ولانت عريكتها كأنها للتأديب لعبة لاعب. ونظرت نظر حاذر، وتلفّتت التفات ربائب. وأشبهت الوحش والطير فطوراً تُحلق وطوراً تواثب. وقد برزت شُهباً ودُهماً وحُمراً وشُقراً وصُفراً وما بين هذه الألوان، وما بين صنوان وغير صنوان. قد رَتَعت كالظِبا، ورُفعت كالخبا، وطلعت كالكواكب، وتطلّعت كالرُّقبا. وجالت أمام بيوت الحي تهز تندوة(٥) عِطفه، وخطوة فادسه المعلم في موقف صفّه. فكم ترى من سابق وسابقة توافقا فلم ترَ أيّهما سليلة سابقين تناحلاها، ولا بأيّهما تعقد الظبية الأدماء طُلاها، ولا أيّهما بلغ السما واغتصب النجوم حُلاها. ولا أيّهما الموصوف في كرائم الخيل. ولا أيّهما ابترد بِرداء النهار أو أطاح رِداء الليل. من حصون كالحصون الشوامخ تتحصن على صهَواتها، ويتحصّل الظفر ولا تروى فواغر

(١). ت: المحبورة.

(٢). ت: تلتذ.

(٣). ت: أعلام.

(٤). ت: كأنها.

(٥). ت: ندوة.

لَهَواتها. قد اشتدت مبانيها الوثيقة. وتشيّدت فكانت حصوناً لا حِصناً على الحقيقة. ومن حجرٍ كالحجر بل شيء أشدّ من الحجارة، وأشد من السهم في مهاجمة الغارة. قد تبرّجت تبرُّج الحِسان، وتخرَّجت تخرُّج الكاعب وبرزت للفرسان. وأقبلت في ميدانها تتمطر. وجالت وعنانها لا يزيد على أن[1] يتخطّر. كِلاهما محفوظ

النسب، ملحوظ الحسب. محفوظ البخت لا عن غير سبب. فمن قرطاسية بيض ذاب على أعطافها اللُّجين. وبقي علينا أثر الفضة وذهب العين. أقبلت كأنها البيض الكواعب، واستقبلت كأنما أيّام وصل الحبائب كأنّها جلّت بالنهار، أو حُوِّلت إلى مطالع الأقمار. أو خوِّلت[2] مما تلبس الشمس من حُلل الأنوار. وجاءت قرطاسية لمّا قرطست سهامها، وقرّبت مواعيد الظفر أيامها. ومن دُهمٍ لم ترضَ بالليل ردَّ رِدائها، ولا بِلَمَم الشبيبة شبيبة ظلمائها، ولا بالأهِلّة إلا تحت موطئ حوافرها، ولا بالصباح إلا لِما بين وظيفها ومشاعرها. فأما ما سال أو استدار من الغُرر الصِباح، فإنه مما قرَّ أو تموَّج بين عينها من لوامع الأسِنّة لا من طلائع الصباح. ومن حُمْر أوقَد الشفَق عليها جمره، وبدَّد الشقيق على كأسها خمرة. منها مُعصم بسواد كأنّما ذرَّ المِسك على وردها، أو أمسك الليل فحَمّته على وقْدها. ومنها كُميت يميل براكبه ميل الكُمَيت بشاربها، ويستطيل باقي ظُلُماته في شَفَق الصباح على ذاهبها. ومنها ورد كأنه أباة قد قُطف أو رباة إذا شُبِّه بخدٍّ غانية أو وُصف. وفيها صامت وأعرّ منها ما طلع كواكب[3] الصبح بمحلّقه. ومنها ما هاب خوض الدماء فتغطى بسجاف أُفُقه. فأما الحجول فمنها ما أدار عليه حِباها، ومنها ما قال هذه حيلة لنقيصة فأباها. وبدت تعرف الأنفة في مناخيرها الشُمّ. وتُعوِّض الجبال إذا أقبلت شوامخها الصمّ. ومن شقر قدح الفرق فيها فما أفاد، وقرّح الذهب عينه حتى لبست منه جيداً من جساد. واصطدمت جِياد الخيل فطار منها شرارة من زناد، واقتحمت حلبة السباق فجاءت سابقة عليها آثار الخلوق دون بقيّة الجياد. ومنها رافلة في أعلام الشيات. ومنها عاطلة من أعلامها، هذه قد تجلّت بالغُرر والحجول، وتلك جعلتها حِلية لأيامها. ومن صفر هي في العصر الأصائل، وفي الفجر آخر ما بقي من شعاعِه السائل، شاقت اللهب[4] وهو الطائر

(١). ت: أنه.

(٢). ت: حولت.

(٣). ت: كوكب.

(٤). د: اللجب.

والطائل. وفاقت الذهب وهو الحائز والحائل وراقت فهي الشمول، ورقّت فهي الشمائل وتاقت إليها لُمع البرق فحال دونها حائل. وضاقت بها الحُزم واتسعت مصبغات الغلائل. وساقت إليها الشمس وأوقعتها من خيط سوادها الممتد في الحبائل. وتوّهت بالحبش[1] لما قيل إنها حبشية، وأفاضت عليهم النائل؛ من فواضل

حُللها الموشية. وسعد بها هذا الجنس لما نسبت إليه، وحَمِد لمّا كان النسب يصح أن يطلق عليها وعليه. وفخر كل حبشيّ لكونها تعد منه وهو من أعدادها. وتطاول حتى موّه عليها بالشبه وأخذ في وجهه محاسن التخطيط من خط سوادها. فكأنها نار ترفع في الليلة الظلماء لها لهب فتوقّدت شُعلها إلا ما اعتلق به الليل من العرف والناصية والذنب. ومن حصير ما منها إلاّ من بيت العرب. وما فيها إلاّ ما يهتدي إلاّ إلى الهرب. كأنها عليه[2] ظل دائب، أو علاها رحيق سحائب. أو ألقي عليها زبَرْجد أو أُبقي منها أثر شعاعة مهند. قد أفادتها الجِباه نُضرتها. والشفاء من كثرة التقبيل خُضرتَها. وبدت ولا هي بيض ولا جون. وغدَت تَنتشي وما قطعت بها عناقد النواصي ولا عُصرت من أعطافها ابنة الزرجون. ومن بلق كِرام ما قعدت بها هجنة. ولا بعدت عن شبهَين أخذت من كلٍّ منهما حُسْنه. لا كما يقال إن كل منهما علَم على صاحبه يُعرف به إذا ركبه. ويحلف أنه اقتاد الروض وتوقّل منكبه. منها ما يقابل بين صباح وظلام. ومنها ما ماثل بين البياض والحمرة خدَّ غلام. فأما الأول فقد طَلَع منظراً حسناً، وجمع بين ضدين لمّا اجتمعا حسنا. كأنه توليع السحب. وترضيع السُحُب. أو قطع يهزّ بالشهب، أو نقع حرب ظهر في وجوه لمعان القُضُب. في كلٍّ منهما ما أظلم وما أنار. وما[3] أظل جانبيَ الأرض ففي وقت واحد في هذا ليل وفي هذا نهار. وأما الثاني وكأنه اختلاط ماء وراح، واختلاف مجاري شفق على صباح. لا يقاس بها البرق وهو أحقر، ولا يُشبّه به إلا كان هو إلى التشبيه بها أفقر. ولا يبالغ واصفُه إلا قال كظهر الحصان الأنبط البطن يكشف الجُلَّ واللون أشقر. ومما سوى ذلك جميعه من ألوان الخيل مما يُمزج من أحمر يقق، وأصفر أصيل، وأخضر سحر، وأشهب نهار، وأدهم ليل. ومنه كل دَيْزج[4]، ذلك بفيروزج. كأنما لوِّن من ماء يتموّج، أو كُوِّن من سماء صدره بصداد على سناه ينسج.

---

(١) ت: الجيش.

(٢) ت: إليه.

(٣) تضيف ت: وما أناره.

(٤) ت: ديزح.

واصداً لا يقدر جون الغمام لمعارضته يتصدى. وأكهب لا هو كالأحمر أو كالأشهب. وهي فتية وما فيها إلا عتيق: وكثيرة ومما فيها إلا ما هو قليل كالصديق.

ما استنكرها إلا مَن تجرَّب، ولا استكبرها إلا مَن جاء بنقعِها في وجه السماء يُترِّب. وكأنّما عنيتها في قصيد كنت في وصف الخيل[1] بنيتها؛ وهي :

أقبلَتْ في ميدانها تتجارى ... هي والريحُ في المدى تتبارى

ودعتْ سابقَ الغمائم للسَبْـ ... ـق فأضحى بذيلها يتوارى

سابقاتٌ ما قصَّرَ البرقُ لمّا ... أدْرَكَ البرقُ بعدها الآثارا

سابقات ما فاتتِ الطَرْفَ حتى ... خلَت الشهْبَ في الظلامِ حَيارى

وأرَتْنا يومَ الرهانِ أناسيَّ ... سُكارى وما هم بسُكارى

من جيادٍ مَنسوبةٍ في بُيُوتٍ ... ليس تَرضى من غيرها الإضمارا

كلُّ حِجْرٍ كأنّها الحَجَرُ الصَلْـ ... ـدُ لهذا تُفَجِّرُ الأنهارا

وحِصانٌ كأنَّه شِعْبُ رَضْوى ... رابطَ الجَأشِ لا يخافُ وقارا

نُخبة الخيلِ من خيولٍ كرامٍ ... ردَدَتْ في اختيارها الاختيارا[2]

وأتَتْ بالجيادِ من كلِّ فَجٍّ ... واستجادتْ منها الخيار خِيارا

عَلَّمَتْها في حَرْبِها كلَّ شيءٍ ... في مجالٍ للموتِ إلاّ الفِرارا

مُشْرِقاتٌ كأنّها رَوْضَةُ الحَزْ ... نِ بَلِ الحَزْمِ أينعتْ أزْهارا

أبيضٌ جاءَ مثلَ يومِ وِصالٍ ... قد تعالى ضياؤهُ واستنارا

مُلْفِتاً جيدَهُ إلى ذاتِ حُسْنٍ ... مثله قد بَدَت نهاراً جَهارا

لا يباري الشهباءَ شيءٌ سواها ... ليس مثل الشهْباءِ ممّا يُبارى

وكذا أخضرٌ هو الآسُ غضّاً ... أشبَهَ المُرْدَ سالِفاً وعِذارا

وأتانا ما بين لَوْنَيْهِ يَحْكي ... مُذْ تَبَدَّى مساءَةً واعتذارا

مَعَهُ من شَرْواد خضراء تَجْري ... حيثُ تجري زُمُرُّداً مُشْهارا

وأغَرٌّ كأنّه الليلُ إلاّ ... ما بدا بين مُقْلَتيه نهارا

---

(١). ت: الخليل.

(٢). د: الاختبار.

أدْهَمٌ رَقَّ جِلْدُهُ فحَسِبْنا ... منه ما رقّ في الدُّجَى إسحارا

وشبيبه بجنسه بنتُ دهما ... ءَ بيهماءَ لا تخاف القِفارا

وكميتٌ لو قابل الخمر[1] في الكأ ... س شربْنا ممّا كساها العُقارا

ثُمَّ وَرْدٌ يَطيبُ منه شميمٌ ... قد قَطَفْنا من غُصْنِه أنْوارا

بهما من لَوْنَيْهما كلّ عَذْرا ... ءَ عليها يبدو حياء العَذَارى

وكذا أشْقَرٌ كريمٌ مُفَدًّى ... جاء كالبرق يستطيرُ شرارا

ثُمَّ شقراءُ كم تَوَلَّعَ صَبٌّ ... بهواها وبات يشكو النارا

وكذا أصْفَرٌ تراهُ أصيلاً ... سار نَجْمٌ منه وسالَ نُضارا

ثمَّ صفراء ما تشرّب طرفٌ ... خَمْرَها الحِلَّ ثم خاف الخُمارا

ثمَّ وافى عَقيبَها الأبْلَقُ الفَرْ ... دُ يَضُمُّ الظَّلامَ والأقْمارا

معه مِثْلُهُ من البُلْقِ لاثتْ ... فوق ثوب الدُّجى عليها الإزارا

فهيَ تَحكي بيضاء ملطومةَ[2] الجِسْ ... مِ فبعضٌ دَجَا وبعضٌ أنارا

وكذا أبْلَقٌ بأحمَرَ قَانٍ ... فَكَّ عَمْداً عن جَيْبِهِ الأزرارا

ثُمَّ بَلْقاءُ أقبَلَتْ تُخْجِلُ الخدَّ ... بياضاً من لونها واحْمِرارا

تتهادى في مَشْيِها كعَروسٍ ... أفْرَغوا فوقَها الجُيوبَ نِثارا

ما كفاهُمْ أنْ نقَّطوها إلى أنْ ... نَقَّطوا كلَّ دِرْهمٍ دينارا

ثمَّ في الخيل دَيْزَجٌ[3] ماج بحراً ... أو سماءً وصارماً بتّارا

ثمَّ حِجْرٌ تَلُزُّهُ فرأينا ... جَدْولاً منه صادفَ التيّارا

ثمَّ من سائر الجياد كِرامٌ ... أرسلَ الرّكضُ نَوْءَها مِدْرارا

وتذكَّرْ مع السوابق أصدا ... مثل ما تَصْدَأُ السيوفُ مِرارا

ثمَّ صدياءُ لا تُضاهى غَمامٌ ... مُكْفَهِرٌّ من سَيْلِها الأمطارا

بعدها أكهبٌ تحيَّرَ لَوْناً ... لا شقيقاً حَكَى ولا نَوّارا

لا ولكنْ بحُكْمِها في امتزاجٍ ... قد تردّى لذا وهذا شِعارا

ثمَّ يَتْلوهُ في المحاسن حِجْرٌ ... مِثْلُهُ لا يميلُ عنه ازورارا

---

1). إضافة من د.

2). ت: مظلومة.

3). ت: ديزح.

صافناتٌ زادتْ على الخير حسناً	في مــداهــا وزانت الأخــيــارا
وأتت في فِـعـالـهـا[1] وحُلاها	بصـفـاتٍ تُـعَـجِّـبُ الـنـظّـارا
مَلَكَتْ حُكْمَ مـالِكيها الأماني	وحَـوَتْ لـلـذي حَـواهـا الـفِخارا
سُـبَّـقٌ تجعلُ الأنـام جـمـيـعـاً	مـن رعـايـاهُ والـبـسـيـطـة دارا

فأمّا هؤلاء العرب إذا ركبوا الهياج أو وثبوا إلى معاركة الفِجاج، سدَّت الأفق قَتاماء، والطرف إبلاً كِراما. قد تقلّدوا سيوفاً تُغرِّق[2] الأرواح في لُجَجِها[3]، وتُقَصِّر مناظرات الرقاب لحُجَجها. كأنما طُبعت فيها حُمْرُ المنايا أو طُبِّقت[4] عليها سود الرَزايا. ترصَّعتْ[5] بالنجوم، وانتعَلتْ بالهلال، وتقطَّعت من الغيوم، وضَرَبَتْ مرْهَفات النِصال. لا يُخشَى ورَقُ حديدِها الأخضر، ولا يُجْتلى وجهِ فِرِنْدها الصَقيل ولا يُنظر. قيل لها صوارم لأنها صرمت الأعمار، وقواضب لأنها تَقتضب الأجل وتعجِّل الدَمار، ومَشرفيّات لأنها أشرفت على الرؤوس، ومُهنَّدات لأنها ترى رأي الهند في إحراق النفوس. ومناصل لأنها تتنصَّل لا ممَا جَنَت. وقواطع لأنها تقطع بالأمر أساءت أو أحسنت. كأنما تأكَّلت فيها النار أو تشكلت فيها الأنهار. ما على ضجيعها أين بات ولا قريعها عارٌ لعدم الثبات. ولا على حامِلها الجازر إن كثُرت لديه النحائر، أو كبُرت عليه من حيث الأعداء الجرائر. كأنّما رَصَعَتْ زُرْقَ اليَواقيت، أو علَت قُرى نَمْل أو قُرى رمْل لها فيها آثار مخافيت؛ وقد اعتقلوا من عوالي الرماح كلَّ رُدَيْنة سمراءَ ما ماس مِثلها قَدّ. ولا مال أهْيَفَ ولعب مَثلها دسْت يَد[6]. عواسل قُصُبها المرّان، عوامل شُهبها تعمل في أطرافها النيران. تطاولت لتثقُب[7] دُرَّ الكواكب أو لتثقُبَ سدَّ السحائب. ثمَ رأتْ أنّه لا تُروى بغير الدماء حوائم أسنَّتها العطاش، ولا يقوم بكفايتها إلاّ ورود الوَريد لا من المطر الرشّاش. فرَمَتْ على لبّات الرجال عُنُقَها، وبلَّت صَداها ونقعت

---

(١). ت: أفعالها.

(٢). ت: تعرق.

(٣). ت: لحجها.

(٤). ت: أطبقت.

(٥). ت: ترضعت.

(٦). ت: بند.

(٧). ت: لتنقب.

غليلها(١)؛ وما رَويَت(٢) من دماء أعدائها. ما دارت دوائرها على عدو إلا وخاف أن يُصعد على أسوارها أو يتسوّر، ولا صبَّحت مصاعها(٣) ذا عُنُق إلا تطاير بها وتشاءم بكعبها المدوّر. ورأيت من الرجال في تلك البيد صُقوراً تحمي(٤) محارمها، وسيولاً تَطُمُّ فِجاجُها لُيُوثاً ضراغم، وعِقباناً(٥) كواسر، وأبطالاً لا تعبأ بمن لاقت، ورجالاً لا تبالي أين نزلت. تدخل على عزيز قوم بلادَه، وتحمي عليه أرضه، وتردُ دونه ماءَه وتمنعه شُربَه. وتردّ عليه قولَه، وتصُدُّ عنه قومَه. وتأخذ مالَه إذا شاءتْ غصباً وتقسمه اقتساماً لا نهباً،

لا تحرس(٦) في ليل ولا تجتمع في نهار. كَفَتها المهابة أن تخاف، والمَنَعة أن تتوقّى. فإذا سارت قلت الشُهُب سارت، والسُحب سالت، والجبال مادت، والرمال مالت. تركب النجُب، وتُجنِبُ فتختال الأرض في حِلّية السماء ببُدور أخفاف المَطيِّ وأهِلّة حوافر الخيل، ونجوم أسِنّة الخُرصان. تُوَطّأ لهم الرواحل. وتُطوى بهم المراحل. وتبدو ركائبُهم كأنها قُلَلُ جبال أو حُلل نزال؛ يتّسع مجال الرياح بين فُروجها، وترتفع طوال الرماح فوق بُروجها، تَمُدُّ اعناقُها طلباً لقرب المنزل، وتجد أشواقها إلى أرض وتصبح عنها بمعزل. كأنها لِتمام الخَلْق بُنيان، أو لإكام الأرض تبيان. لا يقرّ بعينها الزئبق المتدحرج، ولا في بينها(٧) سيرها المُتَلَجْلِج. يتثنّى راكبها كأنه شارب ثمل، ولا يستقر كأنه بارق عمل، ركب من الإبل السحاب وهو مُحتفل، ووثب وكأنه لتمايلها يتخبّط تخبُّط الظبي في أشراك محتبِل؛ مَن امتطاها وركبها أضرم نشاطه، ومَن استبطأها فضربها ظَلَمَها وظلم بالضرب لها سياطة. والأكوار تتراءى عليها كأنها أهِلّة على غَمام، والمجرّة البِطان، والجَوزاء الزمام. وأمامَهم الظَعائن تجري بها في الآل السفائن وقد شدَّ كلُّ هودَج على كَور راحلته الثريّا، وسعد بسُعدى وطاب بريّا. فسايرتها نظرات الأحداق، وعادت ولم تحرج(٨)، وعاجت وما وقف لها سائق الرَكْب ولا عاجت ربَّة الهودج. فما فازت إلا من بعيد بنظرة، ولا فاءت إلا وبين الجوانح حسرة. وتعرَّض لها فلم

(١). ت: عللها.

(٢). ت: رقيت.

(٣). د: بصاعها.

(٤). ت: تهوى

(٥). ت: وعقاباً.

(٦). ت: تحوش.

(٧). ت: بيتها.

(٨). ت: تخدع.

تفعل ولم تخرج. وتعرض بها فما زاد على أن فقد قلبه وعاد وهو محرج. حتى إذا نزلوا بليل ونزحوا غدير النهار وجاء الظلام بسيل؛ أوقدوا ناراً يُشَبُّ بالمَنْدَل الرطب وَقودها، ويشدُّ بعنان السماء عمودها رقص بها الليل في قميص أُرجوان، وتنقّصَ ظلامته بأدنى ضوئها. وهو وإن تشعْشعَتْ كالسُّلاف، وتورَّعت إلا عمّا هو[1] إرث عن الآباء والأسلاف. نارٌ كرميّة ترمي بكل شرارة كطرف ضَرميّة تُشبُّ[2] بالعراق وضوؤها نائل وإسناف؛ تهتدي الضيفان بها لا بصوت النابح، وترتدي بشعاع دماء القِرى من كل بازل[3] كوماء. وطِرفٍ سابح[4].

وأما آل عليٍّ فأميرهم رَملة بن جمّاز بن محمد بن أبي بكر بن عليّ بن حديثة بن عُصيَّة[5] بن فضل بن ربيعة. وقد كان جدّه أميراً ثم أبوه. وقلّد الملك الأشرف جدّه محمد بن أبي بكر إمرة آل فضل حين أمسك مُهنّا بن عيسى. ثم تقلّدها من الملك الناصر أخيه حين بعث قِجْليس في طرد مهنا وسائر إخوته وأهله. ولمّا أُمِّر رملة كان حديث[6] السنّ فحسده أعمامُه بنو محمد بن أبي بكر فقدموا على السلطان بتقادمهم، وترامَوا على الخواصّ وسائر الأمراء وذوي الوظائف. فلم يُحضرهم السلطان لديه ولا أدنى أحداً منهم إليه. فرجعوا بعد معاينة الحَين، بِخُفي حُنَيْن، ثم لم يزَلْ يتربصوا[7] به الدوائر، وينصبوا[8] له الحبائل، ويقيه الله سيّئات ما مَكروا، ويدفع عنه بالسلطان ما قصدوا. وها هو اليوم سيّد قومه وفرقَد دهْره، والمُسوَّد في عشيرته، المبَيِّض لوجوه الأيام بسيرته. وله إخوة ميامين كُبراء أمراء فضل ومِرا؛ وهم أهل بيت عظيم الشأن. مشهور السادات إلى أموال جمّة ونِعَمٍ ضخمة، ومكانة في الدول عالية. وديارهم مرج دمشق وغوطتها بين إخوتهم آل فضل وبين أعمامهم[9] آل مِرا، ومُنتهاهم إلى الجَوْف والحيَّانيّة[10] إلى الشبكة إلى تيماء إلى البراذع[11].

---

(١). ساقطة من ت.

(٢). ت: تشت.

(٣). ت: نازل.

(٤). أورد بعض هذا النص القلقشندي، قلائد: ٧٨.

(٥). ت: عصبة.

(٦). ت: حدث.

(٧). د: يتربصون.

(٨). د: وينصبون.

(٩). ت: وبني أعمالهم.

(١٠). ت: الجنانية.

(١١). القلقشندي، قلائد: ٨١.

وأمّا آل مِرا فبيت الإمرة فيهم آل أحمد بن حجّي. وبقيّتهم آل منيخر. وأميرهم سعد بن محمد. وآل نُمَي. وأميرهم برجس بن سُكال، وآل بقرة وأميرهم علوان بن أبي غرّاء، وآل شمّاء وأميرهم عمرو بن واصل. ثمّ صارت الإمرة في بيتين؛ في آل أحمد: فمن بيت نَجّاد بن أحمد قناة بن نجّاد. ومن بيت سليمان بن أحمد شطّي[1] بن عمرو بن توبة بن سليمان. وأحمد هذا هو ابن حجّي بن يزيد بن نبل[2] بن مِرا بن ربيعة. والإمرة مقسومة بين هذين الأميرين نصفين. ويدخل في إمرتهم مَن يُذكر -وهم: حارثة، والحاصّ. ولام، وسعيدة، ومُدلج. وفرير[3]. وبنو صخر، وزُبيد حَوران، وهم زبيد صرخد -وقد تقدّم ذكرهم. وبنو غني، وبنو عزّ ويأتيهم من عرب البريّة آل طُفير، والمفارجة، وآل سلطان. وآل غُزيّ، وآل برجس. والخرسان. وآل المغيرة، وآل أبي[4] فضيل، والزرّاق، وبنو حُسين الشرفاء، ومُطير، وخثعم. وعدوان. وعنَزة. وآل مِرا أبطال مناجيد، ورجال صناديد وأقيال قل: ﴿كونوا حجارةً أو حديدا[5]﴾. لا يعد معهم عنترة العبسي ولا عرابة الأوسيّ، إلاّ أنّ الحظّ لحظ بني عمّهم أتَمُّ مما لحظهم. ولم تزل بينهم نوب الحرب ولهم في أكثرها الغلب. وقد كانت لهم بأحمد بن حجي الأنفة الشماء، والرتبة التي لا تتطاول إليها السماء، ثم قتلت بينهم القتلى، وأنزف قوة بأسهم سفك الدماء، وتشتّتت كلمتهم بقسمة الإمرة على أنه لو لم تُقسم لظل بينهم كل يوم قتيل وأُخذ بجريرته قبيل لإباء نفوسهم، وعدم انقياد نظير منهم لنظير. وديارهم من بلاد الجيدور والجولان إلى الزرقاء والضليل إلى بصرى. ومشرقاً إلى الحرة المعروفة بحرة كشب قريبة مكة المعظمة إلى شعباء[6] إلى نير بن مزيد إلى الهَضب المعروف بهضب الراقي. وربّما طاب لهم البرُّ وامتدّ بهم المَرعى أوان خِصب الشتاء فتوسّعوا في الأرض. وأطالوا عدد الأيام والليالي حتى تعود مكة المعظمة وراء ظهورهم، ويكاد سُهيل يصير شامَهم، ويُصلّون مستقبلين بوجوههم الشام[7].

وأما زُبيد الغوطة والمرج وقد تقدمت الإشارة إليهم. وإمرتُهم في بني نَوْفل وهم والمشارقة

---

(1). ساقطة من ت.

(2). ت: نبل.

(3) ت: قرير.

(4). ت: بني.

(5). سورة الإسراء: الآية ٥٠.

(6). ت: شعباء.

(7). القلقشندي، قلائد: ٧٩-٨١.

جيران. وليس للمشارقة إمرة. ولكن لهم شيوخ منهم. وأمرُ هؤلاء وهؤلاء إلى نواب الشام ليس لأحد من أمراء العرب عليهم إمرة. وديارهم جميعاً المرج والغوطة بدمشق إلى لاهة إلى أُمّ أوعال إلى الرُّويشدات، وعليهم الدَّرك وحفظ الأطراف. وبهم تمّ ذكر بني ربيعة.

قال الحمداني وقد ذكر أعيانهم: وفي آل ربيعة جماعة كثيرة أعيان لهم مكانة وأُبَّهة. فأوّل من رأيت منهم مانع بن حديثة وغنّام أبو الظاهر[1] على أيام الملك الكامل. ثم حضر الكلّ في هذه الأيام إلى أبواب السلاطين من دولة المُعزّ أيبك وإلى أيام المنصور قلاوون؛ وهم: زامل بن علي بن حديثة، وأخوه أبو بكر بن علي، وأحمد بن حجّي وأولاده وإخوته، وعيسى بن مهنا وأولاده وأخوه -وهم رؤساء أكابر[2] وسادات العرب ووجوهها. ولهم عند السلاطين حرْمة كبيرة وصيت عظيم إلى رونق في بيوتهم ومنازلهم[3]:

مَن تلقَ منهم تقل لاقيت سيّدَهم مثل النجوم التي يسري بها الساري[4]

قال الحمداني: إلا أنهم مع بُعد صيتهم قليل عددهم. قلت[5]:

تُعَيِّرنا أنّا قليل عَديدُنا فقلتُ لها: إنَّ الكرامَ قليلُ
وما ضَرَّنا أنّا قليلٌ عديدنا وجَارُنا عَزيزٌ وجَارُ الأكثرين ذليلُ

قال المهمندار الحمداني: وقد وفد فرج بن حيّة على المُعزّ؛ ونزلناه بدار الضيافة وقعد أياماً، فجاء مقدار ما وصل إليه من عين وقُماش وإقامة -له ولمن معه- ستة وثلاثون ألف دينار. واجتمع أيام الظاهر جماعة من آل ربيعة وغيرهم، وحصل لهم من الضيافة خاصة في المدة اليسيرة أكثر من هذا المقدار. وكلُّ ذلك على يديّ قال: وما يعلم ما خرج على يديّ من بيوت الأموال والخزائن والغِلال للعرب خاصة إلا الله تعالى مما لا يحصر[6] إلا بالجهد. فسبحان مَن سخّر لهم وقَسَمَ.

قلت: قد قال الحمداني هذا واستكثره وأطال في هذا واستعظمه واستكبره فكيف لو عُمِّر إلى زماننا ورأى إليهم إحسان سلطاننا، ورأى العطايا كيف كانت تفيض فيهم فيضاً من

---

(١). ت: الظاهر.

(٢). ساقطة من ت.

(٣). المبرد، الكامل: ١/٧٨-٧٩. ونسبه لعبيد الكلابي.

(٤). البيت ساقط من ت.

(٥). أبو تمام، الحماسة: ٨٠، ونسبه للسموأل.

(٦). ت: يحصه.

الذهب العين. والدراهم بمئين ألوف، والخلع الأطلس بالأطرزة الزركش، وأنواع القماش الذي يفصّل لملبوسهم بالسمّور والوشق والسنجاب. والبرطاسي، والأطرزة المزركشة[1]، والملمّع والباهي. والساذج، والعتّابي من الإسكندري وفاخر المقترح والمصبوغات المجوهرة، والذهب، وأنواع الزركش لنسائهم، والسكر المكّرر. والأشربة المختلفة بالقناطير المقنطرة، وأحمال الجمال المقطرة إلى ما يُنعم به على أعيانهم من الجواري الترك والخيل للنِتاج، والفحول للمهائر -مع ما يُطلق لهم من الأموال الجمّة بالشام، ويقطع باسمهم من المدن والبلاد. ويملّك لهم من القرى والضياع ويعطى ضمانهم، ويُجرى من الإقطاعات لهم وللائذين بهم. وللمتجوّهين بجاههم؛ مع المكانة العليّة، والشفاعات المقبولة في استخدام الوظائف، وترتيب الرواتب، وإقطاع الجند. والإطلاق من السجون، والرعاية في الغيبة والحضور إلى غير ذلك من تجاوز أمثال الكفاية في الإنزال والمضيف لهم ولأتباعهم: منذ خروجهم من بيوتهم وإلى حين عودهم إليها؛ مع مؤاكلة السلطان مدة إقامتهم بحضرته غداء وعشاء. والدخول عليه في المحافل والخلوات. وملازمته أكثر الأوقات. وإنْ وجدت لساناً قائلاً فقل! وهم إلى الآن يُقلعون بتلك الريح ويستضيئون بتلك المصابيح.

قال الحمداني: ولقد رأيتهم في الوقائع مع مَن غلب إلا نوبة حمص؛ يعني الكائنة أيام المنصور قلاوون. فإنهم أثّروا أثراً حسناً، وعملوا في التتار عملاً جيداً، وقاتلوا قتالاً شديداً. وربما تقدموا الجيش في اللقاء؛ فكانوا سبب الكرَّة: يعني المؤدّية إلى النُصرة.

قلت: وحكى لي شيخُنا شهاب الدين أبو الثناء محمود أنه رأى آل مرا حين جاءوا تلك الكرَّة[2]. قال: كنت جالساً على سطح باب الإسطبل السلطاني بدمشق وقد أقبلوا زهاء أربعة آلاف فارس شاكين في السلاح على الخيل المسوَّمة، والجياد المُطهَّمة، وعليهم الكُزْغَندات الحُمر من الأطلس المعدني، والديباج الرومي، وعلى رؤوسهم البيض، متقلّدين بالسيوف، بأيديهم الرماح كأنهم صقور على صقور: وأمامهم العبيد تميل على الركائب، ويرقصون بتراقص المهاري، وبأيديهم الجنائب التي ظلّت إليهم عيون الملوك صوراً، ووراءهم الظعائن والحَمول، قال: وكانت معهم مغنيّة لهم تعرف بالحضرميَّة؛ وكانت لها

(1). ت: المرزكش.

(2). ت: المرة.

سُمعة طائرة في زمانها، ورأيتها سافرة من الهَودج وهي تغنّى(1):

وكُنّا حَسِبْنَاً كلَّ بيضاء شحْمَةً ... لَيالِيَ لاقينا جُذاماً وحِمْيَرا

ولمّا لقينا عُصْبَةً تغلبيّةً ... يقودون جُرْداً للمنيَّةِ ضُمَّرا

فلمَا قَرَعْنا النّبْعَ بالنّبْع بَعضَهُ ... ببعض أبَتْ عِيدَانُهُ أن تكسَّرا

سَقَيْنَاهُمُ كأساً سَقَوْنا بمثلها ... ولكنّهم كانوا على الموت أصْبَرا

فقال رجل كان إلى جانبي: هكذا يكون وربِّ الكعبة! فكان الأمر كما قال. فإن الكسرة كانت أولاً على المسلمين ثم كانت النُّصرة لهم، واستحرّ القتل بالتتار. فسبحان منطق الألسنة،

ومصرِّف الأقدار، فهو الفاعل لما يشاء -الفاعل المُختار.

وإذ قد انتهينا من(2) ذكر آل ربيعة؛ فلنذكر ما حضرنا من بقيّة العرب وديارهم فنقول:

بنو خالد عرب حِمص يدَّعون النسب إلى خالد. وقد أجمع أهل العلم بالنسب على انقراض عقبة. ولعلّهم(3) من ذوي قرابته من مخزوم؛ وكفاهم ذلك فخراً أن يكونوا من قريش.

وبنو كلاب: عرب أطراف حلب والروم. ولهم غزوات معلومة، وغارات لا تُعد. ولا تزال تباع بنات الروم وأبناؤهم من سباياهم(4). وهم يتكلمون بالتركية، ويركبون الأكاديش: وهم عرب غُزّ، رجال حروب، وأبطال جيوش. ولإفراط نكاياتهم في الروم صُنّفت السيرة المعروفة بدلهَمَة(5) والبطّال منسوبة إليهم بما فيها من مُلح الحديث، ولُمَح الأباطيل، والكذب فيها يغلب الصحيح. وقد رأيت لعبدالوهاب ذِكراً في سواها، فقيل: عبدالوهاب بن نُوبَخت. وذكر الحافظ أبو القاسم بن عساكر البطّال وسمّاه عبدالله الأنطاكي وذكر أنه كان أيام بني مروان؛ وفيها هلك. ومصنّف هذه السيرة قد جعله أيام بني العباس: وذلك حديث خُرافة ولم أقف لدَلهمة على ذكر ألْبَتّة فيما يوثَق به. وقد نبَّهت على هذا ليُعرف. قلت: وذكر

(1). النابغة، ديوان: 71.

(2). ت: في.

(3). ت: ولهم.

(4). ت: منايا هم.

(5). كذا في الأصول والصواب ذات الهمة.

لي رجال من بني فروان(1) أنهم ينتسبون إلى عبدالوهاب هذا.

قال المهمندار الحمداني ما معناه: فأما بنو كلاب عرب الروم فقد كانوا ظهروا على آل ربيعة لأنّ الملك الكامل كان طلب من مانع بن حديثة وغنام بن الظاهر جمالاً يحمل عليها غلالاً إلى خلاط يُقوّيها بها فاعتذر بأنّ الجمال عزبَتْ في البرية؛ وكان بعض بني كلاب حضوراً لديه فتكفل له بحاجته من الجمال، ووفى بقوله: فحقدها الكامل على مانع بن حديثة وغنام بن الظاهر، واستوحشا منه، ثم أتياه عند أخذه آمد فوبّخهما وقال: والله لولا أنكما عربيّان(2) لأفعلن بكما الواجب! فخرجا خائفين منه إلى أن فتح دمشق فأتياه بأنواع التقادم وتقرّبا إليه بالخدمة. قال: وكانت بنو كلاب تخدم الملك الأشرف موسى وتصحبه لمتاخمته لبلاد الروم. وكانوا مترصّدين لخدمه، ومعدودين من خدَمِه.

قلت: وكان سلطاننا لا يزال متلفّتاً إلى تألق بني كلاب. وكان أحمد بن نُصير المعروف بالتتريّ قد عاث في البلاد والأطراف، واشتد في قطع الطريق فامّنه، وخلع عليه وأقطعه فانقادت بنو كلاب. وحكى لي الأمير علاء الدين الطنبغا أيّام نيابته بالشام أنّ بني كلاب أشد العرب بأساً. وأكثرهم ناساً ولكنهم لا يدينون لامرئ منهم يجمع كلمتهم. قال: ولو انقادوا لأمير واحد لم يبقَ لأحد من العرب بهم قِبَل ولا طاقة. ولما توجّه إلى حلب لإمساك طَشتمر أتاه مشاهير بني كلاب مثل أحمد بن نُصير ونديّ بن ضحّاك وغيرهم؛ فكانوا أعوانه وظُهَرَاءه. ولم يزالوا معه حتى حقّت عليه النوبة ففارقوه من المعيصرة وكان ذلك بمُباطنةٍ من سليمان بن مهنا لهم. وكانوا قد صاروا أحلافاً له: وكان الملك الناصر قد أمّره على عرب(3) بني كلاب، وجعل عليه حِفظ جعبر وما جاورها.

وآل بشار ديارهم الجزيرة والأخص ببلاد حلب. والأحلاف منهم حالهم في عدم الانقياد لأمير واحد حال بني كلاب، ولو اجتمعوا لَمَا أُمِنَ بأسهم. وهم على تفرُّق كلمتهم، وتشتُّت جماعتهم لا يزال آل فضل منهم على وَجَل. وطالما باتوا وقلوبهم منهم ملأى من الحذر، وعيونهم وسْنَى من السَهَر، وبينهم دِماء. وهم(4) وبنو ربيعة بنو عِجل جيران. وديارهم من سنجار وما يُدانيها إلى البازار قريب الجزيرة العُمرية إلى أطراف بغداد.

(1). د: مروان.

(2). ت: لو أنكما عربي.

(3). ساقطة من د.

(4). ساقطة من ت.

غَزِيَّة؛ قال الحمداني: وهم بطون وأفخاذ ولهم مشايخ؛ منهم مَن وفَدَ على السلاطين في زماننا وهم متفرقون في الشام والحجاز وبغداد، وفيما بين العراق والحجاز. وأمّا شيوخ غَزِيّة الذين في طريق بغداد إلى الحجاز الذين مياههم اليَحْموم، والنصَف[1]، والنُخيلة، والمُغيثةد، مياه البطنَين. ومياه الأجود ليتة، والثعلبية[2]، وزَرود.

فمن غزيّة البطنين؛ منهم آل دُعيج -وكان شيخهم مانع بن سليمان قد وفَدَ الديار المصرية سنة ثلاث وستمائة، وآل روق، وآل رُفيع، وآل سريّة، وآل مسعود، وآل تميم. وآل شمَرْدل -هذان البطنان من غزيّة.

بطون الأجود بن غزيّة: آل منيع، وآل سنيل، وآل سند، وآل منان[4]. وآل أبي الحزم، وآل علي، وآل عقيل. وآل مسافر. هؤلاء هم المشهورون من بطون غزية؛ والله أعلم. هذا ما ذكره الحمداني. قلت: وذكر لي نصر[5] بن برجس المشرقي زيادة: أولاد الكافرة، وساعدة. وبنو جميل وآل أبي[6] مالك. وأما أحلاف آل فضل فقد قدّمنا ذكرهم فيهم.

وديار آل أجود[7] منهم الرُخيمية. والوَقبَى[8]. والفردوس، وليتة والحَدَق. وآل عمرو بالجوف. وديار بقاياهم اللصَف، والكمن، واليحموم، والام، والمغيثة. ومنهم[9] ساعدة، وديارهم من الخضراء إلى برّيّة زرُود -ولا محيد للركب العراقي عنها؛ إلى سعارة، إلى النقعاء، إلى الثيب[10]، إلى السائبة[11]، إلى حفر. وخالد ودارها التنومة[12]، وضشيدة[13]، وأبو الزيدان، والقوبَع، وضارج[14]، والكوارة، والنبوان[15] إلى ساقة العرفة، إلى الرسوس،

---

(١). ت: اللصيف.

(٢). ت: المعيبة.

(٣). ت: التعلبه.

(٤). ت: منال.

(٥). ت: نصير.

(٦). ت: بني.

(٧). ت: أخود.

(٨). ت: الوقى.

(٩). د: وبينهم.

(١٠). ت: التيب.

(١١). ت: السامنة.

(١٢). ت: الشومة.

(١٣). ت: وصيدة.

(١٤). ت: صارج.

(١٥). ت: البنوان.

إلى عُنيزة، إلى وَضاح[1]، إلى جبَلة إلى السرّ إلى العُردَة، إلى العشرية[2]، إلى الأنحل. وخفاجة وعُبادة عرب بغداد والعراق. وقال ابن عرّام: منازل عُبادة من بغداد إلى الموصل. وبمَرْج دمشق قوم من عبادة. وخَفَاجة من هِيت والأنبار إلى الحِلَّة إلى بئر ملاَّحا[3] إلى الكوفة، إلى قائم عنقاء والثرثار، إلى المثنى[4] دون البصرة، وهو غاية مرمامهم ونهاية بُعدهم[5].

قال الحمداني: إنّهم[6] وفدوا على الدولة الظاهرية بعد كسرة الخليفة المستنصَر المجهَّز من مصر لاستفتاح العراق. وكان كبير جماعتهم خضر بن بدران بن مقلّد بن سلمان بن مهارش العباديّ، وشهرَى بن أحمد الخفاجي في أشياخ منهم: مقبل بن سالم، وعيّاش بن حُدَيثة[7]، ووشاح وغيرهم. فأنعم الملك الظاهر عليهم وقنّاهم. ثم كانوا عيناً له على التتار. وأعواناً له للانتصار[8].

عُربان العذار: وهم عرب المُسيب بالبطائح. وقد كانوا يعصون على الخلفاء وملوك التتار لتمَنُّعهم بالماء والمقاصب المعلّقة والأجم المتأشّبة. ومقدَّمهم ابن زرف[9]: وهم من سِنْبس، والجبور، وآل نطاح؛ إلى بطون أخرى. وقد صاروا أهل مَدَرة، وحلاّل دارة لا يبارحونها؛ ورزقُهم مقدّر عليهم[10].

عرب العارض: والعارضين وراء الوَشم. والوشم هو الذي ينتهي إليه آل فضل إذا توسّعوا في البر: وهم بنو زياد والجميلة، وعرب الخرج؛ وهم العقفان والبرحان. ومن بلادهم البُريك والنعام؛ وهما قريتان في واد منيع إذا حصِّن مدخله بسور كان أمنع بلاد الله. قال ابن عرّام: وإلى هذا الوادي أزمع تِنكز[11] على الهرب حين خاف من الملك الناصر. وعليه

---

(1). ت: وضاح.

(2). د: العشيرية.

(3). ت: مرملاحا.

(4). ت: المثي.

(5). القلقشندي، قلائد: ٨٩.

(6). ساقطة من ت.

(7). ت: حنشة.

(8). القلقشندي، قلائد: ١٢٢.

(9). د: رووف.

(10). القلقشندي، نهاية الأرب: ١١٣.

(11). هو تنكز سيف الدين أبو سعيد نائب السلطنة بالشام. انظر: الصفدي، الوافي: ١٠/ ٤٢٠.

طريق ركب الحسا، وعليه ممرّ الركب من الحسا والقطف. وفيه يقول بعضهم:

لعلّك توطيني نَعاماً وأهله ... ولو بان بالحُجَاج عنه طريق

عائذ بني سعد: دارهم من حرمة إلى جُلاجِل. والتويب ووادي القرى؛ وليس بالوادي المقارب لمدينة الشريفة النبوية -زادها الله شرفاً -ويُعرف بالعارض ورماح والحفر.

قلت: وحدّثني أحمد بن عبدالله الواصلي أن بلادهم بلاد خير ذات زرع وماشية بقرىً عامرة. وعيون جارية، ونَعَم سارحةٍ. ولأرضهم بذلك الوادي منعة[1] وحصانة. قال: وقد كان المظفر بيبرس الجاشنكير اهتمّ بقصده واللحاق به والمُقام فيه، وأن يكون فيه كواحد من أهله مرتزقاً من سوائم الإبل والشاء. قال: ثم انثنى رأيه عن ذلك آخر وقت: ولو وجّه إليه وجيءٌ كان أحمد لمنتجعه، وأدنى لعوده إلى صلاح الحال ومرتجعه[2].

بنو يزيد: ودارهم ملهم، وبُنيان، وحَجْر، ومَنفوحَة، وصُباح. والبرَّة. والعُوَيْند[3]، وجوّ.

المزايدة[4]: دارهم البحْراء، وحرَمة؛ وهي حرمة أخرى غير التي تقدّم ذكرها: وسبخة الدّبيل. ونحلُوة. والهُرَيم، والبُرَيك، والنعَام[5]، والخَرْج.

عقيل: وهم من آل عامر. قال الحمداني: وهي غير عامر المنتفق وغير عامر بن صعصعة. قال: ومنهم القديمات، والنعائم. وقبات، وقيس. ودنفل، وحرثان، وبنو مُطرِّق وذكر أنهم وفَدوا في الأيام الظاهرية صحبة مقدّمهم محمد بن أحمد بن العقدي بن سنان بن عقيبة[6] بن شبانة بن قديمة بن نُباتة ابن عامر، وعُوملوا بأتمّ الإكرام، وأفيض عليهم سابغ الإنعام، ولُحِظوا بعين الاعتناء. قلت: وتوالت وفاداتهم على الأبواب العالية الناصرية، وأغرقتهم تلك الصَدَقات بديَمِها؛ فاستجلبت النائي منهم. وبرز الأمر السلطاني إلى آل فضل بتسهيل الطريق لوفودهم، وقصادهم، وتأمينهم في الوِرد والصَدَر؛ فانثالت عليه جماعتهم. وأُخلصت له طاعتهم، وأتته بأجلاب الخيل والمهارى. وجاءت في أعِنّتها وأزمّتها تتبارى[7]: فكان لا يزال منهم وفود بعد وفود، وكان منزلهم تحت دار الضيافة لا يزال يسدُّ

---

(١). د: منعة.

(٢). القلقشندي، نهاية الأرب: ٣٣٤.

(٣). ت: العرنيد.

(٤). ت: المزايدة.

(٥). ت: ونعام.

(٦). ت: عضلة.

(٧). ت: عبارى.

فضاء تلك الرحاب، وتغصُّ بقبابه تلك الهضاب بخيام مشدودة بخيام، ورجال بين قعود وقيام. وكانت الإمرة فيهم في أولاد مانع إلى بقيّة أمراء فيهم وكبراء لهم[1] ودارهم الأحساء والقطيف، وملّج، وأنطاع، والقَرعاء، واللِهابة، وجودة، ومُتالع[2].

شمَّر ولأْم من عرب الحجاز: وديارهم جبلا طيّئ، أجَأ وسَلمى. وظفير من بني لأم ومنزلهم الطعن قبالة المدينة النبوية -على ساكنها أفضل الصلاة والسلام[3].

حرب: وهي ثلاثة بطون. بنو مسروح وهم بنو سالم، وبنو عبدالله ومنهم زُبيد الحجاز، وبنو عمرو وهم من[4] أكثر العرب عدداً، وأجرأهم رجلاً باطشة ويداً -ومساكنهم الحجاز[5].

أمّا بقية عرب الحجاز والمصارحة، والمساعيد، والرزّاق، وآل عيسى. ودغم[6]، وآل جناح، والجبور؛ فدارهم تتلو بعضها بعضاً بالحجاز. وقد تقدّم من ذكر هؤلاء ما تقدّم في آل ربيعة.

وأما أكلب فبطون كثيرة وهم من خثعم بن أنمار. وقيل من ربيعة خثعم. قال الحمداني: ومنهم خليجة[7]، جماعة قروة[8]، وبنو هزر -ومنازلهم بيشة[9] شرقي مكة المعظمة. وأما خثعم فمنهم بنو منبِّه، والفرّع، وبنو نضيلة[10]، ومعاوية، وآل مهدي، وبنو نضر. وبنو حام، والمُوركة، وآل زيّاد، وآل العصافير[11]، والسما، وبلوس؛ ودارهم غير متباعدة ممّن تقدم.

قلت: وبالشام من صليبة العرب أقوام شتّى في البلاد قد خرجوا بها عن حكم العرب، وصاروا بها أهل حاضرة ساكنة، وعمار ديار قاطنة. فمدينة غزة وبلد الخليل -عليه السلام- معمور بني تميم الداري -رضي الله عنه وبوادي بني زيد فرقة من بني جعفر بن

---

(١). د: أمرائهم وكبرائهم.

(٢). القلقشندي. قلائد: ١٢٠-١٢١.

(٣). القلقشندي. نهاية الأرب: ٢٠٨.

(٤). ساقطة من د.

(٥). القلقشندي. قلائد: ٩٠.

(٦). ت: دعم.

(٧). ت: حليحة.

(٨). ت: فروة.

(٩). ت: بثينة.

(١٠). د: فضيلة.

(١١). د: الصعافير.

أبي طالب، وفرقة من بني عمر بن الخطاب -رضي الله عنهما. وبالقدس منهما، وبنابُلس كثير من قحطان وطائفة من مضر بن نزار. وبجِينِين وبلادها أقوام من حارثة ومن بكر بن وائل وبجبل عاملة صليبة عاملة. وبالأغوار أخلاط من الموالي. وبعجلون فرقة من بني عمر بن الخطاب. وبالبَلقاء منهم، ومن بني أميّة ومن غسان. وبصرخد وبلادها من عامر بن هلال يدّعون أنهم من بني جعفر بن أبي طالب. وبعتيل[1] وما ينضم إليها من بني أسد. وبزُرع وبُصرى أقوام من تغلب ومن الأزد. وبأذرعات قوم من بني جُمح من قريش: وفي بعض قراها قوم يدّعون أنهم من بني جعفر بن أبي طالب. وباليرموك صليبة من غسان. وبتَوَى قوم يذكرون أنهم من بني المنذر بن ماء السماء. وبالشَعْراء قوم من بني أمية. وباللوى[2] قوم ينتسبون إلى كِندة. وبمَرْج دمشق أخلاط من طوائف العرب. وبحمص قوم من غسان. وبحماة أقوام من عبدالدار ومن جُهينة وشداد من الأنصار. وبشَيزر قوم من بني كلب وفرقة من بني مازن. وبالجبل المعروف بالظَنّيّين فرقة من همدان. وبسلميّة من بني الحسين بن علي. وبالمَعَرّة صليبة تنوخ. وبحلب وبلادها من بني الحسين بن علي. ومن بني عقيل ومن بني كِلاب وكَلب ومن جهينة ومن بني قرّة، وبتدمُر والمناظر رجال من أسلم وقوم من بني كلب[3]. وبالقريتين نفر من بني تغلب. وبالرحبة المعروفة بمالك بن طوق قوم من بكر بن وائل ورجال من مضر وآخرون من ربيعة -وعامة أهلها من أبناء اليهود على ما يقال وذكرت هذا مثالاً لا[4] استيعاباً إذ لا قدرة على تحقيقة والإتيان على جمعه[5].

وأما مصر ودمشق فمصران جامعان ولا يخلوان من بيوت العرب وذوي الحسب منهم والنسب.

عرب مصر: قيل، وبدمياط سنبس، وهم من الغوث بن طيّئ وكان لهم أيام الخلفاء الفاطميين شأن وأيام؛ وهم الخزاعلة، وجُموح، وعبيد[6]، وحلفاؤهم من عُذْرة فرقة غير مَن تقدم ذكره -ومُدلج. وديار هؤلاء من ثغر دِمياط إلى ساحل البحر. وتجاورهم فرقة من

(١). د: بعثليث.

(٢). د: باللجون.

(٣). «ومن جهينة... كلب» ساقطة من ت.

(٤). ساقطة من ت.

(٥). «على جمعه» ساقطة من ت.

(٦). ت: عيبد.

كنانة بن خزيمة أتوا أيام الفائز الفاطمي في وزارة الصالح بن رُزِّيك ومقدَّمهم لاحق. ومن ولده قاضيَ القضاة شمس الدين بن عدلان، وفرقة من بني عديّ بن كعب؛ وفيهم رجال من بني عمر بن الخطاب ومقدَّمهم خلف بن نصر العمري؛ فنزلوا بالبُرُلُّس وكانوا هم والكنانيون من ذوي الآثار نوبة دِمياط[1].

قلت: ونحن من ولد خلف بن نصر المذكور؛ وهو شمس الدولة أبو علي. وقد وجد خاصة والوفد الكنانيّ عامة من ابن رُزّيك فوق الأمل، وحلُّوا محلَّ التكرمة عنده على مباينة الرأي ومخالفة المعتقد. وقد أتيت بذلك مفصَّلاً في كتاب «فواضل السمَر في فضائل آل عمر». قلت: إنما قدَّمت هذا الفصل لغرض هو تعلُّقُه بنسبي وقومي الذين أنا منهم.

قال الحمداني: أول مَن سكن مصر جذام حيث جاءوا مع عمرو بن العاص. وأُقطعوا فيها بلاداً بعضها بأيدي بَنيهم إلى الآن. ثم عدَّ مَن بها بالصعيد من العربان في زمانه: فقال: أوّلهم بنو هلال؛ ولهم بلاد أُسوان وما تحتها. ثم بليّ: ولهم بلاد إخْميم وما تحتها. ثم جُهينة: ولهم بلاد منفلوط وأُسيوط. ثم قريش؛ ولهم[2] بلاد الأشمونَين. ثم لَواتة: ويقال فيهم «لواتا» ولهم معظم بلاد البهنسا. ومنهم أُناس بالجيزة وأُناس بالمنوفيّة، وأناس بالبحيرة. وهم قبائل متفرقة يجمعهم لَواتة. ثم بنو كِلاب، ولهم بلاد الفيُّوم. قال: وهؤلاء القبائل المشهورة في الصعيد[3]. ثم ذكر جُملاً من أحوالهم؛ وقال:

فأما بنو هلال فيرجعون إلى عامر بن صعصعة من قيس عيلان. وكانوا أهل بلاد الصعيد كلّها إلى عيذاب. وبإخميم منهم بنو قُرَّة. وبساقية قَلْتة منهم بنو عمرو وبطونهم وهم بنو رِفاعة وبنو حُجير وبنو غُرير. وبأُصفون وأسنا بنو عقبة وبنو جميلة. ثم بنو جميلة منهم نجم الدين الأُصفُونيّ الوزير[4]. وكان فقيهاً كاتباً عارفاً بأمور الديوان، ضابطاً للأموال: ثَقُل على الشجاعي[5]؛ وكان مشدّاً معه ولم تمتد له معه يد في مال السلطان. فدسَّ له سُمّاً في كعكة وأعطى عبداً كان له مائة دينار ليُطعِمَها له بكرة يكون فِطْرُه عليها وأوهمه أنها عُملت للتأليف بينهما! فأطعمها ذلك العبد الجاهل سيّدَه فكان فيها حتفه، واحتاط

---

(1). المقريزي، البيان: ٧-١١.

(2). ت: ثم.

(3). المقريزي، البيان: ٢٧.

(4). هو عبدالرحمن بن يوسف بن إبراهيم نجم الدين الأصفوني (٦٧٧-٧٥٠هـ)، السيوطي، حسن المحاضرة: ١/٢٨٠.

(5). هو الأمير علم الدين سنجر الشجاعيّ أول مَن ولي الوزراة من الأمراء؛ السيوطي، حسن المحاضرة: ٢/٢٢٢-٢٢٣.

الشجاعي تركته وأمسك العبد وقتله وأخذ ما كان يملكه، ووجد معه الدنانير بصرّتها فأخذها.

وأما بليٌّ فمن قضاعة؛ وكانوا مفرّقين فاتّفقت هي وجهينة فصار لبَليٍّ من جسر سوهاي غرباً إلى قريب قمولة. وصار لها من الشرق من عقبة قاو[1] الخراب إلى عيذاب. قال: والموجود اليوم في هذه البلاد من أصول بليّ بن عمرو: بنو هُنَيّ، وبنو هرم، وبنو سوادة. وبنو خارفة[2]. وبنو رايس، وبنو ناب، وبنو شاد -وهم الأمراء الآن- وبنو عجيل بن الذيب[3] وهم العجلة وفيهم الإمرة أيضاً. ثم قال: ويقال إنّ بني شاد من بني أمية -وصل؛ يعني إذ طردوا إلى القصر الخراب المعروف بهم؛ وكان معه رجل من ثقيف معه قوس فسمّوه القوس. وذُرّيّته يُعرفون بالقوسية والقَوسَة. ودعوتهم لبني شاد وهم بطوخ. وكذلك يدعى لهم خلق سواهم منهم هُذيل وهم بطوخ أيضاً. ومنهم بنو حمّاد وبنو فضالة بمنفلوط. وبنو خيار بفَرْشوط. وقال: إن قوماً زعموا أنّ بني شاد من بني العجيل بن الذيب[4] وإنما هم إخوتهم. وإنما العجيل كان قد تزوّج أخت إبراهيم بن شاد فولدَت منه ولداً سمّته شادياً فوهَم الجهَلة لذلك[5]. قال: وقد قال قوم إن عجيل بن الذيب[6] من ولد الشمر قاتل الحسين -عليه السلام؛ وليس كذلك!

وأما جهينة فمن قضاعة. وهم أكثر عرب الصعيد. وكانت مساكنهم في بلاد قريش فأخرجتهم قريش بمساعدة عسكر الخلفاء المصريين فهم اليوم في بلاد إخميم أعلاها وأسفلها. قال: وروي أن بليّاً وبطونها كانت بهذه الديار، وجهينة بالأشمونين جيران بمصر كما هم بالحجاز: فوقع بينهم واقع أدّى إلى دوام الفتنة. فلما أتى العسكر المصري لإنجاد قريش على جهينة خافت بليّ فانهزمت في أعلى الصعيد إلى أن أُديلت قريش وسكنت دار جهينة. ثم حصل بينهم جميعاً الصلح على مساكنهم هذه التي هم بها الآن. وزالت الشحناء[7].

---

(١). ت: قاي.

(٢). ت: حارفة.

(٣). ت: الريب.

(٤). ت: الريب.

(٥). المقريزي. البيان: ٢٩.

(٦). ت: الريب.

(٧). المقريزي، البيان: ٣٢-٣٣.

قلت: وفي المثل: «وعند جهينة الخبر اليقين»[1]. قال أبو عبيدة: خرج حصن بن عمرو بن معاوية

بن كلاب ومعه رجل من جهينة فنزلا منزلاً فقتل الجهيني الكلابي وأخذ ماله. وكانت للكلابيّ أخت اسمها صخرة فجعلت تبكيه في المواسم؛ فقال الأخنس الجهنيّ فيها[2]:

كصَخْرَةَ إذ تُسائلُ في مراحٍ ... وفي جَرْمٍ وأعلمُها ظنونُ

تُسائلُ عَن حُصينٍ كلَّ حَيٍّ ... وعند جُهَيْنة الخبرُ اليقينْ

وقيل: بل كان جهينة يخدم ملكاً يمانياً، وكان له وزير إذا غاب الملك خلفه الوزير على بعض[3] حظاياه فتبعه جهينة بحيث لم يره: فلما جلس الوزير على مقعد الملك في لبسه والحظية إلى جانبه غنّى وقد أخذ منهما السُّكْرُ:

إذا غاب المليكُ خلوتُ ليلي ... أضاجعُ عنده ليلي الطويل

كأنَ مَطارحَ الوشحاتِ منها ... هيالٌ يطَّردْنَ على وَهيل

فلما دخل فيهما السُّكْر قام جهينة فقتل الوزير ودفن رأسه تحت وسادة الملك؛ فلما أتى الملك وفقد الوزير جهد في تعرُّف خبره فلم يقف عليه حتى سكر جهينة عنده فقال:

تسائلُ عن نُجيدةَ كلَّ وقتٍ ... وعند جُهَينة الخبرُ اليقينْ

فسمعه بعض النُّدماء: فأخبر الملك، فسأله[4] فأوقفه على الخبر؛ فأمّره على بلاد كثيرة وأجزل له العطاء.

وأما قريش فمنهم الجعافرة، وهم من الزيانبة؛ ومنهم الزيانبة، ومنهم الشريف تغلب صاحب ذروة سَرَبام؛ ومسكنهم المتمرَّع من بحريّ منفلوط إلى سملوط غرباً وشرقاً. قال: ولهم أيضاً حدود ببلاد أخرى يسيرة. قال: وبحرجة منفلوط قوم من بني الحسن بن علي. وفي سُيُوط أناس من أولاد إسماعيل بن جعفر الصادق؛ يُعرفون بأولاد الشريف قاسم. ثم ذكر بطون الجعافرة فقال: منهم بنو أيمن وهم الحيادرة منسوبون إلى جدّهم حيدرة.

---

(1). الميداني، مجمع الأمثال: ٢/٤.

(2). الميداني، مجمع الأمثال: ٢/٤.

(3). ساقطة من ت.

(4). ساقطة من د.

ومنهم السلاطنة أولاد أبي جُحيش؛ والإمرة فيهم في بني تغلب. وسمَت نفوسهم إلى المُلْك وخصوصاً الشريف حصن الدين. وقد كان أنِف من إمارة المُعزّ والدولة التركيّة، وكاتب الملك الناصر بن العزيز؛ وأرسل له الظاهر بيبرس حبائل الغدر، وصاده بغوائل المَكر حتى شنقه بالإسكندرية. قال: وهذه نبذة من أخبار الأشراف بالصعيد، وحدوده بلادهم، وبلاد مواليهم وأتباعهم وحلفائهم من بلاد الأشمونَيْن بالصعيد إلى بحريّ إتليدم وما انحدر بالذروة[1].

قال: وأما غير الأشراف من قريش الساكنين بالصعيد فمنهم بنو طلحة وبنو الزُبير. وبنو شيبة وبنو مخزوم، وبنو أميّة، وبنو زُهرة، وبنو سهم. ومن موالي بني هاشم بنو محر[2] وهم بنو قَنْبَر مولى عليّ بن أبي طالب -رضي الله عنه.

فأما بنو طلحة؛ فمن بني طلحة بن عبدالله بن عبدالرحمن بن أبي بكر الصديق -رضي الله عنه: وهم ثلاث فرق هم وأقرباؤهم، وأطلق على الكل اسم بني طلحة. فالأولى بنو إسحاق. ويقال إنّ اسم إسحاق ليس بجدٍّ لهم؛ ولكنه موضع تحالفوا عنده سمَّوه إسحاق كناية- كما تحالفت الأزد عند أكمةٍ سمَّوها مذحجاً. والثانية فصا[3] طلحة: وهم بطون كثيرة وأكثرهم أشتات في البلاد لا حدَّ لهم. والثالثة يُعرفون ببني محمد من ولد محمد بن أبي بكر الصديق -رضي الله عنهما. ومنازل بني طلحة بالبُرجين، وسفط سكرة، وطَحا المدينة[4].

وأما بنو الزُبير فمنهم بنو عبدالله بن الزبير؛ وهم بنو بدر، وبنو مصلح، وبنو رمضان. ومنهم بنو مصعب بن الزبير، ويعرفون بجماعة محمد بن رواق. وبنو عُروة بن الزبير وهم بنو غنيّ وبلادهم بالبهنسا وما يليها؛ وأكثرهم ذَوو معايش وأهل فِلاحة وزرع وماشية وضرع[5].

وأما بنو مخزوم فيدّعون بُنُوَّة خالد بن الوليد. وكذلك ادَّعى ذلك خالد بالحجاز، وخالد حمص، وغير هؤلاء، وقد أجمع أهل العلم بالنسب على انقراض عقبة ولعلّهم من سواهم.

(١). المقريزي، البيان: ٣٣-٣٥.

(٢). ت: ومن الموالي بني هاشم وبنو شيبة وهم بنو قنبر.

(٣). ت: قضا.

(٤). المقريزي، البيان: ٤٠.

(٥). المقريزي، البيان: ٤١، القلقشندي، قلائد: ١٤٨.

فهم من أكثر قريش بقية وأشرفهم جاهلية. وبلادهم متاخمة لما يليهم[1] وفيهم بأس ونجدة[2].

وأما بنو شيبة فيُعرفون بجماعة نهار، وهم من جماعة شيبة بن عبدالدار؛ وديارهم نواحي سفط وما يليها ويقاربها ويدانيها[3].

وأما بنو أمية فمن بني أبان بن عثمان بن عفان، وبني خالد بن يزيد بن معاوية، وبني مسلمة بن عبدالملك، وبني حبيب بن الوليد بن عبدالملك: وديارهم تَنْدة وما حولها. قال: ومن هؤلاء المراونة من ولد مروان بن الحكم؛ ولهم قرابات بالأندلس وأشتات في المغرب. ومرّت الدولة الفاطمية وهم بأماكنهم من ديار مصر لم يُرَوَّع لهم سرب، ولم يكدَّر لهم شرب: وهم إلى الآن[4].

وأما بنو سهم فمن ولد عمرو بن العاص وهم بالفسطاط وفرق منهم أشتات بالصعيد ولهم حصة في وقف عمرو بن العاص على أهله بمصر. قلت: وقد ذكر القضاعي في «خطط مصر» دور السهميين: قال: وهي حول المسجد حيث كان الفسطاط وهو موضع المحراب وما يليه من جانبيه إلى حيث السواري القبلية[5].

قال: وفي بلاد قريش أخلاط من الناس سواهم. وذكرهم فقال: وأما كنانة طلحة فهي من كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر؛ وهم بنو الليث. وبنو ضَمرة – وهما ابنا بكر بن عبدمناة بن كنانة؛ وبنو فراس بن غنم بن ثعلبة بن الحارث بن مالك بن كنانة. وفي بني فراس يقول عليّ بن أبي طالب -رضي الله عنه- لبعض مَن كان معه: لَوَدَدْتُ أنّ لي بألف منكم سبعة[6] من بني فراس بن غنم بن ثعلبة! قال: ولم تمكِّنهم قريش من التعدية إلى بلادها إذ أتوا من بلاد بادية الحجاز إلاّ بمراسلة بني إبراهيم بن محمد. وكان مع كنانة جماعة من أخلاط العرب دخلت في لفيفها، وديارهم ساقية قُلتة وما يليها؛ وبنو الليث ومنهم خاصة سكان ساقية قلتة[7].

---

(١). د: بينهم.

(٢). المقريزي، البيان: ٤٢.

(٣). المقريزي، البيان: ٤٢.

(٤). المقريزي، البيان: ٤٣.

(٥). المقريزي، البيان: ٤٣.

(٦). ت: شيعة.

(٧). المقريزي، البيان: ٤٧.

وأما الأنصار فمنهم بنو محمد وبنو عِكرمة بحري منفلوط. قال: وبنو محمد من بني حسّان بن ثابت -رضي الله عنه. وبنو عكرمة ينتمون إلى سيّد الأوس سعد بن معاذ -رضي الله عنه[1].

وأما عوف فمن بني سليم. وفي سليم عوف أخرى. قال: ومنهم في الصعيد. والفيوم. والبحيرة أناس كثير. وفي برقة إلى الغرب منهم ما لا يحصى[2].

وأما فزارة فمن سعد بن قيس عيلان: فمنهم جماعة بالصعيد وجماعة بضواحي القاهرة في قليوب وما حولها، وبهم عرفت البلد المسمّاة بخراب فزارة[3].

قال: وقد مضى ذكر قريش ومَن ساكنها.

وأما لواتة -وهم يقولون إنهم من قيس بن غطفان بن سعد بن قيس. وقال بعض النسّابين: هم من ولد برٍّ من ولد قيذار بن إسماعيل كان قد ارتكب معصية فطرده أبوه وقال له: البَرَّ البَرَّ! إذهب يا بَرّ! فما أنت برّ! فأتى فلسطين فتزوّج امرأة من العماليق فوُلد له منها أولاد منهم لَواتة، ومزاتَة[4]، وزنارة[5]، وهوّارة، وزُويلة. ومغيلة، ومَلّيكة، وكتامة وغمارة، ونفوسة. وكانوا من ذوي جالوت: فلمّا قُتل دخلوا المغرب. وقيل: إن البربر من ولد قِفط بن حام! وقيل غير هذا كلّه[6].

عاد الحديث إلى لواتة. وهم بنو بلار وحدو خاص، وبنو مجدول، وبنو حديدي، وقطوفة، وبركين، ومالو، ومزُورة[7]. قال: وبنو حديدي مجمع أولاد قريش، وأولاد زعازع - وهم أشهر مَن في الصعيد. وقطوفة تجمع مغاغة وواهلة، وبركين تجمع بني زيد وبني روحين، ومزورة تجمع بني وركان وبني عرواس[8].

قال: وأما بنو بلار ففرقتان؛ فرقة بالبهنساوية، وفرقة بالجيزيَّة. فالفرقة البهنساوية بنو محمد، وبنو علي، وبنو نزار، ونصف بني ثهلان. وأما الفرقة التي بالجيزية فبنو مجدول،

---

(١). المقريزي. البيان: ٤٧.

(٢). المقريزي. البيان: ٤٨.

(٣). المقريزي. البيان: ٤٨.

(٤). ت: مراته.

(٥). ت: زقاره.

(٦). المقريزي. البيان: ٤٩.

(٧). ت: فرورة.

(٨). ت: وركان وبني عزواس.

وسفارة، وبنو أبي كثير، وبنو الجلاس، ونصف بني ثهلان. قال: ويقال لهذه الفرقة حدو خاص. ويقال للأولى البلارية. ومنهم مغاغة ولهم سَمَلوط إلى الساقية. ولبني بركين أُقْلوسَنا وما معها إلى بحريّ طَنبدي. ولبني حدو خاص الكُفُور. وسفط بوجرّجة إلى طنبدي واهريت. ومنهم بنو محمد وبنو عليّ المقدم ذكرهما. وأمراؤهم بنو زعازع.

قال: ومزورة بنو وركان. وبنو عرواس[1]، وبنو جماز، وبنو الحكَم وبنو الوليد، وبنو الحجاج، وبنو المحربية. قال: ويقال: إنّ بني الحجاج من بني حماس: ولهذا يؤدون معهم[2] القطائع. وقال: وبنو نزار في إمارة بني زعازع: وهم من بني زربة. ومنهم نصف بني عامر، والحماسنة. والضباعنة. وأفرد قوم منهم لإمارة تاج الملك عزيز بن ضبعان ثم ولده. ومنهم أيضاً بنو زيد أمراؤهم أولاد قريش. ومساكنهم نُويرة دلاص. وكان قريش عبداً صالحاً كثير الصدقة: وهو والد سعد الملك الباقي بنوه.

قال: وفي المنوفيّة من لواتة أيضاً جماعة يأتي ذكرهم في مكانهم. قال: وبالصعيد من لخم قوم يسكنهم بالبر الشرقي. ومنهم من بني سماك[3] بنو مرّ. وبنو مليح، وبنو نبهان، وبنو عبس. وبنو كريم، وبنو بكر. وديارهم من طارف ببا إلى منحدر دير الجمّيزة من البرّ الشرقي. ومنهم من بني حدّان بنو محمد، وبنو علي، وبنو سالم، وبنو مُدلج، وبنو عبس. وديارهم من دَيْر الجمّيزة إلى تُرعة صول[4]. ومنهم من بني راشد بنو معمر، وبنو واصل، وبنو مرا، وبنو حبّان، وبنو معاذ، وبنو البيض، وبنو حجرة، وبنو سنوة. وديارهم من مسجد موسى إلى أُسكر[5] – ونصف بلاد أتفيح. ولبني البيض الحيّ الصغير. ولبني سنوة من تُرعة شريف إلى معصرة بوش. ومنهم من بني جعد بنو مسعود. وبنو جرير، وبنو زبير، وبنو نمال، وبنو نصار: وسكنهم ساحل أتْفيح. ومنهم من بني عديّ بنو موسى، وبنو محرب. ومساكنهم بالقرب منهم من بني بحر بنو سهل، وبنو معطار. وبنو فهم، وبنو عشير، وبنو مسند، وبنو سباع –ومسكنهم الحيّ الكبير. ومنهم قسيس ومساكنهم بلاد الأسكر. ولبني غُنيم منهم العَدويّة ودَير الطين إلى جسر مصر. ومنهم بنو عمرو، ومساكنهم من الرستق،

---

(١). ت: وغراس.

(٢). ت: يؤذن لهم.

(٣). ت: شمال.

(٤). ت: صون.

(٥). ت: أشكو.

ولهم نصف خَلزان. ولبني حجرة النصف الثاني، ونصف طُرا(١).

وأما عرب الحوف فمنهم جذام. وجذام من كهلان من اليمن. وقد قيل: إنّهم من ولد يعضر بن مدين بن إبراهيم الخليل -عليه السلام. وروى محمد بن السائب أنه وفَدَ على رسول الله (وفد من جُذام فقال: مرحباً بقوم شعيب وأصهار موسى. وزعم بعضهم أنهم معد؛ وفي ذلك يقول جنادة بن خشرم:

ألا مَـن مُـبْـلـغُ المضَـريـنَ أنّـا	غضـبْـنـا كـل أجـوف كـالـهـلال
ومــا قــحْــطــانُ لي بــأبٍ وأُمٍّ	ولا يـصــطـاذني شـبـهُ الضـلال
ولـيـس إلـيـهـمُ نَـسَـبـي ولـكـنْ	مــعــدّيـاً وجَـدْتُ أبـي وخـالـي

قال: ومن إقطاعهم هُربيط، وتلّ بسطة. ونوب، وأمّ رماد(٢) وغير ذلك. وجميع إقطاع ثعلبة كان في مناشير جُذام من زمن عمرو بن العاص: وإنما السلطان صلاح الدين وسّع لثعلبة في بلاد جذام؛ ولذلك كانت فاقوس وما حولها لهلبا سويد(٣).

قال: ونبدأ قبل كل شيء بولد زيد بن حرام بن جذام: وهم سويد. وبعجة، وبرذعة، ورفاعة. وناتل. ومن هؤلاء بطون كثيرة فمنهم هلبا مالك، ومالك هو ابن سويد. ومنهم الحسنيون، والغوارنة -وهم أولاد الحسن والغور ابنَي بكر بن موهوب بن عبيد بن مالك بن سويد. ومنهم بنو أسير؛ وهو ابن عبيد بن مالك بن سويد. ومنهم العقيليّون، وهم بنو عقيل بن قُرّة بن موهوب بن عبيد بن مالك ابن سويد -وفيهم إمرة: وهم في نجم وبنيه. وفيهم مَن أُمِّر بالبوق والعلم؛ وهو أبو رشد بن حبشي بن نجم بن إبراهيم بن مسلم بن يوسف بن واقد بن غدير بن عقيل بن قرّة. ودِحيَة وثابت ابني هانئ بن حوط بن نجم بن إبراهيم.

عدنا إلى بقيّة بطونهم. ومنهم اللّبيديون، ومنهم البكريون. وعدّ من أحلافهم أولاد الهويرية، والرداليين، والحليفيين، والحصينيين، والربيعيين. قال: ويُعرفون بحلف بني الوليد: وهم أولاد شريف النجّابين. وذكر أنّ لهم نسباً في قريش إلى عبدمناف بن قصيّ. وذكر من ولد الوليد بن سويد طريف ابن(٤) المكنون الملقّب رزين الدولة. قال: وكان من

(١). المقريزي. البيان: ٥٩.

(٢). ت: ورم رماد.

(٣). المقريزي. البيان: ٢٣.

(٤). ساقطة من د.

أكرم العرب. وكان في مضيفته أيام الغلاء اثنا عشر ألفاً تأكل كل يوم. وكان يهشم الثريد في المراكب. ومن أولاده فضل بن شمخ بن كمونة، وإبراهيم بن غالي: وأمّر كلٌّ منهما بالبوق والعلم.

عدنا إليهم. ومنهم[1] الحيادرة من ولد حيدرة بن معروف بن حبيب بن الوليد بن سويد: وهم طائفة كبيرة. وبنو عمارة بن الوليد: وفيهم عدد. ولهم البيروم. والحيّيون من بني حيَّة بن راشد بن الوليد. وأولاد منازل وكان منهم معيد بن منازل؛ وأمّر ببوق وعلم.

وهَلْبَا سويد. ومنهم العطويون، والحميديون، والجابريون، والغثاورة. ويقال لهم أولاد طرّاح المكوس. وحمدان، ورومان، وحمران. وأسود -ويُعرف هؤلاء الأربعة بالأخْيَوَة، واللكين، والقتلان.

قال: ومن بطون الحميديين أولاد راشد. ومنهم البراجسة، وأولاد سرير، والجواشنة، والكُعوك. وأولاد غانم[2]، وآل حمود، والأخْيَوَة، والزرقان، والأساودة، والحماديون. ومن بني راشد الحراقيص. والحنافيش، وأولاد غالي[3]. وأولاد جوّال. وآل زيد. ومن التجابية أولاد تجيب. وبنو فُضيل[4].

قال: ومن ولد مالك بن هلبا بن مالك بن سويد نُمَيّ أبو خثْعم. وأقطع خثعم وأمِّر، واقتنى عدداً من المماليك الأتراك والروم وغيرهم. وبلغ من المَلِك الصالح أيوب منزلة. ثم حصل عند الملك المعز على الدرجات الرفيعة، وقدّمه على عرب الديار المصرية. ولم يزل على هذا حتى قتله غلمانه؛ فجعل المعز ابنيه سُلمى ودَغَش[5] عِوَضه، فكانا له نِعم الخلف. ثم قدم دغش دمشق فأمّره الملك الناصر ببوق وعلم. وأمّر الملك[6] المعز أخاه سُلمى كذلك فأبى حتى يُؤمّر مفرّج بن سالم بن راضي مثله! فأمّره! ثم أمَّر مزروع بن نجم كذلك -في جماعة كثيرة من جذام وثعلبة. قال: فهذه هلبا سويد بأنفارهم.

قال: وأما هلبا نعجة[7] بن زيد بن سويد بن نعجة[8] فهم هلبا، ومنظور، وردّاد، ونائل.

(١). ت: ومن.

(٢). ت: غنام.

(٣). ت: غاني.

(٤). د: النجابية أولاد نجيب وبنو فضل.

(٥). ت: دعش.

(٦). ساقطة من د.

(٧). د: بعجة.

(٨). د: بعجة.

فمن ولد هلبا مفرِّج بن سالم المقدم ذكره. ثم خلفه على إمرته ولده حسَّان. ومنهم أولاد الهريم من بني غياث بن عِصمة بن نجاد بن هلبا بن نعجة. وجوشن صاحب السراة المضروب به المثل في الكرم والشجاعة من منظور بن نعجة. والغُوَيْثية في عدد ردّاد بن نعجة. قال: ولناتل البئر المعروف ببئر ناتل على رأس السراة. ومن ولده مهنّا بن[1] علوان بن علي بن زبير بن حبيب بن ناتل. وكان جواداً[2]، كريماً طرقته ضيوف في شتاء ولم يكن عنده حطب يَقِدُه لطعام أراد أن يصنعه لهم فأوقد لهم[3] أحمال بز[4] كانت عنده! وكان له كفر برسوض بنواحي مرصَفَا. وبنو رُدَيني؛ وهم من بني رُديني بن زياد بن حسين بن مسعود بن مالك بن سويد. ومنهم أولاد جيّاش بن عمران ولهم تلُّ محمد.

وأما أولاد محربّة[5] أخي زيد -وهو ابن أمية، وقيل: ميَّة. وقيل: ليس هو بأخي زيد بل هو ابن زيد بن أمية، أو مية وقيل[6]: هو وزيد ابنا الصبيب. وقيل: بل الضبيب أبو أمية. ومن بني محربة أخي زيد رفاعة بن زيد بن ذؤيب جد بني روح: وهو الذي وفد على النبي(ﷺ) وعقد له على قومه فتوجّه إليهم فأسلموا على يديه. ووهب لرسول الله(ﷺ) -مِدعماً العبد- صاحب الشملة التي فيها الحديث -الذي قتل بخيبر.

ومنهم الشواكرة من شاكر بن راشد بن عقبة بن محربة. ولهم شنبارة بني خصيب. ومنهم أولاد العجار أدِلاء الحاج من زمن السلطان صلاح الدين وهلمَّ جرّا إلى الآن. ومنهم حُميدة بن صالح بن أسد بن عقبة. وفي عقبة هذا عدد يُعرفون به. وفرقة بالحجاز من واصل بن عقبة.

قال: فيما نقله عن المحدّثين من ذوي المعرفة -كما قال-: إنّ عمرو بن مالك بن الضُّبيب، وعشيرة، وزهير، وخليفة، وحصن أفخاذ من الضُّبَيْبيين، وأنّ بني خليفة وحصن قد انضافوا إلى بني عبيد بالحلف؛ ولهم موضع من حقوق هربيط يعرف بالأحراز. قال: وأما زهير فأكثرهم بالشام، والذين بمصر امتزجوا بولد زيد، وهم بحريّ الحوف إلى ما يلي أشموم:

(١). ت: مهيا.

(٢). ت: جوداً.

(٣). ساقطة من د.

(٤). د: بُرّ.

(٥). ت: محمد.

(٦). «فيه... وقيل» ساقطة من ت.

ومنهم: ومنهم[1] بني عرين.

قال: ومن بني جذام بنو سعد. وفي جذام خمس سعود: سعد بن إياس بن حرام بن جذام، وسعد بن مالك بن زيد بن أفصى بن سعد بن إياس بن حرام بن جذام؛ وإليه يُنسب أكثر السعديين. وسعد بن مالك بن حرام بن جذام. وسعد بن أبامة بن عُنيس بن غطفان بن سعد بن مالك بن حرام ابن جذام. وسعد بن مالك بن أفصى بن سعد بن إياس بن حرام بن جذام. قال: والخمسة اختلطت عندنا بمصر وأكثرهم مشايخ بلادٍ وخفراؤها. ولهم مزارع. ومآكل، وفسادهم كثير. من مقدّميهم أولاد فضل والسلاجمة وسكنهم من منية غَمْر إلى ريفها[2]: ومنهم شاور الوزير العاضديّ وإليه يُنسب بنو شاور كبار مِنية غمر وخفراؤها. وذكر ابن خلكان[3] أنه من سعد حليمة مُرضع النبي (ﷺ). ومنهم بنو عبدالظاهر الموقعين. قلت: رأيته ينسب نفسه إلى روح بن زِنباع. ومنهم أهل بَرْهَمْتوش ومشايخها: ومن هؤلاء بنو شاس.

قال: وفي بني سعد عشائر كثيرة منهم بنو شاس. وجوشن، وعلان؛ وفزارة بني سعد وفي بني سعد[4] تل طنبول إلى نوب طريف. ومنهم بدقدوس. ودمريط، ووليه[5]، ولسوس[6]. وهؤلاء جميعهم ديارهم ضواحي القاهرة إلى أطراف الشرقية. وبالإسكندرية من جذام ولَخْم أقوام ذوو عدد وعُدّة، وأهل شجاعة وإقدام، وضرب بالسيف ورشق بالسهام. ولهم أيام معلومة، وأخبار معروفة، ووقائع في البرّ والبحر مشهورة. وبرشيد القراطلة، ومصفونة من مرديش. وبالبحيرة، والغربيّة طوائف من مزاتة. وبقليوب طوائف من فزارة؛ ومنهم بنو بعاية؛ وفيهم أعيان ودارهم أطراف الشرقية وما أخذ شرقاً وقبلة[7].

وأمّا العائذ فكثير في العرب. والمشهور منها بمصر عائذ جذام. وبالحجاز عائذ ربيعة. وأما عائذ قرير فلما تنافرت ثعلبة وجذام ادّعوا في ثعلبة.

---

(١). ت: وهم.

(٢). د: زفيتا.

(٣). وفيات الأعيان: ٢/٤٣٩.

(٤). «وفي بني سعد» ساقطة من د.

(٥). ت: ووليلي.

(٦). ت: بلسوس.

(٧). انظر عن بطون جذام المقريزي، البيان: ١١-٢٣.

وبالمنوفيّة -كما تقدم- فرقة من لَواثة، منهم بنو يحيى، والوسوة، وعبدة[1]، ومصلّة، وبنو مختار قال: ومعهم في البلاد أحلاف من مزاته، وزنّارة. وهوارة، وبني الشعرية -إلى قوم آخرين. ومن زنّارة[2]: مرديش، وبنو صالح، وبنو مسام. وزُمران، ووَرْديغة، وعرهان، ولقان. ومن هوارة بنو محريش، وبنو سرات[3]، وبنو قطران. وبنو كبريث.

وأمّا ثعلبة مصر والشام فمن طيّئ. وفي كل من خَندف، وقيس، ومراد، ويمن، وثعلبة. قال: وكانوا كما ذكر -يعني ثعلبة مصر- يداً مع الفرنج قديماً! لكنّني لم أرهم إلا غزاة مجاهدين لهم آثار في الفرنج. وهي بَطْنان: درما، وزُريق -ابنا عوف بن ثعلبة. ويقال: بل ابنا ثعلبة لصُلبه. واسم درما عمرة، وإنما غلب عليه اسم أمّه درما. ومن أفخاذ درما بمصر: سلامة، والأحمر، وعمرو، وُصبير، وأُويس. ومن أفخاذ زُريق بها أشعث. ولبنى. قال: وثعلبة، وعُنين، ونيل إخوة: الثلاثة أولاد سلامان. قال: ومن درما البقعة وسبل[4] -ولد نافع بن قروان. والحنابلة وجدُّهم حسين. والمراونة جدُّهم مروان. والحيَّانيون من ولد حيّان بن درما. ومن زُريق بنو وَخم. والطَّلحيون. وفي الطلحيين آل حجّاج، وآل عمران، وآل حصيناة، والمصافحة؛ وكان مقدَّمهم سُقير بن جرجي، وأُمِّرَ بالبوق والعلَم. عُدْنا إلى بني زُرَيْق. ومنهم الصُبيحيّون. وفي الصبيحيين الغيوث، والرموث، والروايات، والنمول. والسحميين، والسعالى؛ وهم بنو حِصن، والرمالى، والوريثيين، والسنديين، والبحابحة. عُدنا إلى بني زُريق. ومنهم العقيليّون. والمساهرة، والجحافرة. ومنهمُ العلَيميون -وكان مقدّمهم عمرو بن عسيلة وأُمِّر بالبوق والعلم. وفي العُلَيميين القمعة، والرياحين بني مالك، والفرقة المعروفة بالأشعث بن زُريق. وفيهم رجال ذوو ذكر ونباهة؛ خدموا الدول، وعضدوا الملوك، وقاموا ونصروا. قال: ومن ثعلبة الجواهرة -جماعة سنجر بن عمر بن هندي. وأما بنو بياضة، والأحادسة فَبِقَطْيَا. وبنو صدر بالبدرية، وهو طريق البرّ من الشام إلى مصر[5].

وأما حرام ففي جذام: وقليل في عرب[6] مصر من يعرفها. وفي الخزرج حرام وحرام. قال: وما يدري أحد من أيّهما هذه التي بمصر. وفي خِندف حرام، وفي تميم حرام. قال:

---

(١). د: وعدة.

(٢). ساقطة من ت.

(٣). د: أشرات.

(٤). ت: شبل.

(٥). المقريزي، البيان: ٢٣.

(٦). ت: غرف.

وحرام هذه القاطنة بمصر من الخزرج؛ وهم بنو حيّة وبنو ذُبيان. قال: وهم أشتات بمصر وفيهم مشايخ بلاد، وخَوَلة. وقضاة، وفقهاء، وعدول. وليست لهم دار خاصة ولا مكان معروف. وقد عدّ الحمداني جماعة منهم ليس فيهم شهير[1].

وفي الدَقَهْليّة، والمُرتاحية عرب يُدعون الجمارسة، وقوم يُنسبون إلى قريش. وهم نفر من بني عُذرة -وهم من كنانة بن عذرة لا كنانة بن خزيمة. ومنهم بنو شهاب. وبنو رندة[2]، والرواشدة؛ وهم غير رواشدة هلبا سُويد، وبنو عصا، وبنو محمد، وبنو سنن، وبنو حَمزة، وبنو فراس؛ وهم بمنية محمود، ومِنية عدلان[3]. وبنو لأم وليسوا بلأم الحجاز، وبنو شمس، والفضيليون -وقرارتهم كوم الثعالب[4] وما داناها. وبها فِرقٌ من عمرو وزهير المقدم ذكرهم. والحصنيين، ورزانة، ولأحامدة - وليسوا بأحامدة هلبا؛ والحمارنة - وهم بنو حمران[5]، وبعضهم أصحاب إقطاع. وفي بني زهير هؤلاء من بني عزيز، وبني شبيب، وبني عبدالرحمان، وبني مالك، وبني عبيد غير عبيد[6] المقدم الذكر، وبني عبدالقوي، وبني شاكر - وهم غير شاكر عقبة، وبني حسن، وبني شمّاء -وهم غير شمّاء آل ربيعة[7].

بنو سُليم -وهم أكثر قبائل قيس. قال: ومساكنهم ببرقة مما يلي الغرب ومما يلي مصر. وفيهم الأبطال الأنجاد والخيل الجياد، والإمرة فيهم في أولاد عزاز بن مقدم. ومنهم مَزْيد بن عزاز -وكان رجلاً جليل القدر، جميل الذكر، معظماً في الدول. وبنوه زياد، وحُميد، وريّان؛ وكلّهم كرام، سراة. أماجد. وعطاء الله بن عمر بن عزاز -وكان للقرى والقراع؛ مطاعاً في قومه: وهو أبو خالد. وهم أهل بيت فيهم عدد جمٌّ من ذوي القدر. بنوه معزٌّ وعمر. ومن المشاهير منهم علويّ بن إبراهيم بن عزاز، وسلطان بن زيدان بن عزاز، وعمر بن مشعل بن عزاز. ومن أكابر جماعاتهم جماعة ابن مُليح المنصوري أصحاب غازي بن نجم، وعليان بن عريف، وبلبوش - وكان قد هرب من الملك الظاهر بيبرس فأنهد جيشاً وراءه فقاتله، ثم نُصر الجيش عليه وأمسك واعتقل، ثم أفرج عنه. وهو والد زيد ابن بلبوش؛

(١). المقريزي، البيان: ٦٢.

(٢). د: زيدة.

(٣). ت: منية عزلان ومنية عدلان.

(٤). ت: كرم الثعالب.

(٥). ت: والخمارنة وهم بنو خمران.

(٦). ساقطة من ت.

(٧). المقريزي، البيان: ٦٣-٦٥.

وجماعة سعيد بن العريب بن الأحمر يقاربه. ومن ذوي محالفيهم جماعة محمد الهوّاري[١].

قلت: وكان آخر عهدي أن الإمرة على عربان البحيرة لقائد بن مقدم، وخالد بن أبي سلمان -وكانا أميرين سيّدين جليلين، ذوي كرم وأمن يلاذ به ويُحرَّم إلى شجاعة وإقدام، وثبات رأي وإقدام؛ ثم لم أعلم ما حالت به الأحوال، وجرت بعدي به تصاريف الدهور[٢].

فأما منازل العرب من لدن الجيزية ضاحية القاهرة على البحيرة آخذاً إلى أقصى الغرب: فسأذكر منه ما أملاه الشيخ المقرئ الورع أبو يحيى زكرياء المغربي[٣] أحد الأئمة بقلعة الجبل - حرست. قال[٤]:

قبائل العربان من مصر إلى أقصى المغرب: جماعة قائد: زنارة، ومزاتة، وخفاجة، وهوّارة، وسماك -ومنازلهم من الإسكندرية إلى العقبة الكبيرة. ثم لبيد -وهم جماعة سلام: فزارة، محارب، قطاب، الزعاقبة[٥]، بشر، الجواشنة، البعاجنة، القبايص، أولاد سلمان، القصاص، العلاونة -ومنازلهم من العقبة الكبيرة[٦] إلى سوسة.

ثم جماعة جعفر بن عمر وهم: قتيل، المثانية، الباسة، عرعَرة، العظمة، العكمة، المزابيل، العزة. ومن جملة هؤلاء العزة الجعافرة جماعة جعفر بن عمر. ومنهم البداري أيضاً. وكذلك منهم السهاونة. والجلدة منهم أيضاً، وكذلك منهم أولاد أحمد أيضاً. ومنازلهم من سوسة إلى بئر السدرة - وهي آخر حدود الديار المصرية. ومسافتها عن الإسكندرية نحو شهر بسير القوافل. ثم منها طيْموم العلاونة - وهم غير أولئك، المهاملة، بنو بدر، ناصرة. وانتهاؤهم إلى قصر ابن أحمد في طرف مِسراتة من الساحل. ومن القبلة أرض فزّان وودّان - وحكمهما[٧] لأرض البُرنو السودان. ومسافة ما بين بئر السِدرة وبين مِسراته عشرة أيام[٨].

---

(١). المقريزي، البيان: ٧٠-٧١.

(٢). المقريزي، البيان: ٧١.

(٣). ت: المعزي.

(٤). ساقطة من ت.

(٥). ت: الرعا فيه.

(٦). تصنيف ت: ثم لبيد.

(٧). د: وحكمها.

(٨). المقريزي، البيان: ٧١-٧٢.

ومنهم من أرض مِسراته إلى بلاد طرابلس سليمان جماعة غانم بن زايد، ولهم الأرض من مسراته إلى باب مدينة طرابلس. ثم من طرابلس إلى قابس ذباب: وهي تجمع المحاميد والجواري جماعة عبدالله بن صابر ومُلْغَم بن صابر -وليسا بأخوين بل هم بنو عمّ من القبيلة(١).

قال الشريف أبو عمر عبدالعزيز الحسني الإدريسي -وهو من أهل غرناطة وله تعلق بخدمة السلطان أبي الحسن المريني؛ قال: ذباب مشيختهم لعبدالله بن رفيعة وأخيه إبراهيم، وأصلهم من سليم، وأرضهم من طرابلس إلى قابس، ويجاورهم في هذه الأرض الجواري، والمحاميد. وشيخ الجواري عبدالله بن سعيد، وشيخ المحاميد عطية بن سعيد.

ثم تنقسم الطريق من قابس: فطريق جنوبية على الجريد، وطريق شامية(٢) على الساحل. فالجنوبية الآخذة على الجريد أول قبائلها آل حجر وفيهم عدة أشياخ منهم مَرغم وذؤيب ابنا جعفر. وسفيان بن عطاء الله ورثيمة بن يخلف -وأرضهم من قابس إلى بشري وتأخذ في الساحل على الثنيَّة وبينهم أولاد صورة ومشيختهم في ابن مُهَلهِل وأخيه جرموز.

قال: وهم فرقة يسيرة وبينهم الكعبيون ويعرفون بالكعوب -وهم أكبر بيت بإفريقية من العرب؛ ومشيختهم في قوم يُعرفون بأولاد أبي الليل وهم أربعة إخوة: يعقوب، وأحمد، وخالد، وقتيبة. وتجاورهم قوم(٣) هم أعداء لهم يُعرفون بأولاد أبي طالب، ولهم شيوخ شتى، يعقوب، ومحمد ابني طالب، وبني عمّهم سمير بن عبدالله، ويعقوب بن الحصين، والحاج علي بن شيحة. وأرضهم من بشري إلى بِسْكَرة. ولهم في داخل البلاد إلى باب تونس، ولهم أماكن بها(٤).

ويليهم فرقة كبيرة تعرف برياح. وفيهم مُلك العرب القديم بالمغرب؛ وشيخهم يعقوب بن علي بن أحمد -وكان أبوه في غاية الكرم بعث إليه مَلك إفريقية بثلاثين جِملاً من البزّ الرفيع والتحف السنيَّة فوهبها ثلاثة(٥) من المستعطين لوقته. ويجاوره ابنا عمّه حلوف بن علي بن جابر ونطّاح أخوه -وهم أهل إبل يكون عند الرجل منهم نحو ستين ألف بعير. هكذا

---

(١). القلقشندي. نهاية الأرب: ١١٢.

(٢). د: شمالية.

(٣). إضافة من د.

(٤). ت: كثيرة.

(٥). ت: ثلاثين.

ذكر وعليه عهدته!

قال: ويليهم عرب الغرب الداخل وأول بلادهم وطاة حمزة. وسكانها فرقة يسيرة تُعرف بعوار[1] تنزل حول قلعة حمّاد. ويليهم عرب بلاد ريغو واركلة. وهما مدينتان داخلتان في الصحراء: وهم من فزارة وشيخهم طلحة بن معهود. قال: وهو رجل من أولياء الله والصالحين من عباده: وتنتهي أرضهم إلى المدية في الساحل. ويليهم سويد وشيخهم عريف بن عبدالله أبو زيدان. وهو رجل جليل القدر نبيه الذكر. وافر العقل، مشارك في أنواع العلم والأدب والتاريخ والمعرفة بأيام العرب، ووقائع الناس؛ وصحبته في الحج سنة ثمان وثلاثين وسبعمائة. فرأيت منه ما يملأ الصدر، ويُقرّ العين؛ وهو بمنزلة من السلطان أبي الحسن المريني لا تطاول ولا تحاول، ولا يطمع بها طامح ولا طامع. وينتهي حدّهم إلى تافيلّلت من أرض سِجِلماسة. قال هذا الشريف: ولأبي زيدان عدوّ من بني عمه يسمى صُقير بن عبدالله. قال: وهو أكبر سناً منه وحسباً. ويليهم عرب تُعرف بالفرايض يملكون إلى البحر المحيط وبلادهم حاحا. وزَكْراكة، وشَفْشاوة[2]، ومسوفة.

ومسوفة هذه أهل لثام وبرقع أزرق لا تزال تمشي الرجال بتلك البراقع والنساء مكشّفات الوجوه. قال: وسبب براقعهم إظهار الحزن على المهدي بن تومرت.

قال: وأما الطريق الثانية الشامية الآخذة من قابس على الساحل فغالب أهلها بَرْبَر، ومصامدة سكان مَدَرَة وأهل زرع وحَرث. قال: يلي آل حجر الآخذين من قابس إلى إسفاقس فيما هو على المهدية طائفة[3] تُعرف بحكيم وشيخهم سُحيم؛ وكان قد دخل الأندلس غازياً وحضر يوم طريف. وتنتهي هذه الطائفة إلى القيروان.

ويليهم دلاج. وكان شيخهم الحُمير، ثم قتل وقام ولداه[4] عبدالله ويحيى ابنا الحُمير. قال: وهم رُماة يرمون بقوس اليد رمْياً صائباً، ولهم تَفرّد بذلك دون بقيّة عرب الغرب. وأرضهم من سوسة إلى الحمّامات إلى الجزيرة القبليّة إلى تونس.

ويليهم طائفة من البربر من تونس إلى تَبِسّة إلى بلد العُنّاب. قال: وهؤلاء من هَوّارة، ولهم أشياخ كثيرة، ومرجعهم إلى أولاد حمزة والكعوب.

---

(١). د: بمغراوة.

(٢). ت: سقساوة.

(٣). ت: طائف.

(٤). ت: والداه.

ويليهم طائفة أخرى زرّاع من البربر والهاصة -وشيخهم صخر بن موسى.

ويليهم سَدْوِيكش (١). وبلادهم من قسطنطينية إلى بجاية. وشيخهم عبدالكريم بن منديل، وله اعتلاق بخدمة السلطان أبي الحسن.

ويليهم في جبال زواوة بربر من بني حسن، وزواوة.

ويليهم أرض متيجة، وسكانها بنو عبدالواد أصحاب تِلمسان وبنو عيّاد. وفرقة تُعرف بمغراوة. قال: ومغراوة نحو ثلاثين ألف فارس.

ويليهم تُجين وهم بأرض تِلمسان على وادي شلف. قال: وكلهم من بني عبدالواد وهم من زناتة. ويليهم بإفراطة من تِلمسان إلى فاس(٢).

وأما مسون فخالية من العرب.

ويليهم من فاس إلى مراكش رياح أيضاً المصامدة من مراكش إلى البحر المحيط.

فهذا ما ذكره الشريف أبو عمر عبدالعزيز الإدريسي. وحدّثني بذلك كلّه في صفر سنة تسع وأربعين وسبعمئة.

وأما عرب الطرق المسلوكة التي تتوجه فيها المحامل إلى مكة المعظمة. فقد ذكرنا فيما تقدم أنها أربع طرق ولا تقصد مكة غالباً إلا منها. وهي أربع جهات: مصر، ودمشق، وبغداد، وتعز. وقد ذكرنا آنفاً من العربان الذين بهذه الطرق من ملاّكها ومن يتحكم عليهم إذا حلّ بأرضهم كآل فضل وآل مِرا، وبني عقبة مَن لم يكن بُدٌّ من ذكره فيما تقدم. ونحن الآن نسوقهم طريقاً طريقاً وفريقاً فريقاً

فيكون أوضح إذ ذكر هذه الطرق وعربانها من المهم المقدم.

فأما طريق الركب المصري: من القاهرة إلى عقبة أيلة لعايذ. ومن العقبة إلى الدأماء ما دون القصب لبني عقبة. ومن الداماء إلى أكدَى(٣) وهي فم الضيقة لبليٍّ. ومن أكدى إلى نما -وهي آخر الوعرات- لجهينة. ومن نما إلى نهاية بدر على الفرعاء وإلى نهاية الصفراء

(١). ت: شدويكش.

(٢). ت: قادس.

(٣). ت: أكرى.

على نَقْب علي لبني حسن أصحاب الينبُع ويليهم من[1] أقاربهم من بني حسن أصحاب بدر إلى رملة عالِج في طرف قاع البزوة. ومن الصفراء إلى الجحفة ورابغ لزبيد الحجاز. ومن الجحفة على قديد وما حولها إلى الثنيّة المشرفة على عُسفان للشريف جسّار من بني حسن. ومن الثنية المشرفة على عُسفان إلى الفجّ وهو المسمّى بالمحاطب لبني جابر. وهم في طاعة صاحب مكة المعظمة، ومن المحاطب لصاحب مكة المعظمة[2] وبني حسن.

وأما طريق الرَكْب الشامي[3]:

« انتهى الجزء الرابع ويليه الجزء الخامس»

بعون الله

(١). ساقطة من د.

(٢). «ومن المحاطب... المعظمة» ساقطة من ت.

(٣). يبدو أن الوفاة أدركت ابن فضل الله قبل إتمام عمله، وبهذه الطريقة ينتهي الجزء الرابع من موسوعته دون أن يتمه.

فهــرس الأعــلام

الجزء الرابع

(أ)

(ب)

(ت)

(ث)

(ج)

(ح)

(خ)

(ز)

(س)

(ض)

(ط)

(ظ)

(ع)

(غ)

(ف)

(ق)

(ك)

(ل)

(م)

(ن)

(هـ)

(و)

(ي)

قائمة المصادر

قائمة المصادر

- ابن الأثير

الكامل في التاريخ. دار صادر، بيروت.

- أحمد بن حنبل الشيباني

المسند، تحقيق شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت.

- الإدريسي، أبو عبدالله محمد بن محمد الحسني

نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مكتبة الثقافة الدينية. القاهرة، ١٩٩٢م.

- الأصفهاني، أبو الفرج علي بن الحسين

الأغاني، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

- ابن أبي أصيبعة. أبو العباس أحمد بن القاسم

عيون الأنباء في طبقات الأطباء، دار الكتب العلمية، بيروت١٩٩٩م.

- ابن بطوطة، أبو عبدالله محمد بن إبراهيم

الرحلة، تحقيق عبدالهادي التازي، الأكاديمية المغربية. الرباط، ١٩٩٧م.

- البطليوسي، عاصم بن أيوب

شرح الأشعار الستة، تحقيق ناصيف سليمان عواد، بغداد، ١٩٧٩م

- البغدادي، إسماعيل

إيضاح المكنون، استانبول، ١٩٥١م.

هدية العارفين، استانبول، ١٩٥١م.

- البكري، عبدالله بن عبدالعزيز

المسالك والممالك. حققه وقدم له أوريان فان ليوفن، اندري فيري، الدار العربية للكتاب، تونس، ١٩٩٢م.

- البلاذري، أحمد بن يحيى

أنساب الأشراف. المعهد الألماني، دار فرانز شتانير، بيروت.

- أبو تمام، حبيب بن أوس

الحماسة بشرح المرزوقي. تحقيق أحمد أمين، دار الجيل، بيروت، ١٩٩١م.
- التيجاني، أبو محمد عبدالله
الرحلة، تحقيق حسن حسني عبد الوهاب، تونس، ١٩٥٨م.
- ثعلب، أبو العباس أحمد بن يحيى
شرح شعر زهير بن أبي سلمى، تحقيق فخر الدين قباوة، دار الفكر، دمشق، ١٩٩٦م.
- الجزنائي، علي
جني زهرة الآس في بناء مدينة فاس، المطبعة الملكية الرباط، ١٩٦٧م.
- جوزيف نسيم
العدوان الصليبي على مصر، دار النهضة، بيروت، ١٩٨١.
- ابن حجر، أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني
الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٥م.
- ابن حزم، علي بن أحمد
جمهرة أنساب العرب، تحقيق عبدالسلام هارون، دار المعارف، القاهرة.
- حسين مؤنس
فتح العرب للمغرب، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ١٩٩٠م.
- الحميري، محمد بن عبدالمنعم
الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، مكتبة لبنان. بيروت، ١٩٨٤م.
- ابن حوقل، محمد النعيبي
صورة الأرض، اعتناء، ج. هـ. كارمز، بريل، ليدن، ١٩٦٧.
- الحياري، مصطفى
الإمارة الطائية في بلاد الشام، عمان، ١٩٧٧م.
- ابن خاقان، الفتح
قلائد العقيان ومحاسن الأعيان، تحقيق حسين خريوش، دارالمنار، الزرقاء، ١٩٨٩م.
- ابن خرداذبة، عبدالله بن عبدالله
المسالك والممالك، دار صادر، بيروت
- ابن الخطيب، لسان الدين أبو عبدالله محمد بن عبدالله

الإحاطة في أخبار غرناطة. تحقيق محمد عبدالله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٧٥م.
نفاضة الجراب في غلالة الاغتراب، تحقيق أحمد مختار العبادي، مراجعة عبدالعزيز الأهواني، دار الكاتب العربي، القاهرة.
- ابن خلدون، عبدالرحمن بن محمد
التاريخ، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٧٢م.
- ابن خلكان، أحمد بن محمد
وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٦٩م.
دائرة المعارف الإسلامية.
- ابن دريد، محمد بن الحسن
الاشتقاق، تحقيق عبدالسلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٥٨م.
- ابن أبي دينار. أبو عبدالله محمد بن أبي القاسم
المؤنس في أخبار أفريقية وتونس، تحقيق وتعليق محمد شمام، المكتبة العتيقة، تونس، ١٩٦٧م.
- ابن رسته، أحمد بن عمر
الأعلاق النفيسة، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٨٨م.
- الزبيري مصعب بن عبدالله
نسب قريش، تصحيح ليفي بروفنسال، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٢م.
- الزهري، محمد بن أبي بكر
الجغرافيا، تحقيق محمد حاج صادق، ١٩٦٨م.
- السامرائي، خليل إبراهيم وآخرون
تاريخ الغرب العربي، جامعة الموصل، الموصل، ١٩٨٨م.
- ابن سعد، محمد بن سعد
الطبقات الكبرى، دار صادر، بيروت.
- ابن سعيد، علي بن موسى بن سعيد
الجغرافيا، تحقيق إسماعيل العربي، المكتب التجاري، بيروت، ١٩٧٠م.
المغرب في حلى المغرب، تحقيق شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٨م.

نشوة الطرب في تاريخ جاهلية العرب، تحقيق نصرت عبدالرحمن، مكتبة الأقصى، عمان، ١٩٨٢م.

- السيوطي، جلال الدين عبدالرحمن

حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، مطبعة مصطفى الكتبي، القاهرة.

- الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك

أعيان العصر وأعوان النّصر، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٧م.

الوافي بالوفيات، دار فرانز شتاينر فيسبادن، بيروت.

- ابن أبي الضياف، أحمد

إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان، تحقيق لجنة من كتاب الدولة للشؤون الثقافية، تونس، ١٩٦٣م.

- الطبري، محمد بن جرير

تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٧م.

- ابن عبدالبر، يوسف بن عبدالله

الاستيعاب في معرفة الأصحاب، تحقيق علي البجاوي، دار نهضة مصر، القاهرة، ١٩٦٠م.

الإنباه على قبائل الرواة، تحقيق إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٨٥م.

- عبدالحميد، سوادي

دراسات في تاريخ المغرب، بغداد، ١٩٨٠م.

- ابن عبدربه، أحمد بن محمد

العقد الفريد، تحقيق محمد سعيد العريان، مكتبة الرياض الحديثة.

- العكبري، أبو البقاء

شرح ديوان المتنبي، تحقيق مصطفى السقا، دار المعرفة، بيروت.

- العمري، أحمد

التعريف بالمصطلح الشريف، تحقيق سمير الدروبي، جامعة مؤتة، الأردن.

- عنان، محمد عبدالله

تراجم إسلامية شرقية وأندلسية، مكتبة الخانجي، القاهرة ١٩٧٠م.

- أبو الفداء، الملك المؤيد إسماعيل الأيوبي

المختصر في أخبار البشر، دار الكتب العلمية، بيروت.

- ابن الفقيه، أحمد بن محمد الهمداني

مختصر كتاب البلدان، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٨٨م.

- ابن قتيبه، عبدالله بن مسلم

المعارف، تحقيق ثروت عكاشة. دار المعارف القاهرة، ١٩٦٤

الشعر والشعراء. تحقيق أحمد محمد شاكر، دار إحياء الكتب العربية، ١٩٥٠ م

- قدامة بن جعفر

الخراج وصناعة الكتابة، تحقيق محمد الزبيدي، دار الرشيد، بغداد، ١٩٨٦م

- القزويني، زكريا بن محمد

آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر، بيروت

- القلقشندي، أحمد بن عبدالله

صبح الأعشى في صناعة الإنشا، تصحيح محمد حسين شمس الدين، دار الفكر، بيروت، ١٩٨٧

قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان، تحقيق إبراهيم الأبياري دار الكتب الحديثة، القاهرة. ١٩٦٣م.

نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، تحقيق إبراهيم الأبياري، الشركة العربية للطباعة، القاهرة، ١٩٥٩

- ابن الكلبي، هشام بن محمد

جمهرة النسب، تحقيق ناجي حسن، عالم الكتب، بيروت ١٩٨٦م.

- مجهول،

الاستبصار، نشر وتعليق سعد زغلول عبدالحميد، دار الشؤون الثقافية، بغداد، ١٩٨٦م.

- المراكشي، عبدالواحد بن علي

المعجب، وزارة الثقافة، دمشق. ١٩٧٨م

- المسعودي، علي بن الحسين

مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق محمد محي الدين، المكتبة الإسلامية،

بيروت ١٩٤٨م.
- المقري. أحمد بن محمد
نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٨٨م.
- المقريزي،
البيان والإعراب عما بأرض مصر من قبائل الأعراب، تحقيق عبدالمجيد عابدين، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٨٩م
النزاع والتخاصم فيما بين أمية وهاشم، تحقيق محمد بحر العلوم، المكتبة الحيدرية، بغداد، ١٩٦٦م.
- ابن منظور، محمد بن مكرم
لسان العرب، دار صادر، بيروت.
- الميداني، أحمد بن محمد
مجمع الأمثال، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد، دار النصر، بيروت.
- النابغة الذبياني
الديوان، دار صادر، بيروت.
- الناصري، أبوالعباس أحمد بن خالد
الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق وتعليق جعفر الناصري ومحمد الناصري، مطبعة دار الكتب، الدار البيضاء، ١٩٥٦م.
- ابن هشام، محمد بن عبدالملك
السيرة النبوية، تحقيق مصطفى السقا، دار الخير، بيروت، ١٩٩٠م.
- الهمداني، الحسن بن أحمد
الإكليل، تحقيق محب الدين الخطيب، الدار اليمنية، صنعاء، ١٩٨٧م.
- هنتس. فالتر
المكاييل والأوزان الإسلامية، ترجمة كامل العسلي، الجامعة الأردنية، عمان، ١٩٧٠م.
- هنري بيريس
الشعر الأندلسي في عصر الطوائف، ترجمة الطاهر أحمد مكي، دار المعارف،

القاهرة، ١٩٨٨م.

- الوزاني، الحسن

وصف إفريقيا، ترجمة محمد حجي، الشركة المغربية، الرباط، ١٩٨٠م.

- ياقوت الحموي

معجم البلدان، دار صادر، بيروت

- يوسف بني ياسين

بلدان الأندلس في أعمال ياقوت الحموي الجغرافية، دراسة مقارنة، رسالة دكتوراه غير منشورة، الجامعة الأردنية، ١٩٩٩م.

فهرس المحتويات

الفهرس